المقاييس البلاغية عند الجاحظ

في

البيان والتبيين

تأليف

دكتور/فوزي السيد عبدربه عيد
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين - القاهرة

٢٠٠٥



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

اسم الكتـــاب : **المقاييس البلاغية عند الجاحظ**

المــؤلـــف : **د. فوزى السيد عبد ربه**

النـاشــــر : **مكتبه الانجلو المصريه**

الطبـــاعـــة : **مطبعة أبناء وهبه حسان**

رقـم الإيـداع : **١٩٩٩٥ لسنه ٢٠٠٥**

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977- 05 - 2164- 7

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح الناطقين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهديه إلى يوم الدين .

«وبعد» ...

فإن علم البلاغة يحتل من المكانة السامية والمرتبة الرفيعة بين العلوم الدينية والعربية مالايستطيع أحد أن ينكره أو يشكك فيه .

وموضوع علم البلاغة هو ذلك الفن الأدبى الذى نزل به القرآن الكريم ، وبه أعجز العرب أهل الفصاحة والبيان ؛ ولذا كان النظر إلى الأدب - بصفة عامة - على أنه تعبير جميل عن فكرة جميلة ، وكانت علوم البلاغة هى الثمار التى أنتجتها تلك المحاولات لإحصاء مظاهر الجمال والروعة فى التعبير الأدبى ومايكمن فى هذا التعبير من دقائق وأسرار .

فالبلاغة - إذن - لايمكن فصلها عن موضوعها وهو الأدب الذى كان القرآن الكريم فى أعلى مراتبه ، وهؤلاء العلماء الأقدمون ممن ألفوا فى الفنون المختلفة كانوا يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً ، ويعلمون تلك المنزلة لهذه الأصول وتلك الضوابط البلاغية ، سواء قبل نضج هذه القواعد وانتظامها فى سلك العلوم ، أو بعد أن استقرت وأخذت صورتها النهائية وتحددت معالمها . والناظر فى مؤلفات هؤلاء الأقدمين يجدها غير بعيدة عن قواعد هذا العلم ، بل جاءت فى معظمها إما تطبيقاً عملياً لقواعد هذه العلوم ، أو شرحاً متناثراً لها .

ولعل التماس السبب فى هذا سهل ميسور ، فنواحى الفن الأدبى لاتكاد تنحصر، إذ أن الفن وثيق الصلة باللغة وبمفرداتها ، وبالنحو الذى تقوم العبارة وتصح على هدى من قواعده ، وبالتفسير الذى يستجلى مايحويه القرآن الكريم من معانٍ وأسرار ، وبالفقه الذى يبحث عن الأحكام من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى هى فى أعلى مراتب الفن الأدبى، وكذا علم الأصول وعلم الكلام وغيرهما من العلوم.

فعالم اللغة وعالم النحو وعالم التفسير أو الفقه أو الأصول أو الكلام وغيرهم كل هؤلاء كتبوا فى البلاغة العربية وقدموا – من خلال بحوثهم – دروساً وأصولاً وقواعد تمس علم البلاغة فى الصميم .

ومن ثم فإن نسبة هذا العلم لعالم معين أو فترة معينة من الزمان، هو ضرب من التسامح والتساهل والتقريب ، وليس على سبيل الدقة والتحديد .

فالمتتبع لتاريخ هذا العلم ينبغى أن يعود به إلى اليوم الذى اكتملت فيه اللغة العربية ، وأصبح لها كيان مستقل ، وأضحت لغة قوم يعتزون بها ويتفاخرون ، وهى عندهم أغلى بضاعتهم ، فلو عدنا إلى العصر الجاهلى نجد الشعراء يهتمون بتنقيح ألفاظهم وعباراتهم ، ويعنون عناية فائقة بمراعاة المناسبات والأحوال فى كل ماقالوا ، ولايرضون لأنفسهم أن توضع كلمة فى مكان ينبو عنها ولايليق بها ، كما نجد النقاد الذين لايحكمون على الأعمال الأدبية بدافع الهوى والذاتية ؛ وإنما يبنون أحكامهم على أساس من قواعد وأصول أقروها ، واعترف بها جمهورهم ، وهى وإن لم تكن مكتوبة فى كتاب يجمعها إلاَّ أنهم يحفظونها بفطرتهم وسليقتهم .

وأكاد أجزم بأن القواعد البلاغية كأصول ومقاييس كانت واضحة فى العقول العربية ، وكانوا يعلمون متى يبسطون الكلام ويطنبون القول ، ومتى يكتفون بالكلام الموجز واللمحة الدالة ، ويعلمون متى يؤكدون القول ومتى يرسلونه خلواً من التأكيد ، ومتى يقدمون أو يؤخرون إلى غير ذلك من الأصول التى كانوا يدركونها إدراكاً تاماً .

أقول هذا وأكاد أجزم به فى الوقت الذى كانت فيه أصول النحو وقواعده ليست موجودة فى عقول العرب ، ولم تكن واضحة لهم ، ولم يكونوا على علم بأسباب رفع هذا الاسم أو نصب الآخر ، أو موقع هذا من الجملة إلى غير ذلك من قواعد هذا العلم، وكل مايعرفونه من هذا أنهم يتكلمون بكلام صحيح مستقيم يؤدون به معانيهم وأغراضهم ، وعندما نظر العلماء فيه – فى بداية عصر التدوين – وجدوه كلاماً مضبوطاً له قياس ، فضبطوا هذه الأقيسة والضوابط ، ومن هنا فإنى لست مع القائلين بأن علم النحو واللغة يسبقان فى الوجود علم البلاغة ، ويعللون ذلك بعلل وأسباب أراها ضعيفة واهية .

وسنرى فى هذا الكتاب – إن شاء الله – وفيما نعرض له من نماذج مايوضح هذه الحقيقة ، ويدعمها بالدليل .

تاريخ البلاغة – إذن – سلسلة طويلة ، تبدأ حلقاتها – كما أشرت – منذ اكتملت اللغة العربية ، ثم تعددت هذه الحلقات وتوالت فى أطوار مختلفة ، وعصور

متباينة ، ومرت بعوامل قوة وضعف إلى أن وقفت عند حدود ورسوم واضحة لم يضف إليها شيئاً .

في هذه الحلقات وتلك الأطوار ، وفى مجال التأليف البلاغى نجد كثيراً من العلماء الأعلام الذين ساهموا فى بناء صرح هذا العلم ، والذين لمعت أسماؤهم لتضئ تاريخ هذا العلم .

والمؤرخ لهذا العلم لايمكن أن يغفل الدور البارز الذى قام به أبوعثمان الجاحظ فى بناء صرح هذا العلم ، فالجاحظ يقف من تاريخ هذا العلم فى مكان الصدارة والزعامة ، حتى عدّ - بكتابه «البيان والتبيين» مؤسساً لعلم البلاغة ، وأول كاتب فى البيان العربى .

وأهمية الجاحظ - عندى - لاتقف عند كونه أول من كتب فى البيان العربى كتاباً مستقلاً يحمل اسم البيان صريحاً ؛ ولكن أهميته ترجع إلى أنه الرجل الذى تصدى - فى كتاب مستقل هو «البيان والتبيين» - لقضية البيان العربى ، ودافع عن هذه القضية دفاعاً كان به رائداً ، فالبيان العربى - عنده - ليس مجرد أدب مرتجل على أفواه شعراء العرب وأدبائهم ، وإنما هو صناعة لها ضوابطها وأصولها ومقاييسها، هذا فضلاً عن جمعه لفنون الأدب شعره ونثره ، وبصره بجوانب الفن الأدبى ، وذوقه الوقاد فى كل مايعرضه من أساليب ، فمثل هذا الرجل الذى تعددت ثقافاته من قرآنية دينية إلى أدبية ولغوية . اصطبغت كلها بالفن الأدبى والذوق الرفيع ، ثم هو - فوق ذلك - يعرض للكثير من المسائل البلاغية فى بسط وشرح مستفيضين هو - من غير شك - يتكلم فى هذه المسائل كلام الخبير الذى يقف على مايعرض له من جميع جوانبه .

وإذا كان هناك إجماع من الكاتبين والباحثين على مكانة الجاحظ وكتابه ، والدور الرائد الذى أداه فى خدمة هذا العلم ، والآراء التى طرحها والمقاييس البلاغية التى شرحها وأوضحها فى «البيان والتبيين» فإن هناك إجماعاً آخر على أن هذه المقاييس ضالة فى هذا الكتاب ، وأنه ليس من السهل جمعها والوقوف عليها ، ووضعها فى كيان مستقل مميز عن معارفه التى اختلطت وامتزجت بهذه المقاييس والضوابط .

فهذا هو أبوهلال العسكرى (ت٣٩٥هـ) بعد أن يقرر أن «البيان والتبيين» هو أكبر كتب البلاغة وأشهرها يقول: «وهو - لعمرى - كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار

البارعة، وماحواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، ومانبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لاتوجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير[(١)] .

ونجد الأستاذ الدكتور/شوقى ضيف يقرر – أولاً – أن الجاحظ تجرد لدرس شئون البيان والبلاغة فألف كتابه «البيان والتبيين» ، ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه ؛ وخاصة المعتزلة ،[(٢)] ويقرر – ثانياً – أن الجاحظ أفرد للبلاغة – لأول مرة – كتابه «البيان والتبيين»[(٣)] ..

فكرة البيان – إذن – واضحة تمام الوضوح فى ذهن الجاحظ ، والكثير من المقاييس البلاغية التى تبعثرت هنا وهناك فى كتابه لم يضف إليها المتأخرون شيئاً ، ولكنها جاءت ممتزجة بمعارفه المتشعبة والمختلطة ، وسنقف مع هذه الظاهرة معللين وموضحين عند تقديمنا للباب الثالث من هذا الكتاب .

ولكن أليس من حق الجاحظ علينا ، بل من حق علم البلاغة أن نفتش عن هذه المقاييس الضالة المبعثرة فى كتابه ، والتى كان لها أكبر الأثر على التأليف البلاغى ، كما سنرى ذلك واضحاً فى الباب الرابع ، بل لانجاوز الحقيقة إذا قلنا إنها الأساس الذى قام عليه التأليف البلاغى بعده ، وبعد ذلك نحاول أن نضع هذه المقاييس فى إطار منظم يجمع هذه القواعد والأصول ، حتى يمكن للدارس أن يلتمس آراء الجاحظ البلاغية بسهولة ويسر ، فتكون الاستفادة من هذه الآراء أعم وأنفع ، على أن يكون هذا الجهد خطوة نحو تجميع آرائه ومقاييسه البلاغية فى كتبه الأخرى .

وهذا ماقصدت إليه فى هذا الكتاب ، هادفاً إلى استجلاء هذه الحلقة المهمة من حلقات البلاغة العربية ، ملقياً الضوء على ماسبقها من حلقات ؛ ليدرك الدارسون والباحثون إلى أى حد كان النضج البلاغى على يد الجاحظ ، ويقفوا على الآراء والمقاييس التى كانت واضحة فى عقله ، وتبعثرت فى كتابه ، ومدى انتفاع البلاغيين بعد بهذه المقاييس ، ونستطيع – من خلال ذلك – أن نضعه فى مكانه اللائق به من التاريخ البلاغى وضعاً مدعماً بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

ومما لاشك فيه أن كثيراً من الكاتبين تناولوا الجاحظ بالدراسة والبحث من

---

(١) الصناعتين ص١١ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص٤٦ .
(٣) المرجع السابق ص٥٨ .

جوانب شتى ، كل حسب قدراته وثقافته ، ومنهم من تعرض إلى جهده البلاغى فى كلمات خاطفة وأحكام سريعة تتصف بالعموم والإجمال ، وقد اطلعت على كل ماوقع تحت يدى من تلك البحوث والدراسات ، غير أنى لم أعثر - فيما وصل إليه علمى - على بحث تتبع آراء الجاحظ فى محاولة لجمعها ودراستها .

وأنا - إذ أقرر هذا - لاأدعى أننى فارس الحلبة فى هذا المضمار ، ولكن - فقط - لألتمس لنفسى بعض العذر إن بدا شئ من القصور أو الهفوات فى هذا الكتاب . وقد يكون فيما كتبه الكاتبون عن صعوبة هذا المركب ، ووعورة هذا الطريق ، وأن الأمر فيه ليس سهلاً ميسوراً مايشفع لى إن بدا شئ من ذلك ، فالكمال لله وحده ، وهو من وراء القصد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

المؤلف

دكتور/ فوزى السيّد عبدربه

الباب الأول

أبوعثمان الجاحظ

الباب الأول

أبو عثمان الجاحظ

إن شهرة الجاحظ الواسعة التى تمتع بها فى عصره وبعد عصره ، إلى يومنا هذا تجعلنا فى غنى عن الترجمة له ، أو التعريف به ، فقد خصصت للترجمة له كثير من المصنفات ، وأفردت بالتعريف به كثير من الكتب .

لكنّا – ونحن بصدد الوقوف على كتابه «البيان والتبيين» ، وماحواه من حدود ومقاييس بلاغية ، كان لها أثرها فى ميدان البحث البلاغى – رأيت أنه من متممات هذا البحث ، ومايقتضيه موضوع هذا الكتاب أن أقدم له بتعريف موجز ، كمقدمة أو تصدير بين يدى هذا الكتاب .

غير أنه عنّ لى – أيضاً – أن أجعل هذا التعريف – على الرغم من إيجازه وقصره – باباً مستقلاً أتعرض فيه لعصره ، وأهم ملامح هذا العصر ، ثم أتعرض لحياته فى لمحة سريعة ، وأخيراً أقف – فى إيجاز – مع مؤلفاته وآثاره ، التى كان أهمها كتابه «البيان والتبيين» ، وذلك حتى تستكمل صورة هذا الكتاب ويبدو فى شكل مترابط واضح . ومن ثم فقد جعلت هذا الباب فى فصلين .

* * *



الفصل الأول
عصر الجاحظ وحياته

المبحث الأول
عصره

عاش الجاحظ حياته فى العصر العباسى الأول وشطراً من العصر العباسى الثانى ، فقد عاصر من خلفاء بنى العباس : الرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق والمتوكل .

وقد كان هذا العصر هو عصر الإسلام الذهبى ؛ حيث ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، وأصبح لها شأن عظيم وسلطان مهيب ، وسياسة واضحة ، يغلب عليها طابع النظام والتدبير فى كل الأمور .

ولم يكدر صفو هذا العصر بعض الفتن التى كانت تطل برأسها بين الحين والآخر ، كالفتنة التى نشبت بين الأمين وأخيه المأمون على ولاية العهد ، والتى انتهت باستقلال المأمون بالخلافة واستقرار الأمور . غير أن الفتن التى ظهرت فى أواخر هذه الحقبة من تدخل العناصر غير العربية فى السياسة والحكم ؛ وبخاصة الأتراك لم تظهر آثارها إلا بعد عهد الجاحظ حى أصبح الخلفاء ألعوبة فى أيدى هؤلاء، يولون من شاؤوا ، ويخلعون من يعارضهم ، فاختل نظام الدولة بعد عهد الواثق بالله .

وعلى الجانب الآخر كانت تقوم دولة الأمويين بالأندلس ، وأخذت تنحو نحو الحضارة والتقدم ، فقويت شوكتها وثبتت أركانها ، ولما علم الرشيد أنه لاحيلة له فى التغلب على هذه الدولة اكتفى باتقاء شرها وحاذر تقدمها نحو بلاده .

وانفتحت الدولة العباسية – فى هذه الحقبة على الدول الأخرى غير الإسلامية، وكان بينها علائق ووثائق ، كما كان بين العباسيين وبين ملوك غربى أوروبا ، فقد كانت بينهما علاقات على غاية من الوفاق والوئام .

وفى هذا العصر كانت هناك طبقات اجتماعية مختلفة ، وكانت الفروق بينها

شاسعة من حيث الثراء وطرق المعيشة . وقد غرقت طبقة الخلفاء وأتباعهم وأهل الثراء فى الترف والنعيم ، فعقدوا مجالس للهو والسمر ، واحتفلوا بأعياد النصارى ، وكانت هذه الأعياد كثيرة ، كعيد الميلاد، وعيد الفصح، وعيد الشعانين وغيرها .

وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذى شاع فى هذه الطبقة إلى انتشار الغزل المكشوف ، الذى لاتصان فيه كرامة الرجل والمرأة جميعاً ، كما شاع إدمان الخمر وغيرهما من الآثام والمفاسد ، متحررين من كل قانون للخلق أو العرف أو الدين .

وليس معنى هذا أن المجتمع فى هذا العصر كان مجتمعاً متحللاً ، أسلم نفسه للشهوات والملذات ، فهذا الانحلال كان منحصراً فى طبقة محدودة من الناس ، كان جلها من الفرس أو الأتراك يتابعهم الخلفاء أحياناً . فالواقع – الذى لامراء فيه – أن المجتمع – فى هذه الحقبة – كان يرتبط بالإسلام وتعاليمه ارتباطاً وثيقاً ، وكان الخلفاء يحرصون على هذا الارتباط أشد الحرص ، على الرغم من هفواتهم وانزلاقهم فى هذه الملذات أحياناً .

فعامة المجتمع الإسلامى فى هذا العصر كانوا غيورين على الإسلام ، منفذين لتعاليمه عن حب واقتناع ، وكثر العباد والنسّاك وأهل التقوى والصلاح من القصاص والوعاظ، يذكرون بالله واليوم الآخر، ويبينون للناس طريق الإسلام وتعاليمه السمحة، وفى البيان والتبيين، وعيون الأخبار، والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم.

وقد أصبحت الدولة الإسلامية فى هذا العصر تضم إلى جانب الجنس العربى أجناساً كثيرة من الفرس والترك والهند وغيرها ، ومزج الإسلام مزجاً روحياً بين هذه العناصر عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام ، ولم يفرق فيه بين عربى وغير عربى ، فالناس كلهم سواء . لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فسارع من أسلم من الشعوب المفتوحة إلى تعلم لغة القرآن الكريم ، بل إن كثيراً منهم هجروا لغاتهم ، وملكت اللغة العربية ألسنتهم وقلوبهم فنقلوا إليها حضاراتهم ومعارفهم، وأقبل الفرس – بخاصة – على التعريب بشكل منقطع النظير ، وأصبحت الفصحى هى المثل الأعلى للناس فى هذا العصر ؛ وبخاصة الطبقة المثقفة .

ومن ثم فقد قامت حضارة إسلامية ذات طابع خاص ، هى مزيج من حضارات هذه الأمم ، تحملها لغة القرآن ، ودونت الكتب والمصنفات بهذه اللغة ، ولانبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافة العامة التى كانت مبثوثة فى البلدان المفتوحة بين أواسط آسيا إلى مشارق البرانس تحولت إلى العربية ، دون حاجة إلى ترجمة منظمة ،

لسبب طبيعى جداً ، وهو أن شعوب هذه البلاد تحولوا عرباً .

وقد كان من أهم ملامح هذا العصر نهضة التعليم ، والاهتمام الشديد بالعلوم والفنون والآداب ، فقد أصبح العقل العربى عقلاً ناضجاً ، وجد سبيله إلى البحث والتعمق والانطلاق، فقد أيقن ذوو البصائر أن: كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول[١] .

وقد أذكى الإسلام جذوة المعرفة والعلم فى نفوس المسلمين جميعاً ، عرباً وغير عرب ، فدفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم، وكان إذا تفرس رب البيت فى ولده الذكاء جاءه بالمؤدبين يلقنونه ماتشتهى نفسه من العلم والأدب . وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعليم فى الكتاتيب ، حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، وبعض سور القرآن الكريم وبعض الأشعار والأمثال، وكان بعض المعلمين يهتمون بتعليم الناشئة إلى جانب ذلك السنن والفرائض والنحو والعروض [٢] .

وكانت المساجد فى هذا العصر ساحة كبرى للعلم والعلماء ، فلم تكن قاصرة على العبادة فحسب ؛ بل كانت معاهد لتعليم الشباب الناشئين ، حيث يجلس الأستاذ يتحلقه الطلاب ، ثم يأخذ فى إلقاء محاضراته أو إملائها وكان لكل فرع من فروع المعرفة حلقة أو حلقات خاصة ، فحلقة للمفسر ، وأخرى للمحدث ، وثالثة للفقيه ورابعة للنحوى ، وخامسة للغوى ، وسادسة للمتكلم وهكذا ، كما كان للشعراء حلقات ينشدون فيها أشعارهم [٣] .

وكانت تدور فى هذه الحلقات مناظرات بين الأساتذة ، يستفيد منها الطلاب ، ويسجلونها ، على نحو مايروى عن الأخفش أنه تعرض للكسائى فى حلقة ، وسأله عن مائة مسألة ، محاوراً له ومناقشاً إياه مناقشات مستفيضة [٤] .

ولم تكن هناك قيود أو شروط لحضور تلك الحلقات إلا الرغبة فى العلم والاستماع إلى العلماء ، فكانت مباحة لكل قاصد يأخذ من زاد المعرفة ، ويتغذى بغذاء العلم .

وقد هيأت المساجد – بهذا الانطلاق – إلى وجود العلماء الذين نوعوا ثقافاتهم ومعارفهم تنوعاً واسعاً ، فأخذوا من كل فن بطرف ، ونهلوا من العلوم والمعارف التى

---

(١) أمراء البيان ٣١٣/١ .
(٢) البيان والتبيين ١٨٠/٢ ، ٢١٩ .
(٣) الموشح ص : ٢٨٩ .
(٤) معجم الأدباء ٢٢٨/١١ .

كانت تطرح فى كل الحلقات ، وهؤلاء أطلق عليهم اسم «المسجديين» ، وكانت لهم حلقات خاصة ، وكان بينهم محاورات ومناظرات ، روى الجاحظ طرفاً منها فى كتابه البخلاء [٥] ، وبجانب هذه الطبقة كانت هناك طائفة المتخصصين الذين تخصصوا فى كل علم وفن ، فكان هناك المحدث ، أو الفقيه ، أو النحوى ، أو اللغوى ، أو المتكلم ممن زخر بهم هذا العصر .

وقد كثرت فى هذا العصر المصنفات والمؤلفات فى كل العلوم والفنون والآداب، واهتم كثير من الأفراد على اختلاف طبقاتهم باقتناء المكتبات والاعتناء بنسخ الكتب ، فكانوا يوظفون بعض الوراّقين لنسخها ، وقد أعانهم على هذا استخدام الورق فى هذا العصر؛ حيث أنشأ الفضل البرمكى مصنعاً للورق ببغداد فى عهد الرشيد. ففشت الكتابة ، واتسعت صنعة الوراقة ، وأصبحت تشبه الطباعة فى عصرنا الحديث .

وقد كان تشجيع الخلفاء والوزراء ومن سلك سبيلهم للعلم والعلماء خير عون على ازدهار العلم وتشجيع العلماء فى هذا العصر ، فكان الخلفاء يغدقون العطاء على من يشتهر من العلماء أو يجيد فى علم من العلوم أو فن من الفنون ، بل كانوا يفرضون لهم الرواتب الشهرية ، ويستدعونهم إلى دار الخلافة ، ويقربونهم من مجالسهم ، ويتخذون منهم مؤدبين لأبنائهم ، وبخاصة «المسجديين» الذين كان لهم حظوة خاصة لدى الخلفاء والوزراء .

وأكثر من هذا فلم يكتف الخلفاء والوزراء والأمراء بالمساجد كساحات للعلم ؛ بل عقدوا المجالس العلمية التى يؤمها العلماء فى كل العلوم والفنون ، ويستمع الخلفاء إلى مايدار فيها من محاورات ومناظرات ، بل إن هذه المجالس تحولت إلى ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو مايروى من مناظرة الكسائى وسيبويه بين يدى الرشيد أو بين يدى يحيى بن خالد البرمكى [٦] ، وأطلق البرامكة العنان للمتكلمين فكانوا يعقدون لهم المجالس التى تضم أرباب الملل وزعماء النحل ، فيعرض كل منهم ماعنده من مسائل .

وقد اشتهر المأمون بعنايته الفائقة بالعلم والعلماء ، فقد كان مثقفاً واسع المعرفة والثقافة فى كل العلوم والفنون ، وكان اهتمامه بعقد مجالس العلم والاستماع إلى العلماء يفوق كل وصف ، حتى تحولت مجالسه إلى ندوات علمية تناولت كل فروع العلم والثقافة ، فأثرت هذه المجالس الحركة العلمية ثراءً عظيماً عاد عليها بالنفع

(٥) البخلاء ص : ٤٧ ومابعدها .
(٦) أنباه الرواة ٢/ ٢٧١ .

العميم ، وخلفت كثيراً من الآثار فى شتى الميادين . يصور ذلك المسعودى فى قوله : «قرب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظارين ، كأبى الهذيل العلاف وأبى إسحاق النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما ، وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء ، وأقدمهم من الأمصار ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس فى صنعة النظر ، وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله [٧] .

ومن ألمع مظاهر النهضة العلمية فى ذلك العصر حركة الترجمة والنقل من كتب الأمم الأخرى وعلومهم إلى اللغة العربية ، فإذا كان لخلفاء بنى العباس فى بداية عصرهم عناية بهذه الحركة فإن خلفاء هذه الحقبة التى عاشها الجاحظ ووزراءهم كانوا أشد عناية وأكثر اهتماماً بهذا النقل وتلك الترجمة المنتظمة ، وعنوا بها عناية شديدة ، فلم يكتفوا بهذا النقل غير المنظم عن طريق امتزاج العرب بغيرهم . ونشطت هذه الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه من البرامكة نشاطاً ملحوظاً ، فأنشأوا دار الحكمة ، وخصصوا لها طائفة من الموظفين ، وجلبوا لهم الكتب والمصنفات من بلاد الروم، واليونان، والفرس، والهند ، وشجعوهم على نقل هذه الذخائر إلى العربية . وبلغت هذه الحركة مداها فى عهد المأمون ، فقد ألحق بدار الحكمة مرصداً كبيراً خصصه لهذا الغرض ، وجد فى الترجمة والنقل ، حتى روى عنه ابن النديم أنه «لما استظهر على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهما ، فأخذ هؤلاء مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل» [٨] ، وبلغت عنايته بالترجمة أنه كان يعطى لكل من ترجم كتاباً وزنه ذهباً .

وكان من أبرز المترجمين فى هذا العصر : الحجاج بن مطر وابن البطريق وسهل بن هارون وحنين بن اسحاق وغيرهم ، وقد اهتم هؤلاء بنقل علوم الأمم فى شتى فروع العلم ؛ وبخاصة علوم الهند وطبها وحكمتها ، والفرس وصناعتها ، واليونان وفلسفتها ومنطقها ، ومايتصل بهذه الأمم من تصورهم للأدب وصناعته ، فنقلوا صحفاً كثيرة عن الهند تتصل بالبلاغة والبيان ، ونقلوا عن أرسطو وأفلاطون مصنفات مختلفة يتصل بعضها بالأدب والبيان .

---

(٧) مروج الذهب ٢٤٥/٤ .

(٨) الفهرست ص : ٣٣٩ .

ومن يتتبع حركة الترجمة ورجالها والتراث الضخم الذى نقل إلى العربية فى هذا العصر يظن أنه لم يبق شئ من هذا التراث إلا وقد نقل إلى العربية سواء فى العلوم أو الآداب .

من كل ماسبق ندرك أن أبواب الثقافة والمعرفة أصبحت مفتوحة فى كل مكان، وأصبحت ملكاً للجميع ، وأصبح العقل العربى عقلاً متفلسفاً ، استطاع أن يضيف إلى ما اطلع عليه من فكر الأوائل وعلومهم إضافات جديدة ، جعلت له صبغة خاصة ومذهباً فريداً .

وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية شاركتهما بغداد فى هذا الشرف ، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار ، فما هى إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد مدينة علم بما نقل إليها من صنوف العلم وطوائف العلماء إلى الخلفاء وأتباعهم [٩] .

وأصبحت هذه المدن الثلاث معاهد للعلوم والآداب والفنون ، وتبعها فى ذلك غيرها من المدن والأمصار المنتشرة فى أرجاء العالم الإسلامى الكبير .

وفى هذا العصر الذى نعم فيه المجتمع الإسلامى بالهدوء والاستقرار والثراء ، وبلغت فيه الحركة العلمية ذروتها ، وترجمت فيه كتب الأوائل وعلومهم عاش الجاحظ حياته ، ونشأ نشأته العلمية الخصبة .

* * *

(٩) أمراء البيان ١/٣١٢ ، ٣١٣ .

المبحث الثانى
حياته

أولاً : اسمه ونسبه (١) :

هو : عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى ، من بنى كنانة من خزيمة ، والد النضر أبى قريش . وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم : كنانة طلحة ، والليثى نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، وإلى هذه القبيلة ينتسب الجاحظ (٢) . وقيل إنه مولى أبى القلمسى عمرو بن قلع الكنانى ، ثم الفقيمى ، فهو كنانى صليبة خالص النسب . وكان جده فزارة أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وقد فطن ياقوت إلى ذلك (٣) ، بينما زعم السمعانى أن هاتين الصفتين كانتا لجده المباشر «محبوب» (٤) .

وهاتان الصفتان اللتان ذكرهما المؤرخون لجده – سواء فزارة أو محبوب – جعلتا بعض الشك يحوم حول عربية الجاحظ ، فتوهم بعضهم أنه عربى بالولاء ، لا بالنسب . وقد نسب هذا القول إلى يموت بن المزرع ، ابن بنت أخته ، فقد أسند إليه الخبر بأنه من موالى عمرو بن قلع الكنانى (٥) . بينما روى ياقوت عن القاسم البلخى أنه كنانى من أهل البصرة (٦) .

ومما نطمئن إليه أن الجاحظ من أصل عربى عريق ، ويبعث على هذا الاطمئنان أن كتب التراجم – التى ترجمت له – لم تذكر أن أحداً من أجداده وقع عليه الرق ، وأيضاً فإن أعداءه وشانئيه كانوا كثيرين ، فلو كان عربياً بالولاء ، لا بالنسب لما أغفل أعداؤه ذلك ولعيروه به ، هذا فضلاً عن موقفه من العرب ودفاعه

---

(١) انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١٤٠/٣ ، لسان الميزان ٣٥٥/٤ ، معجم الأدباء ٧٤/١٦ ، تاريخ بغداد ٢١٢/٣ ، الأعلام ٣١٤/٥ ، بغية الوعاة ٢٢٨/٢ ، الملل والنحل ص٧٥ ، أمراء البيان ٣١٥/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٥/٦ .

(٢) أمراء البيان ٣١٥/١ .

(٣) معجم الأدباء ٧٤/١٦ .

(٤) الأنساب : ١١٨ ب .

(٥) معجم الأدباء ٧٤/١٦ .

(٦) المرجع السابق – الموضع السابق .

عنهم فى كتبه ؛ وبخاصة البيان والتبيين ، فقد دافع عنهم ، وعن بيانهم وفصاحتهم ، ومامنحهم الله به من كريم الخصال دفاعاً يبدو فيه التعصب الشديد لهم . فلو كان انتسابه إليهم بالولاء لانضم إلى الشعوبيين الذى وقفوا فى وجه العرب يسلبونهم كل فضيلة ، ويثبتون لهم كل نقيصة ، أو على الأقل لم نجد هذه الاستماتة فى الدفاع عنهم . وسوف نرى هذا واضحاً إن شاء الله فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

أما سواد اللون فلايمكن أن يكون دليلاً على الرق ؛ لأن كثيراً من العرب الخلص كانوا سوداً وهم من أصل عربى عريق ، وأما قيام جده «فزارة» أو «محبوب» على إبل عمرو بن قلع فلايقوى دليلاً على رقه .

ثانياً : كنيته ولقبه :

أما كنيته فأبو عثمان . وكثيراً ماكان ينسى هذه الكنية ، فقد رُوى عنه قوله : «نسيتُ كنيتى ثلاثة أيام ، حتى أتيت أهلى فقلت لهم بم أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان[٧] .

أما لقبه الذى اشتهر به فهو «الجاحظ» ، وقد لقب به لنتوء عينيه وجحوظهما – أى بروزهما – وليس فى هذا مايعيب أمير البيان العربى ، أو ينقص من قدره ، فكثير من العظماء لم يكن لهم من جمال الخلقة نصيب ، فقد كان سقراط – شيخ الفلاسفة – أيضاً جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، مشوهاً .

وقد كان الجاحظ على جلالة قدره وسعة عقله يضيق بهذا اللقب ، ويغضب ممن يناديه به ، ويطلب ممن حوله أن يدعوه باسمه أو بكنيته ، وكان يطلق على اسمه «عمرو» الاسم المظلوم . ويبدو أن سبب ضيقه وتبرمه بهذا اللقب هو أن من أطلقه عليه هم أعداؤه ومناهضوه ، وأنهم كانوا يتعمدون ذلك ؛ تذكيراً بتشويه خلقه ورغبة فى مضايقته . وكما لقب بالجاحظ لقب – أيضاً بالحدقى للسبب نفسه [٨] ، إلا أن لقب «الجاحظ» غلب عليه واشتهر به .

ثالثاً – مولده :

ليس هناك خلاف بين المؤرخين على أن أبا عثمان ولد فى البصرة، وإنما الخلاف فى زمن ولادته ، وتحديد هذا الزمن ، فمن قائل إنه ولد عام ١٥٩هـ ، ومن قائل غير ذلك [٩] . ولكن الصحيح ماأقر هو به ورواه ياقوت فى معجمه ، فقد روى

(٧) المرجع السابق ٧٤/١٦ ، وتاريخ بغداد ٢١٤/١٢ .
(٨) وفيات الأعيان ١٤٠/٣ .
(٩) أدب الجاحظ ١٩/١ ومابعدها .

عنه قوله : «أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت أول سنة خمسين ومائة وولد فى آخرها» (١٠) .

ولعل الذى أوقع المؤرخين فى هذا الخلاف هو أنه ولد فى بيئة مغمورة فلاعجب أن تذهب سنة مولده فى تلك الغمرات التى كانت تحيط بها .

رابعاً - نشأته :

ولد الجاحظ فى البصرة لأسرة فقيرة معدمة ، تعيش فى ضنك من العيش ، وتكد وتجتهد فى سبيل الحصول على لقمة العيش ، وتوفى والده وهو طفل صغير ، فكفلته أمه التى لاتملك شيئاً ، فلم يجد الطفل بداً من تحمل أعباء الحياة منذ نعومة أظفاره ، فأخذ يعمل ويكد فى سبيل الحصول على مايسد الرمق ، ولم يجد أمامه عملاً إلا أن يبيع الخبز والسمك فى إحدى جهات البصرة ، كما يروى ذلك ياقوت (١١) .

وكان الصبى الفقير يعيش فى بيئة تفيض بالثراء ، والناس من حوله يعيشون فى ترف ونعيم ، ووجد الصبى نفسه فى هذه البيئة فقيراً مشوه الخلقة ، خامل الذكر ، تقتحمه أعين الناس لقبحه ودمامته وفقره ، وأحس كل هذا إحساساً قوياً . وهذا الإحساس كان كافياً فى إرهاف حسه ، وشحذ مشاعره ، وتنبه مداركه ، فأخذ يبحث عن وسيلة تعوضه هذا النقص ، وتضعه فى مراتب الكمال ، فلم يجد سبيلاً إلا التعليم يعوض به هذا النقص .

ولم يكن فقره حائلاً عن تحقيق هذه الرغبة ، فالعلم والتعليم - فى هذا العصر - ملك للجميع ، ودور العلم والكتاتيب منتشرة فى كل مكان - كما سبق أن أشرنا - فمضى إلى الكتاب مع لداته وأقرانه من الصبيان ، فتعلم فيه الخط والقراءة ، وشيئاً من الفقه والحساب ، وحفظ بعضاً من القرآن الكريم والأشعار .

وأدرك الصبى فى نفسه حماساً وطموحاً فى سبيل العلم ، فقد كان شديد الذكاء، مفتوح المشاعر ، وقد أتيح له - وهو فى الكتاب - شيخان من الفضلاء ألهبا فيه هذا الحماس والإقبال على العلم ، هما : الشيخ أبو الوزير ، وأبوعدنان ، وقد أشار إليهما الجاحظ فى كتابه «الحيوان» فى قوله: «وماكان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ، ولاأحسن بياناً من أبى الوزير وأبى عدنان من المعلمين وحالهما من أول ماأذكر من أيام الصبا» (١٢) .

---

(١٠) معجم الأدباء ٧٤/١٦ .
(١١) المرجع السابق - الموضع السابق .
(١٢) الحيوان ١٧٠/١ .

وقد كان الجو العلمى الذى شهدته البصرة فى هذه الفترة يغرى على سلوك طريق العلم ، وفضلاً عن هذا فقد كان العلم والأدب والنبوغ فى هذا السبيل شيئاً يرفع صاحبه ، ويضعه فى المرتبة العالية . فوزع الفتى جهده بين طلب العيش وطلب العلم .

مضى الفتى إلى مساجد البصرة يتردد عليها ، ويستمع إلى حلقات العلماء التى تنوعت فى كل علم وكل فن ، وكان أبرزها حلقات المتكلمين التى ازدادت واتسعت وكثر نشاطها ، فكانت تعرض المسائل ، وتبحثها بحثاً متشعباً معقداً ، وقد استفاد الفتى من كل هذه الحلقات وما أدير فيها من مباحثات ومناقشات ومناظرات ، ووعيها وعياً كاملاً ؛ وبخاصة مايتصل بمسائل الكلام والعقيدة ، واتصل – عن طريق هذه الحلقات – بعظماء فى الدين والعلم والآداب من أجلاء الأساتذة فى ذلك العصر ، وتأثر فى دراسته الأدبية برجال العلم والأدب الذين عرفوا «بالمسجديين» (١٣) .

وقد صور الجاحظ حلقة من هذه الحلقات فى حديثه عن موسى الأسوارى ، فيقول عنه : «كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية» (١٤) .

وقد أخذ الفتى – منذ كان يافعاً – يتلقى الفصاحة شفاهاً بالمربد (١٥) . وكان المربد أشهر أسواق البصرة وبه كانت فى الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، على مثال سوق عكاظ فى الجاهلية .

وكان الفتى – وهو فى طور التحصيل والدرس ، شديد الفهم ، تقوده نفس تواقة إلى التزود بكل ضروب المعرفة ، فلم يكتف بالمساجد وحلقاتها ، أو المربد والتردد عليه ؛ ولكنه عكف على كل ماوقع فى يده من كتب ، يعب منه بنهم ، ويستوفيه قراءة ، دون تفريق بين علم وآخر ، بل إنه كان يستأجر دكاكين الوراقين يبيت فيها ، ويقرأ من الكتب بماشاء . فأتقن معظم علوم عصره ، حتى قال عنه أبو العيناء حين سئل : أى شئ كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : «ليت شعرى ، أى شئ كان الجاحظ لايحسن» (١٦) .

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٣٥ .
(١٤) البيان والتبيين ١/١٩٦ .
(١٥) معجم الأدباء ١٦/٧٥ .
(١٦) مقدمة الحيوان ١/٢٠ .

ولما جاوز الخمسين من عمره رأى أن يترك البصرة ويرحل إلى بغداد – حاضرة الدولة العباسية فى ذلك العصر . فدخلها واتخذها مقاماً له ، وكان ذلك فى عام ٢٠٤ هـ فى عهد الخليفة المأمون ، وما أن استقر بها حتى تصدر للتعليم والمناظرة ، فقصده العلماء والأدباء ، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب وحدب .

وبدأ نجمه فى الصعود منذ اتصل بابن الزيات – وزير المعتصم والواثق – فى عام ٢٢٠هـ ، ونبه صيته ، وطبق الآفاق ، فرعاه الوزير ، وأضحى من أكبر رجال العلم ، وكفاه الوزير مؤونة كل شئ ، وطلب الوزراء صداقته ، وخطب وده الكبراء ، ونالت كتبه من الحظوة لدى الخلفاء والأمراء مالم تحظ به كتب عالم آخر .

واعترف له الخليفة المأمون بالفضل ، فأسند إليه رياسة «ديوان الرسائل» ، لكن أبا عثمان لم تعجبه قيود الوظيفة ، فاستعفى الخليفة فأعفاه ، فقال سهل بن هارون : «لو ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب» .

وهكذا وبعد هذا الكفاح المستميت فى طلب العلم وتحصيله استطاع الجاحظ أن يحقق لنفسه ما أراد ، وأن يصل إلى الهدف الذى طمحت إليه نفسه ، فأقبلت عليه الدنيا ، وتهافت عليه العظماء والكبراء ، وأضحى اسمه لامعاً فى كل مكان .

خامساً – شيوخه :

تتلمذ الجاحظ على جلة من أساتذة هذا العصر ، تعددت ثقافاتهم ، وتنوعت مشاربهم ، وكان لهم الأثر الذى لايجحد على ثقافته وتكوينه العلمى ، من أمثال أبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى زيد الذين أخذ عنهم اللغة وسمع منهم مناحى العرب وأساليبهم فى القول ، وأبى الحسن الأخفش الذى أخذ عنه النحو ، والنظام الذى أخذ عنه علم الكلام . كما حدث عن ثمامة بن أشرس النميرى المتكلم ، ويزيد بن هارون، والسرى ابن عبد ربه والقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمه .

ويكفى أن نقف – وقفة قصيرة – مع أساتذته الذين تأثر بهم فى اللغة والأدب والبيان والكلام نعرف بهؤلاء الأساتذة وأشهر مؤلفاتهم .

(١) معمر بن المثنى (١٧) :

هو : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، اللغوى ، البصرى ، فارسى الأصل . كان

---

(١٧) انظر فى ترجمته : تاريخ بغداد ٢٥٢/١٣ ، ووفيات الأعيان ١٣٨/٢ ، وبغية الوعاة ص٣٩٥ ، ونزهة الألباء ص١٣٧ ، ومعجم الأدباء ١٥٤/١٩ وأخبار النحويين البصريين ص٦٧ .

أجمع الناس للعلم وأكثرهم رواية وأعلمهم بأيام العرب وأخبارها ، وهو أول من صنف في غـريب الحـديث . أخـذ عن يونس وأبي عـمـرو بن العـلاء ، وأخـذ عنه المازني وغيره، قيل : كان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام ، وكان أبو نواس يتعلم منه ويذم الأصمعي . وقد أثبتت كتب التراجم تلمذة الجاحظ عليه وسماعه منه ، واستفادته من علمه [١٨] ، وقـال عنه الجـاحظ : «لم يكن في الأرض خـارجي ولاجماعي أبصر بجميع العلوم منه» .

وله تصانيف كثيرة تقارب المائتين ، منها : النقائض بين جرير والفرزدق ، وأيام العرب ، وغريب الحديث ومجاز القرآن الذي يعد أشهر مؤلفاته . توفي عام ٢١٠هـ على أرجح الأقوال .

(٢) الأصمعي [١٩] :

هو : أبوسعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، البصري ، أحد أئمة اللغة والنحو والغريب والملح ، والنوادر ، نشأ بالبصرة وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها ، وروى عن أبي عمرو بن العلاء ، وكان يتمتع بحافظة جيدة ، روى أنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة غير دواوين العرب ، وأكثر من الخروج إلى البادية فشافه الأعراب وساكنهم ، ونقل عن الفصحاء والأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة ، وكان جيد الإلقاء حتى قال عنه أبونواس : «إنه بلبل يطرب الناس بنغماته» ، وكان صدوقاً في روايته ، ولايفتي إلا بما أجمع عليه العلماء ، فقدم بغداد في أيام الرشيد ، واتصل به وبالبرامكة . وكان شيخاً للجاحظ وصديقاً له أفاده كثيراً من علمه ، ولقنه كثيراً من أسرار الفصحى ، ومناحي أساليب العرب الخلص [٢٠] .

وله مصنفات كثيرة تربو على أربعين مؤلفاً ، أكثرها في اللغة والأدب ، منها : خلق الإنسان ، والنوادر ، ومعاني الشعر ، والقلب والإبدال ، وغريب القرآن . ومن أشهر كتبه في الأدب : فحولة الشعراء والأصمعيات . توفي عام ٢١٥هـ .

---

(١٨) معجم الأدباء ٧٤/١٦ .

(١٩) انظر في ترجمته : طبقات القراء ٤٧٠/١ ، وتاريخ بغداد ٤١٠/١٠ ، وأخبار النحويين البصريين ص٥٨ ، أنباه الرواه ١٩٧/٢ .

(٢٠) انظر معجم الأدباء ٧٥/١٦ .

(٣) الأخفش الأوسط (٢١) :

هو : أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، المعروف بالأخفش البصرى ، أحد أئمة النحاة البصريين ، صحب الخليل ولم يأخذ منه ، وأخذ النحو عن سيبويه ، وإن كان أكبر منه ، وكان يقول : كنت أسأل سيبويه عما أشكل علىّ منه ، فإن تعصب الشىء منه قرأته عليه ، وقد جلس بعده للطلاب ، يمليه ويشرحه ويبينه ، وعنه أخذ تلاميذه البصريون مثل: الجرمى والمازنى . وأخذ عنه علماء الكوفة ، وعلى رأسهم الكسائى ، وكان ثعلب يقول عنه : «هو أوسع الناس علماً» وقال المبرد : «هو أحفظ من أخذ عن سيبويه» وكان معتزلياً ، وكان يعنى بشرح الأشعار ، ويقال إنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحت يده ، وقد أخذ عنه الجاحظ واستفاد بعلمه ، وتتلمذ عليه (٢٢)، وقال عنه : «كان ينشر فى مصنفاته ضرباً من الغموض والعسر ، حتى يلتمس منه الناس تفسيرها ؛ رغبة فى التكسب بها» (٢٣) .

وصنف كتباً كثيرة ، منها : المقاييس فى النحو ، والاشتقاق ، والمسائل الكبير ، والمسائل الصغير ، وله كتاب فى العروض نوّه به القدماء . توفى عام ٢١٥هـ على أصح الآراء .

(٤) أبوزيد الأنصارى (٢٤) :

هو : أبوزيد سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد بن قيس الأنصارى ، الخزرجى ، البصرى ، النحوى ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، فانفرد بذلك ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ عنه أبوعبيد القاسم ابن سلام ، وعمرو بن عبيد ، وأبو العيناء، وأبوحاتم السجستانى، ورؤبة ابن العجاج وغيرهم . كان ثقة ثبتا ، وكان يرمى بالقدر، ولكن دفع ذلك عنه أبوحاتم ، وقال : «هو صدوق» ، وكان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة يريد به أبازيد، وقال المبرد: «كان أبوزيد عالماً بالنحو ولم يكن مثل الخليل وسيبويه» ، وكان أعلم بالنحو من الأصمعى وأبى عبيدة . قال المازنى : «رأيت الأصمعى وقد جاء إلى حلقة أبى زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه» . وقد تتلمذ الجاحظ على أبى زيد واستفاد من علمه وأدبه (٢٥) .

---

(٢١) انظر فى ترجمته : نزهة الألباء ص : ١٢٣ ، ومعجم الأدباء ٢٢٤/١١ ، وشذرات الذهب ٣٦/٢، وأنباه الرواة ٣٦/٢ ومابه من مراجع .

(٢٢) معجم الأدباء ٧٥/١٦ .

(٢٣) الحيوان ٩١/١ .

(٢٤) انظر فى ترجمته : ميزان الاعتدال ٢٧٥ ، ووفيات الأعيان ٣٦/٢ ، وأنباء الرواة ٣٠/٢ والأعلام ١٤٤/٣ . ومعجم الأدباء ٢١٢/١١ ، وأخبار النحويين البصريين ص٥٢ .

(٢٥) معجم الأدباء ٧٥/١٦ .

وله من التصانيف : النوادر ، وبيوتات العرب ، والهمزة ، والجمع والتثنية ، وغريب الأسماء ، وفعلت وأفعلت ، وغيرها . توفى بالبصرة سنة ٢١٥هـ فى خلافة المأمون ، وقد جاوز التسعين .

(٥) النظـــام [٢٦] :

هو : إبراهيم بن سيار بن هانىء ، ولد ونشأ بالبصرة ، ولقب بالنظام؛ لأنه كان يحترف نظم الخرز فى سوق البصرة فى أول حياته ، تتلمذ على الخليل بن أحمد ، وهو ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد أبى عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ماجعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته . ويبدو أن خاله عنى به وبتثقيفه عناية كبيرة ، وهى عناية صادفت عقلاً خصباً ، فمضى يستوعب كل مايمكن من كتب الاعتزال والفلسفة ، والتفسير، والحديث، والفقه، والكيمياء، والفلك ، وعلم اللغة وكتب الشعر والأدب ، وكتب الملل والنحل ، وكان بارعاً فى المناظرة وقطع الخصوم بالحجج القاطعة ، وطارت شهرته وذاع صيته فى هذا الباب . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠هـ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالى الذى نسب إليه وعرف باسم «النظامية» .

وقد تتلمذ عليه الجاحظ وتأثر به تأثراً شديداً [٢٧] ، واعتنق فكره الاعتزالى ، وقال عنه : «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم النظام لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه أنهج لهم سبيلا ، وفتق لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتم بها النعمة» [٢٨].

وآراؤه فى الاعتزال فى الملل والنحل ، والمواقف ، والفرق بين الفرق . توفى عام ٢٢١هـ وقيل عام ٢٣١هـ .

هؤلاء هم شيوخ الجاحظ الذين تلقى عنهم أصول اللغة وصناعة الأدب وعلم الكلام ، وتربى على موائدهم التى تزاحمت عليها صنوف العلم وفنونه ، وتنوعت تنوعاً نلمس آثاره فى نبوغه وسعة علمه وأدبه .

---

(٢٦) انظر فى ترجمته : تاريخ بغداد ٩٦/٦ ، ولسان الميزان ٦٧/١ ، والمواقف ص٦٢١ ، والفرق بين الفرق ص١١٣ ومروج الذهب ٢٨٧/٣ ، وضحى الإسلام ١٠٦/٣ .

(٢٧) انظر وفيات الأعيان ١٤٠/٣ ، وتاريخ بغداد ٢١٣/١٢ .

(٢٨) الحيوان ٢٠٦/٤ .

سادساً – علمه وأدبه وفضله :

إن هذه العجالة – التى هى سبيلنا فى هذا الباب – لايمكن أن تصف للقارئ ما لنابغة العرب وفولتير الشرق من الأثر الضخم ، والعلم الفياض الذى حمله هذا العقل الكبير ، سواء فى ميدان اللغة والأدب ، أو غيرهما من سائر العلوم والفنون ، فالجاحظ يمثل دائرة معارف واسعة ، تنوعت معارفها وغزرت مادتها ، وأضحت وكأنها فيض غزير يرتوى منه كل طالب فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون .

ويعد الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، فقد كان الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة فى عصره وقبل عصره ، سواء من حيث وضوح المنطق ، أو من حيث قوة الاستدلال ، أو من حيث القدرة على توليد المعانى ، أو من حيث الإمساك بزمام اللغة فى مادتها وأساليبها وطرائق التعبير بها ، فكان كأنه يستمد من مخازن عقلية لاتنفد . يقول عنه ياقوت: «كان أبوعثمان ، واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وهو عظيم القدر فى المعتزلة ، وفى غير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ، ويميزون الأمور» (٢٩) .

وكان العلماء يحرصون على لقاء أبى عثمان والحديث معه ، ويعدون هذا شرفاً عظيماً ، بل إن الخلفاء والملوك كانوا يقدرون من يأخذ عن أبى عثمان أو يلتقى به ، فقد روى عن أبى خلف سلام بن يزيد الأندلسى أنه سئل عن سبب اجتماعه مع أبى عثمان ولم يقع أبوعثمان إلى الأندلس فقال : «كان طالب بالعلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان» (٣٠) .

والجاحظ يطالعك من بارع أدبه بكل مبدع ، ويعلمك فى سهولة ويسر ، لايشق عليك ، ويستهويك وأنت لاتدرى ، وتعجب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق ، أو تحقيق وإحاطة ، فلم يكن يجيد شيئاً دون شئ ، بل كانت علومه ومعارفه كلها على حد سواء فى الإجادة والإتقان .

روى عن ثابت بن قرة – وهو من الصابئين الذين لايرون للإسلام حرمة ، ولا للمسلمين فضلاً أو حقاً – أنه قال : «ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس ، فإنه :

---

(٢٩) معجم الأدباء ٧٥/١٦ ، ٧٦ .

(٣٠) المرجع السابق ١٠٤/١٦ .

عقم النساء فَلا يلدن شبيهه   إن النســـاء بمثـله عـــقم

فـقيل له : احصِ لنا هؤلاء الثلاثة ، قال : أولهم عمر بن الخطاب ، ووصفه فأفاض فى وصفه ، والثانى الحسن البصرى ووصفه - أيضاً - فى كلام طويل ، ثم قال : «والثالث : أبوعثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدرة المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدال ، وإن جد خرج فى مسك عامر بن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد حبيب القلوب ، ومزاج الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، مانازعه منازع إلارشاه آنفاً ، ولاتعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، طال عمره ، ومشت حكمته، وظهرت خلته ، ووطئ الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب» (٣١) .

وهذه الشهادة كافية لندرك ماتمتع به الجاحظ ، وفاض به عقله من ثقافة وعلم وأدب فى شتى الميادين التى شهدتها البصرة فى أزهى عصورها .

وإلى جانب ذلك كان الجاحظ فى أسلوبه صاحب نكتة ونادرة ، يطالع قارئه بالنوادر المضحكة ، حتى قال عنه المسعودى : «كتب الجاحظ ، مع انحرافه المشهور- يريد خصومته للشيعة ، فالمسعودى كان متشيعاً - تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأن نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ ، وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة» (٣٢) .

وفى نص المسعودى مايوضح السبب الذى جعل الجاحظ يضمن كتاباته بين الحين والآخر بعض النوادر والطرائف ، فالجاحظ كثير الاستطراد فى كتبه ، يسوق الكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأشعار العرب وأقوالهم ، فأراد - بعرض هذه النوادر بين الحين والآخر - أن لايمل قارئه ، وأن يتابع النفع بما أراد أن يقدمه له من مسائل وموضوعات ، ذات نفع عميم وأثر جليل .

---

(٣١) معجم الأدباء ١٦/٩٥-٩٨ .

(٣٢) مروج الذهب ٨/٣٥ .

سابعاً – صفاته وأخلاقه :

كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف . فمما يدل على ذكائه وسرعة بديهته أنه كان ملازماً لمحمد ابن عبدالملك الزيات ، خاصاً به ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبى داؤود للعداوة بين ابن الزيات وابن أبى داؤود ، فلما قبض على الزيات هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور . يريد ماصنع بالزيات ، وإدخاله فى تنور من حديد فيه مسامير ، كان هو صنعه ليعذب الناس به ، فعذب هو فيه حتى مات [٣٣] .

وكان ذا ثقة بنفسه ، لايضيع أوقاته إلا بما يفيد ، يحب النظام ، وكان يقول : إذا سمعت الرجل يقول : ماترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه مايريد أن يفلح [٣٤] .

وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، لابعين المغيظ المحنق ، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب ، وتغمره الغبطة ، وتعتاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جبلة ، يتنادر إلى الطبقات المختلفة ، ويولع بذاك ، لاتفزعه المظاهر ، ولايتوقف فى إيراد النكتة .

وقد فطر على الوفاء لأصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، وكان فى سبيل ذلك لايدخر المال إلى أيام العسرة ، وإذا أتاه مال ينفقه ، ولايحسب للغد حساباً كبيراً ، فلم يكن ضنيناً على إخوانه ، وود لو أخذ من الأغنياء فأعطى الفقراء . وإذا كان قد نشأ فى بيت وضيع إلا أنه كان على جانب عظيم من عزة النفس .

وكان لايشفع بمن يعرف ومن لايعرف ؛ لاعتقاده أن الشفاعة شهادة زور ، وصعب عليه أن يشهد الزور ، ومن طرائفه من ذلك أن جاءه صديق له ذات يوم يطلب منه كتاباً إلى عامل ؛ ليكون وسيلة منه إليه وشفاعة لديه ، فكتب إليه الكتاب وأعطاه إياه إلى ذلك العامل ، وقبل أن يسلم حامل الكتاب كتابه إلى العامل نصحه بعض إخوانه ، وقال له : «إن أبا عثمان بعيد الغور ، فينبغى أن تفض الكتاب وتنظر مافيه» ، ففعل فإذا فى الكتاب : « هذا الكتاب مع من لاأعرفه ، وقد كلمنى فيه من لاأوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذممك» ، فلما قرأ الرجل الكتاب رجع إلى الجاحظ من فوره ، وعاتبه فى ذلك ، فقال له الجاحظ –

---

(٣٣) معجم الأدباء ٧٦/١٦ .
(٣٤) معجم الأدباء ٧٨/١٦ .

بروح الدعابة التى اشتهر بها - : «هذه علامة بينى وبين الرجل فيمن أعتنى به» [٣٥] .

ولم يكن الجاحظ بالمتزمت ، ولا بالمتنسك . وعلى الرغم من قيامه بما فرضه عليه الإسلام من الواجبات والفرائض إلا أنه لم يكن يتمسك بهذا كل التمسك ، فقد حكى عنه الخطيب أنه كان لايصلى [٣٦] .

ويروى البغدادى أنه حضر وليمة ، وحضرت صلاة الظهر فصلى الحاضرون وماصلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلى الحاضرون وماصلى الجاحظ ، فقال الجاحظ لصاحب البيت : إنى ماصليت لمذهب أخبرك به فيما بعد . فقال له صاحب البيت : ما أظن أن لك مذهباً فى الصلاة إلاتركها [٣٧] .

وعلى الرغم من هذا فقد صرف الجاحظ أيام عمره فيما يرفع شأن الإسلام والمسلمين ، وكان يدعو إلى الحياة الفاضلة ، وحب الدين والدنيا ؛ ليستقيم المسلمون أمة عزيزة فى أخلاقها وسلوكها .

ثامناً - مذهبه الاعتقادى :

كان الجاحظ - منذ بداية عهده فى الدرس والتحصيل - يطالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وكان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين ، فكان يروج لهم ، ويخلط عباراته بعباراتهم .

وقد شغف بالاعتزال ، ومضى يلازم أساتذته ، ويستوعب كل ماعندهم ، وصلة المعتزلة بالفلسفة معروفة ومقررة ، فكان كلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أشهرهم النظام ، الذى دفع الجاحظ دفعاً للتزود من مذهبه الاعتزالى المعروف بـ«النظامية» ، فاعتنق مذهب أستاذه ، وكان يديم النظر فيه ، وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من أساتذة الاعتزال إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء ، وأن يضيف إلى طريقة أستاذه النظام ، بحيث أصبح له مذهباً مستقلاً وطريقة خاصة فى الاعتزال ، عرفت بـ«الجاحظية» ؛ وكان لها أتباعها وأشياعها .

أما باقى قواعد الاعتزال وأصوله فلم يخالف فى شئ منها ، وبهذا كان الجاحظ إماماً من أئمة المعتزلة ، وصاحب طريقة فيهم [٣٨] .

---

(٣٥) المرجع السابق ٨٣/١٦ ، ٨٤ .

(٣٦) لسان الميزان ٣٥٥/٤ ، ٣٥٦ .

(٣٧) تاريخ بغداد ٢١٧/١٢ .

(٣٨) انظر آراء الجاحظ الاعتزالية بتفصيل فى الملل والنحل ص٧٥ ، ٧٦ ومقالات الإسلاميين ٣١٦/١ .

تاسعاً - تلاميذه :

أشرنا من قبل إلى أن الجاحظ رحل إلى بغداد بعد أن جاوز الخمسين من عمره، واتخذها مقاماً له : وأنه تصدر للتعليم والمناظرة ، فقصده طلاب العلم والعلماء من كل صوب وحدب .

وعلى الرغم من هذا فإن كتب التراجم - التى تُرجمت له - لم تشر إلى تلاميذه ، أو من أخذ منه ، إلا ما أشار إليه صاحب «أمراء البيان» ممن روى الحديث عن الجاحظ ، كأبى بكر عبدالله بن أبى داوود السجستانى ، ومحمد بن عبدالله بن أبى الدلهاب ، ودعامة بن الجهم ، وأبى سعيد الحسن بن على العدوى ، وأبى العباس المبرد ، ويموت بن المزرع ، وأبى العيناء محمد بن القاسم [٣٩] .

أما تلاميذه فى اللغة والأدب والبيان ، فلم تشر كتب التراجم إلى واحد منهم ، اللهم إلا أبى خلف سلام بن يزيد الأندلسى ، الذى ذكر ياقوت أنه جاء من الأندلس إلى المشرق للاستفادة من علم الجاحظ وأدبه [٤٠] .

ويمكن أن نعد المبرد (ت ٢٨٥هـ) واحداً منهم ، فليس من المعقول أن يأخذ عنه الحديث - كما روى ذلك صاحب أمراء البيان - ولايأخذ عنه اللغة وصناعة الأدب اللذين وجدنا تأثر المبرد بأستاذه فيهما فى كتابه «الكامل» كما سنرى ذلك فى الباب الرابع إن شاء الله .

ولعل عدم كثرة هؤلاء التلاميذ أو اهتمام كتب التراجم بهم راجع إلى فلسفة الجاحظ العلمية ؛ حيث كان يرى فى نفسه معلماً ، لايميل أن يجلس تلميذه بين يديه ، ولكن يقدم إليه علمه عن طريق كتبه ، فيؤلف الكتاب جامعاً ، ثم يدعه يفيد مما يقرأ .

ونلمس هذه الفلسفة فيما ذكره عن الكتاب ، وأنه خير معلم ، فيقول : «لاأعلم جاراً أبر ، ولاخليطاً أنصف ، ولارفيقاً أطوع ، ولامعلماً أخضع ، ولاصاحباً أظهر كفاية ، ولاأقل جناية ، ولاأقل إملالاً وإبراماً ، ولاأحفل أخلاقاً ، ولاأقل خلافاً وإجراماً، ولاأقل غيبة ، ولا أبعد من أفك ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقل تصلفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مراء ، ولا أترك لشغب ، ولاأزهد فى جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب . ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر معونة ، ولا أخف مئونة ، ولاشجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد فى كل إبان من كتاب . ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم

---

(٣٩) أمراء البيان ٣١٧/١ .

(٤٠) معجم الأدباء ١٠٥/١٦ .

الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة مايجمع لك الكتاب» (٤١) .

عاشراً – وفاته :

ظل الجاحظ مكبّاً على العلم والتأليف ، يتنقل فى سبيل ذلك بين بغداد والبصرة وسر من رأى إلى أن أدركته الشيخوخة ، وأصيب بالفالج (٤٢) . ولما اشتدت علته استقر بالبصرة – مسقط رأسه – فأقام بها البقية الباقية من عمره ، إلا أنه لم يعف نفسه من الكتابة والتأليف ، فأخذ ينتج ويبدع ، ثم زادت عليه العلة ، فأصيب بالنقرس أيضاً (٤٣) . وقد صوّر المبرد هذه الحالة التى وصل إليها الجاحظ فى قوله : «دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه وهو عليل ، فقلت له : كيف حالك ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو نشر بالمناشير ماحس به ، ونصفه الآخر منقرس لوطار الذباب بقربه لآلمه ، والآفة فى جميع هذا إنى قد جزت التسعين ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب (٤٤)

وقد أتى رسول المتوكل إليه ، وهو فى هذه الحالة يطلبه ، فقال له : ومايصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ماتقولون فى رجل له شقان : أحدهما لو غرس بالمسال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث (٤٥) .

وكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته (٤٦) . وظل على هذا الحال من المرض والألم حتى وقعت عليه مجلدات الكتب التى اعتاد أن يضعها حوله قائمة كالحائط ، فمات فى المحراب الذى أحبه ، وبحر فيه طول حياته (٤٧) .

وكانت وفاته فى شهر المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة بالبصرة ، وقد نيف على تسعين سنة (٤٨) . عليه سحائب الرحمة والرضوان .

* * *

(٤١) الحيوان ٤١/١ ، ٤٢ .
(٤٢) الفالج : داء يحدث فى أحد شقى البدن طولا ، فيبطل إحساسه وحركته .
(٤٣) النقرس : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، وفى إبهامهما أكثر .
(٤٤) تاريخ بغداد ٢١٩/١٢ .
(٤٥) يغوث : أى يقول : واغوثاه ، وانظر معجم الأدباء ١٠٤/١٦ .
(٤٦) مروج الذهب ٣٥/٨ ، ٣٦ .
(٤٧) انظر أمراء البيان ٣٢٥/١ .
(٤٨) وفيات الأعيان ١٤٤/٣ .

الفصل الثانى
مؤلفـــات الجاحـــظ

مَنَحَ الله الجاحظ قدرة نادرة وصبراً عجيباً على الإبداع والابتكار والتأليف فى شتى العلوم والفنون التى عرفت فى عصره وقبل عصره ، فخلف ثروة ضخمة من الكتب والرسائل ازدانت بها المكتبة العربية ، وأضحت غذاءً رويّاً للعقل والفكر والوجدان .

فالجاحظ بعد أن نضج عقله واستوى فكره أقبل على التأليف والتصنيف بشكل عجيب ، ولعل هذا راجع – كما أشرنا من قبل – إلى رأيه فى الكتاب وأنه خير معلم ، فالكتاب – كما يقول – قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه ، فهو يقرأ فى كل مكان ، ويظهر مافيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت مابين الأعصار ، وتباعد مابين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل فى واضع الكتاب (١) .

وقد كان يحس المتعة واللذة وهو يعكف على تأليف كتاب أو إخراج مصنف ، حتى ترى هذه المتعة وتلك اللذة تنسيانه مايكابده فى سبيل ذلك ، أو مايعانيه من العلل والأمراض التى لازمته دهراً طويلاً من حياته . فيقول فى كتابه «الحيوان» : «وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه . أول ذلك : العلة الشديدة ، والثانية : قلة الأعوان : والثالثة : طول الكتاب ، والرابعة : أنى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر ، والصفرة والتوليد ، والمداخلة والغرائز لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً ؛ لأنى كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال ، واستخراج الآية من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب (٢) .

وشغفه بالتأليف وعكوفه عليه جعله يخبر هذه الصناعة خبرة عميقة أصبح فيها أستاذاً ومعلماً ، فقد وجه المؤلفين والمصنفين فى كل العلوم والميادين بتوجيهات سديدة ؛ لتخرج كتبهم على الصورة التى يرضى عنها القارئ ، ويستمتع بما فيها من

---

(١) الحيوان ١/٨٥ .
(٢) المرجع السابق ٤/٦٩ ، ٧٠ .

علم وأدب ، فيقول : «ينبغى لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ثم لايرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ، ولايرضى بالرأى الفطير ، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه فى السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، وليعلم أن صاحب القلم يعتريه مايعترى المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ؛ لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطبع ، فأراه السكون أن الصواب فى الإقلال ، فلمّا ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد فى غضبه ، فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار ، وكذلك صاحب القلم» (٣) .

وبهذه الدقة ، والفهم العميق ، والوعى الكامل لصناعة التأليف أخرج الجاحظ كتبه ، التى تشعبت موادها وتنوعت موضوعاتها ومسائلها ، بحيث يجد القارئ نفسه ينتقل من فن إلى فن ومن واد إلى واد ، فنراه ينقل عن أرقى الطبقات وأدناها . وبينما يروى كلام العقلاء ومذاهب الحكماء يروى من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المرة من الموسوسين ، ومن كلام أهل الغفلة من النوكى ، وأصحاب التكلف من الحمقى ، ويجعل بعضها فى باب الهزل والفكاهة (٤) .

والجاحظ فيما كتب وألف لم يكتب إلا عن رغبة واقتناع ، وكثيراً ماكان يذكر الباعث الذى حمله على تأليف كتبه ، فنراه فى مقدمة «البخلاء» يذكر الدافع إلى تأليفه فيقول : «ذكرت – حفظك الله – إنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سرّاق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى ألا يبلغه كيد ، لايحوزه فكر ، وذلك أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب ، وقلت اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء ، ومايجوز من ذلك فى باب الهزل ومايجوز فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً ، والراحة جماماً ، فإن للجد كداً يمنع من معاودته ، ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته» (٥) .

كما كتب أبوعثمان كثيراً من كتبه استجابة لرغبة أصدقائه وأساتذته كما نرى

(٣) المرجع السابق ١/٨٨ ، ٨٩ .
(٤) انظر البيان والتبيين ٢/٢٢٥ ، ٣٤٤ .
(٥) البخلاء ص١١ .

ذلك فى كتابه «القحطانية والعدنانية»، الذى كتبه لأبى معن ثمامة بن أشرس - أستاذه فى الحديث - فقد قال فيه : «وقد كتبت - مد الله فى عمرك - كتباً فى مفاخرة قحطان ، وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى إلى مكانهم فى الفضل والنقص ، وإلى قدر ماجعل الله لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة عليهم ولهم ، وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول إليك ، ثم رأيت ألايكون إلا بعد استئذانك واستئمارك ، والانتهاء فى ذلك إلى رغبتك ، فرأيك فيه موفق إن شاء الله - عز وجل - وبه الثقة» (٦) .

وبهذا الصبر العجيب ، وتلك الروح الوثابة ، وذلك الوعى الكامل لصناعة التأليف أخرج الجاحظ زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً فى شتى ألوان المعرفة (٧) . وهذا كم هائل يشهد ببراعته وعبقريته ، حتى قال عنه المسعودى. «لايعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه» (٨) .

وهذا العدد ليس موقع اتفاق بين المؤرخين الذين اهتموا بكتبه وإحصائها ، غير أن هذا أقصى تقدير وصلت إليه كتب الجاحظ ، على أن أقل ماوصلت إليه فى نظر بعض المؤلفين مائة ونيف وسبعون» (٩) .

وقد رأى سبط ابن الجوزى (ت٦٥٤هـ) معظم هذه المؤلفات فى مشهد الإمام أبى حنيفة النعمان ببغداد (١٠) .

وقد ضاع معظم هذه النفائس ضمن ماضاع من تراثنا العلمى الأدبى ، ولم يبق من هذه الكتب إلا القليل ، وهذا القليل الذى لم تمتد إليه يد الزمان العابثة كاف فى إبراز عقلية الجاحظ وطول باعه فى التأليف ، ومنهجه فى كتبه الأخرى .

ويبدو أن الجاحظ كان يقدر هذا ، ويدرك ماتفعله الأيام وأيدى العابثين بمؤلفات المؤلفين ونفائسهم ، فأثبت فى صدر كتابه «الحيوان» أسماء كتبه ليكون كالفهرست (١١) . ولكن يبدو أن هذا الفهرست الذى وضعه لم يكن على سبيل الإحصاء الدقيق لهذه الكتب ، وإنما كان على سبيل التذكير بأهمها وأشهرها ، فقد

---

(٦) رسائل الجاحظ ص٣٠٠ .
(٧) مرآة الزمان - المجلد الثالث ، ج١٠ الورقة ٥٨ .
(٨) مروج الذهب ١٣٥/٤ .
(٩) لسان الميزان ٣٥٧/٤ .
(١٠) مرآة الزمان - ج١٠ الورقة ٥٨ .
(١١) انظر الحيوان ٣/١ ومعجم الأدباء ١٠١/١٦ .

ذكرت كتب التراجم كثيراً من الكتب التى لم يرد لها ذكر فى صدر كتابه .

والوقوف على إحصاء دقيق لهذه المؤلفات أمر عسير ، ويكفى – فى هذه العجالة – أن أثبت ماذكره ياقوت الحموى فى معجمه من هذه المؤلفات ، فقد وصل عددها عنده مائة وثمانية وعشرين مصنفاً ، مابين كتاب ورسالة .

يقول ياقوت : «وهذا فهرست كتب الجاحظ : كتاب الحيوان ، وهو سبعة أجزاء، وأضاف إليه كتاباً آخر سماه كتاب النساء وهو الفرق بين الذكر والأنثى ، وكتاباً آخر سماه : كتاب النعل ، وقد أضيف إليه كتاب سموه كتاب الإبل ليس من كلام الجاحظ ولايقاريه ، وكتاب البيان والتبيين ، وكتاب الزرع والنخل ، وكتاب النبى والمتنبىء ، وكتاب المعرفة ، كتاب جوابات كتاب المعرفة ، كتاب مسائل كتاب المعرفة ، كتاب الرد على أصحاب الإلهام ، كتاب نظم القرآن ، كتاب مسائل القرآن ، كتاب فضيلة المعتزلة ، كتاب الرد على المشبهة كتاب الإمامة على مذهب الشيعة ، كتاب حكاية قول أصناف الزيدية ، كتاب العثمانية ، كتاب الأخبار وكيف تصح ، كتاب الرد على النصارى ، كتاب عصام المريد ، كتاب الرد على العثمانية ، كتاب إمامة معاوية ، كتاب إمامة بنى العباس ، كتاب الفتيان ، كتاب القواد ، كتاب اللصوص ، كتاب ذكر مابين الزيدية والرافضة ، كتاب صياغة الكلام ، كتاب المخاطبات فى التوحيد ، كتاب تصويب على فى تحكيم الحكمين ، كتاب وجوب الإمامة ، كتاب الأصنام ، كتاب الوكلاء والموكلين ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب افتخار الشتاء والصيف ، كتاب المعلمين ، كتاب الجوارى ، كتاب نوادر الحسن ، كتاب البخلاء ، وكتاب الفخر مابين عبد شمس ومخزوم ، كتاب العرجان والبرصان ، كتاب فخر القحطانية والعدنانية ، كتاب التربيع والتدوير ، كتاب الطفيليين ، كتاب أخلاق الملوك ، كتاب الفتيا ، كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك ، كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب الرد على اليهود ، كتاب الصرحاء والهجناء ، كتاب السودان والبيضان ، كتاب المعاد والمعاش ، كتاب النساء ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ، كتاب الوعيد ، كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض ، كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال ، كتاب المقينين [١٢] والغناء والصنعة ، كتاب الهدايا ، كتاب الإخوان ، كتاب الرد على من ألحد فى كتاب الله عز وجل ، كتاب آى القرآن ، كتاب الناشى والمتلاشى ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فصل العلم ، كتاب المزاح والجد ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب الصوالجة ، كتاب ذم الزنا ،

(١٢) يريد بالمقينين : مزينى الفتيان .

كتاب التفكر والاعتبار ، كتاب الحجر والنبوة ، كتاب آل إبراهيم بن المدبر ، كتاب إحالة القدرة على الظلم ، كتاب أمهات الأولاد ، كتاب الاعتزال وفضله عن الفضيلة ، كتاب الأخطار والمراتب والصناعات ، كتاب أحدوثة العالم ، كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لايتجزأ ، كتاب أبى النجم وجوابه ، كتاب التفاح ، كتاب الأنس والسلوة ، كتاب الكبر المستحسن والمستقبح ، كتاب نقض الطب ، كتاب الحزم والعزم، كتاب عناصر الآداب ، كتاب تحصين الأموال ، كتاب الأمثال ، كتاب فضل الفرس ، كتاب الهملاج (١٣) ، كتاب الرسالة إلى أبى الفرج بن نجاح فى امتحان عقول الأولياء، كتاب رسالة أبى النجم فى الخراج ، كتاب رسالته فى القلم ، كتاب رسالته فى فضل اتخاذ الكتب ، كتاب رسالته فى كتمان السر ، كتاب رسالته فى مدح النبيذ ، كتاب رسالته فى ذم النبيذ ، كتاب رسالته فى العفو والصفح ، كتاب رسالته فى إثم السكر ، كتاب رسالته فى الأمل والمأمول ، كتاب رسالته فى الحيلة ، كتاب رسالته فى ذم الكتاب ، كتاب رسالته فى مدح الكتاب ، كتاب رسالته فى مدح الوراق ، كتاب رسالته فى ذم الوراق ، كتاب رسالته فى فيمن يسمى من الشعراء عمراً ، كتاب رسالته اليتيمة ، كتاب رسالته فى فرط جهل يعقوب بن اسحاق الكندى ، كتاب رسالته فى الكرم إلى أبى الفرج بن نجاح ، كتاب رسالته فى موت أبى حرب الصفار البصرى ، كتاب رسالته فى الميراث ، كتاب فى الأسد والذئب ، كتاب رسالته فى كتاب الكيمياء ، كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب ، كتاب رسالته فى القضاة والولاة، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ، كتاب رسالته فى الرد على القولية ، كتاب العالم والجاهل ، كتاب النرد والشطرنج ، كتاب غش الصناعات ، كتاب خصومة الحول والعور ، كتاب ذوى العاهات ، كتاب المغنيين ، كتاب أخلاق الشطار(١٤) .

وأظننا بعد سرد هذه المؤلفات – كما رواها ياقوت – ندرك مدى تنوعها واختلاف موضوعاتها من خلال أسمائها ، ولسنا بحاجة للوقوف مع هذه الكتب ، أو التعريف بها ، أو بيان موضوعاتها وهدفه من تأليفها ، فقد أفردت فى ذلك كثير من الكتب والمؤلفات (١٥) .

وهذه الكتب – على كثرتها وتنوعها – كانت موضع اهتمام الخلفاء والوزراء والعلماء وتقديرهم ، سواء فى عصره ، أو بعد عصره ، فقد كانت ذات حظوة كبيرة

(١٣) الهملاج : الذلول المنقاد .

(١٤) معجم الأدباء ١٦/١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

(١٥) انظر أمراء البيان ١/٤١٩-٤٤٣ ، الجاحظ حياته وآثاره من ١٧٦ ومابعدها .

لدى الخليفة المأمون الذى اشتهر بتبحره فى كل العلوم والفنون ، وكان الفضل بن العميد يقول : «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا» [١٦] ، وروى عن أبى بكر ابن الأخشاد أنه قال : «ذكر أبوعثمان فى أول كتابه الحيوان أسماء كتبه ، ومربى فى جملتها الفرق بين النبى والمتنبئ ، وكتاب دلائل النبوة ، فأحببت أن أرى الكتابين ، ولم أقدر إلا على واحد منهما وهو دلائل النبوة ، فهمنى ذلك وساءنى فى سوء ظفرى به ، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة حاجاً أقمت مناديا بعرفات ينادى : «رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبى والمتنبئ لأبى عثمان الجاحظ على أى وجه كان . فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة ، يقول ابن الأخشاد : وإنما أردت بهذا أن أبلغ نفسى عذرها» [١٧] .

وهذه الرواية الأخيرة دليل واضح على مبلغ عناية العلماء وحرصهم على اقتناء كتب الجاحظ ، والحصول عليها حتى ولو كان ذلك بعيد المنال .

وفضلاً عن تنوع هذه الكتب فى موضوعاتها وغزارة مادتها فإن الجاحظ كان حريصاً فى معظم هذه الكتب على إرشاد الناس إلى طريق الدين الصحيح ، وتعليمهم الفضائل ، وتلقينهم كل ماتستنير به عقولهم لاستصلاح جماعتهم ، فيعرفهم بالإسلام من طريقى العقل والنقل ، ويأتيهم بما يقنعهم ويزيد إيمانهم وثوقاً ، ككتبه فى إثبات النبوة ، ونظم القرآن ، وفصل مابين النبى والمتنبئ ، وغيرها من الكتب . قال ابن الراوندى : «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن ، علم أن له فى الإسلام غناءً عظيماً ، لم يكن الله ليضيعه له ، ولايعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ» [١٨] .

فالجاحظ – بكتبه – كان يريد للناس أن تدق ملاحظاتهم ، ويرهف حسهم ، فهو يعلمهم البحث والنظر ، ولسان حاله يقول : إن الدين لايصلح بغير الدنيا ، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى ، فنراه يكتب رسائل مستفيضة فى ذم الزنا وشارب الخمر ، وفى الشرائع وغيرها من المسائل التى تعالج قضايا الدين وتعمل على تنقية العقيدة وإصلاحها .

---

(١٦) وفيات الأعيان ١٤٢/٣ .

(١٧) معجم الأدباء ١٠١/١٦ ، ١٠٢ .

(١٨) الانتصار ص١٥٤ ، ١٥٥ .

البيان والتبيين أشهر مؤلفات الجاحظ :

أشرنا – آنفاً – إلى أن كتب الجاحظ كانت موضع اهتمام العلماء على اختلاف ثقافاتهم . وإذا كانت هذه الكتب من الشهرة وذيوع الصيت بحيث حرص كل مشتغل بالعلم على اقتنائها والإفادة منها ، فإن كتابه «البيان والتبيين» – موضوع هذا الكتاب– كان أشهر هذه الكتب وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً ، وذلك على الرغم من تأليفه فى أخريات حياته بعد كتاب الحيوان ، فقد أشار فى «البيان والتبيين» إلى أسبقية «الحيوان» فى قوله : «كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ، لما ذكرت من عجبك بذلك ، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب فى ذلك أوفر إن شاء الله» [19] .

وقد أهدى هذا الكتاب إلى أحمد بن أبى داؤود فأعطاه خمسة آلاف دينار مكافأة له على هذا الكتاب [20] ، ومن المعروف أن ابن أبى داؤود كان من فصحاء الناس وبلغائهم وشعرائهم ، وكانت له ملكة خاصة فى تذوق الأدب وصناعته ، مما يعطينا دلالة واضحة على قيمة – هذا الكتاب وأهمية موضوعه .

وقد أدرك العلماء – منذ ظهور هذا الكتاب فى حياة الجاحظ – عظيم أثره ، وجلالة قدره ، فحرصوا على التزود منه ، وتناقلوه ، ونسخوا منه عدداً وفيراً من النسخ ، وسارت به الركبان فى مشارق الأرض ومغاربها .

فقد أخبر يحيى بن على قائلاً : حدثنى أبى قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك المسمى كتاب «البيان والتبيين» : إن مما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام ، واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء يعنى قوله :

وحديث ألذه هو مما	ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا	نا وخير الحديث ما كان لحنا

قال : هو كذلك ، قلت : أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج حين لحنت فى كلامهما فعاب ذلك عليها ، فاحتجت ببيتى أخيها ؟ فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنة ، فهى تلحن بالكلام إلى غير المعنى فى الظاهر لتستر معناه ، وتروى عنه وتفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله تعالى: (ولتعرفنهم

(١٩) البيان والتبيين ٢٢٥/١ .
(٢٠) معجم الأدباء ١٠٦/١٦ .

فى لحن القـول) (٢١) ، ولم يرد الخطأ من الكلام ، والخطأ لايستحسن من أحد ، فوجم الجاحظ ساعة ، ثم قال : لو سقط إلىّ هذا الخبر لما قلت ماتقدم . فقلت له : فأصلحه ، فقال : الآن وقد سار الكتاب فى الآفاق ؟ هذا لايصلح (٢٢) .

فالكتاب لقى شهرة فائقة فى حياة الجاحظ؛ بحيث أصبح متداولاً فى المشرق والمغرب ، فيروى عن سلام بن يزيد الأندلسى أنه وقع على كتاب «البيان والتبيين» ، فلم قرأه عرف فضل الرجل وبلوغه أعلى المراتب ، قال : فخرجت لاأعرج على شئ حتى قصدت بغداد فسألت عن الجاحظ فقيل لى : إنه يسر من رأى ، فما زلت فى طلبه حتى لقيته (٢٣) .

وترجع شهرة هذا الكتاب التى طبقت الآفاق فى عصره إلى موضوع ذلك الكتاب . واهتمامه بالبيان وصناعة الكلام ، وماضمنه الجاحظ من ضوابط ومقاييس بلاغية تقوم عليها صناعة الأدب ، وكان بذلك أول كتاب فى هذا الموضوع .

ولم تقف شهرة هذا الكتاب عند عصر الجاحظ ؛ بل امتدت إلى ما بعد عصره إلى يومنا هذا ، حتى إننا لانجد أديباً أو كاتباً فى العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو يحرص على اقتنائه ، فمادة الكتاب الغزيرة ، ومافيه من علم وأدب جعلته موضع اهتمام المشتغلين بصناعة الكلام ، كما كان مادة فياضة استمد منها كبار الكتاب والمؤلفين ، وأفادوا منه إفادة جليلة .

* * *

---

(٢١) محمد . ى : ٣٠ .
(٢٢) تاريخ بغداد ٢١٤/١٢ ، ٢١٥ .
(٢٣) معجم الأدباء ١٠٤/١٦ ، ١٠٥ .

الباب الثانى

البلاغة العربية قبل الجاحظ



البلاغة العربية قبل الجاحظ

إن العلوم التى نراها بين أيدينا – اليوم – لم تكن وليدة يوم وليلة ، أو مرحلة معينة من الزمان ، فكل علم من هذه العلوم يمر بأطوار ومراحل ، فيها القوة والضعف والنمو والازدهار إلى أن يصل إلى مرحلة تكتمل فيها كل أطرافه ، ويستوى علماً مستقلاً ، له خواصه وموضوعاته التى لايشاركه فيها غيره من العلوم .

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا علم العروض ، فإن الخليل بن أحمد أظهره تاماً ، ولم يعرف أنه سبق بمحاولات فيه .

وعلى أساس من هذه القاعدة فإن البلاغة التى نراها بين أيدينا – الآن – علماً مستقلاً مميزاً عن العلوم الأخرى ، لم توجد هكذا دفعة واحدة ، ولم تكن ثمرة لجهد عالم معين من العلماء ، أو فترة من الزمان ؛ ولكن هذا العلم كان ثمرة لجهود كثير من العلماء على مر العصور ، تعددت مناهجهم ، واختلفت ثقافتهم ، وشاركوا جميعاً فى بناء هذا الصرح البلاغى الكبير .

وإذا كان كثير من الباحثين والكاتبين ينسب هذا العلم – فى قليل أو كثير – إلى الإمام عبدالقاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) فهذا – فى رأيى – تهافت ظاهر ، وطمس للجهود الرائدة التى سبقت الإمام عبدالقاهر ، والحلقات المتعددة التى سبقته .

ولعل الدافع إلى هذا التهافت هو أن النفوس – بطبعها – لاتميل إلى نسبة الشئ إلى مجهول أو مبعثر ، وإنما تتوق إلى نسبته إلى أصل معلوم وجهة محددة .

وليس معنى هذا إننى أقلل من شأن الدور الذى قام به الإمام عبدالقاهر ، بل إننى أسجل أن دوره فى بناء هذا العلم كان دوراً بارزاً ، غير أننى أرى أن جهد الإمام عبدالقاهر ينحصر فى أنه وضع لبنة فوق لبنات سبقته فى هذا البناء البلاغى ، وهذه اللبنة عبارة عن جمعه لما تفرق من مقاييس هذا العلم وتشتت فى بطون الكتب المختلفة ، وصوغها فى أسلوب منظم يتسم بالذوق الرفيع ، الذى هو أهم خصائص البلاغة العربية .

وهذا – فى حد ذاته – دور بارز مهم لايمكن أن نقلل من شأنه ، أو نشكك فى

مدى عظمته ومساهمته الفعالة فى بناء علوم البلاغة .

أما أن ننظر إلى هذا الجهد الذى قام به الإمام عبدالقاهر من جمعه وترتيبه لمسائل هذا العلم ، وتتغافل الأدوار الرائدة والبارزة ، بل الأصول والضوابط التى سبقته، والتى بنى منها كتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة، فهذا ظلم للتاريخ البلاغى ، وطمس لمعالم الحقيقة وسوف نرى ذلك واضحاً من خلال هذا العرض السريع .

وليس من شأنى - فى هذا الباب - إلا أن ألقى الضوء على الجهود البلاغية التى سبقت الجاحظ ، دون الوقوف الطويل عند مراحل وأطوار هذا العلم ، أو التحول فى تفاصيل جزئية فى سرد التاريخ البلاغى ، فلهذا مجال آخر .

وعلى الرغم من هذا فإن المؤرخ لهذا العلم - من قريب أو بعيد - وسواء فى إجمال أو تفصيل ، أو من يقف عند حلقة من حلقاته لايمكن أن يتجاهل تلك الأطوار المهمة التى سبقت مرحلة التأليف البلاغى ، بل إذا أردنا التعبير الدقيق نقول : التدوين البلاغى .

كما أن المؤرخ لهذا العلم ينبغى - كما أشرت فى مقدمة الكتاب - أن يعود به إلى جذوره الأولى منذ العصر الجاهلى ، وسوف يجد فى هذه الفترة أن هناك قواعد وأصولاً لهذا العلم ، يعرفها العرب وتحفظها عقولهم ، ويبنون كلامهم على أساسها ، ويفاضلون بين كلام وكلام يوحى منها . وسيتضح هذا - إن شاء الله - من خلال هذا العرض .

الفصل الأول

البذور البلاغية فى العصر الجاهلى

من الثابت – تاريخياً – أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعيشون فى بيئة فتكت بها الأحقاد والخصومات ، وكانت مسرحاً للصراع والفتن والأهواء ، فحرموا الأمن والاستقرار ، ولم تأنس بهما عقولهم وقلوبهم ، ومن ثم لم يكن عندهم تفرغ للبحث أو العلم ، أو بناء حضارة كتلك التى خلفها قدماء المصريين أو الآشوريون أو البابليون ، وغشيتهم الأمية والجهل ، فلم يؤثر عنهم لون من ألوان التفكير ، أو أثر يدل على نبوغهم فى فن من الفنون أو صناعة من الصناعات ، كما أثر عن اليونان علمها وفلسفتها ، وعن الهند طبها وحكمتها . وهؤلاء كانوا يعاصرون العرب أزمان جاهليتهم.

ولم يؤثر عن العرب إلا صناعة الكلام وفصاحة القول ، واقتدارهم على التفنن فى أضرب البلاغة والبيان ، فقد كثر فيهم – منذ جاهليتهم – الشعراء الفحول ، والخطباء المفلقون وأرباب الحكم والأمثال ، وكان لهم من هؤلاء وأولئك تراث هائل هو علامتهم البارزة ، والسمة التى فضلوا بها على سائر الأمم . كما يقول ابن رشيق[1].

والشعر كان أكثر فنون الكلام عندهم ، حتى عُدَّ ديوان العرب ، يستدل به على تاريخهم وأمجادهم وأيامهم ووقائعهم ، كما يستدل بآثار الأمم من أهل الحضارات القديمة ، فقد روى عن سيدنا عمر – رضى الله عنه – قوله : «خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدى حاجته ، يستميل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم» [2] .

وإذا كان الشعر وفن الكلام هو أهم ما أثر عن العرب ، فمن المعلوم أنهم وصلوا فى هذه الصناعة إلى درجة رفيعة من الفصاحة والبيان ، وقد استقام لهم هذا البيان فصار فيهم سليقة وطبعاً ، فكان الواحد منهم لايكلف نفسه إلا أن يصرف همه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ والعبارات انثيالاً ، وقد امتزجت

---

(١) العمدة ١٠٥/٢ .

(٢) البيان والتبين ١٠١/٢ ، ٣٢٠ .

قلوبهم وعقولهم بألسنتهم من غير تكلف ولاقصد ، ولاتحفظ ولاطلب [٣] .

وعلى قدر حرصهم على مكارمهم المشهورة من الشجاعة وقرى الضيف وغير ذلك ، كانوا يحرصون على أن يوصفوا بالفصاحة فى القول وإصابة المحز وتطبيق المفصل ، وأنهم أهل اللسان والبيان وأمراء الكلام .

يدل على هذا ماوصفهم به القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، مثل قوله تعالى ﴿ إن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [٤] وقوله : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[٥] .

ومن أكبر الدلائل على مابلغوه من فصاحة القول وقوة العارضة أن كانت معجزة النبى - ﷺ - وحجته القاطعة لهم هى القرآن الكريم الذى بهرهم بعجيب نظمه وبلاغته ، ودعاهم فى كثير من آياته إلى معارضته ، وهم فى كل دعوة يحاولون ، وتبوء محاولاتهم بالفشل . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٦] .

وأدب العرب الذى أثر عنهم فى الجاهلية من جيد المنثور والمنظوم يدلنا دلالة قاطعة على مدى حذقهم لفنون القول وخبرتهم بطرق البلاغة والبيان .

وإذا كان العرب لم يؤثر عنهم فى جاهليتهم إلا صناعة الأدب والكلام ، وأنه لابد لكل صناعة من ضوابط وأصول تقوم على أساس منها ، فمن المؤكد أن العرب يقيمون كلامهم وأشعارهم ويحكمون عليها ويفاضلون بينها ليس بالفطرة والسليقة المجردة ، وإنما كانت هناك أسس وضوابط واضحة فى عقولهم ، يعرفها شعراؤهم ، كما يعرفها جمهورهم أيضاً . وكانت هذه الضوابط موضع احترامهم ويخضعون لحكمها .

ولو أردنا أن نتلمس هذه الضوابط البلاغية لوجدناها فى جانبين :

الجانب الأول :

عناية الشاعر بشعره ، تلك العناية الفائقة ، وحرص الشعراء على بلوغ المرتبة الرفيعة فى الفصاحة والبيان ، وعلى بلوغ مايريدون من استمالة القلوب ، وجذب الأسماع .

(٣) المرجع السابق ٢٨/٣ ، ٢٩ .
(٤) المنافقون ، ى٤ .
(٥) الأحزاب ، ى١٩ .
(٦) الأنفال ، ى٧ .

فقد كان الشاعر يقف عند اختيار ألفاظه ومعانيه وصوره ، فمن يتصفح أشعار العرب فى الجاهلية يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان الجناسات والمقابلات ، وكل مايبعث فى الكلام المتعة واللذة والجمال .

فالشعراء والخطباء لم يكن يقبلون كل مايرد على خواطرهم من معان أو ألفاظ، بل كانوا يعيدون النظرة تلو النظرة فى معانيهم وألفاظهم ، ويهذبونها ويبذلون فى ذلك جهداً كبيراً ، حتى يخرج على الناس كلاماً يحمل بياناً ساحراً يقر به جميع سامعيه .

وقد صور الجاحظ فى بيانه هذا الاهتمام وتلك العناية التى جعلتهم يراجعون أنفسهم مراراً فيما صاغوه قبل عرضه على الناس . فيقول : «كانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوه فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقاف وأدخل الكير ، وقام على الخلاص ، أبرزوه محككاً ، ومصفى من الأدناس مهذباً ... وكان بعضهم يستعيذ بالله من الدبرى الذى يكون من غير روية ، وكذلك الجواب الدبرى .. ولذلك كرهوا ركرب الصعب حتى يذل ، والمهر الأرن (٧) إلا بعد رياضة ، ولم يحولوا المعانيق هماليج إلا بعد طول التخليع (٨) ، ولم يحلبوا الزيون إلا بعد الإبساس» (٩) .

فتمييث الرأى فى الصدور فيه معاودة للفكرة ، ومراجعة لما يعبر عن هذه الفكرة من الألفاظ والعبارات ، حتى تخرج الأفكار ناضجة ، وأساليب تأديتها منقحة مهذبة .

ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كاملاً وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات .

---

(٧) الأرن : النشيط .

(٨) المعانيق : جمع معناق ، وهى : الناقة السريعة – الهملاج : الحسن السير فى سرعة وبخترة – التخليع : مشى فيه تكلف .

(٩) الزيون : التى تضرب حالبها وتدفعه – الإبساس : تصويت للراعى تتسكن به الناقة عند الحلب . وانظر البيان والتبيين ١٤/٢ ، ١٥ .

وقد صور كعب بن زهير هذا الجهد الذى يلاقيه الشاعر فى تهذيب شعره فى قوله :

فمن للقوافى شانها من يحوكها	**إذا ماثوى كعب وفوز جرول**
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا	**تنخل منها مثلما نتنخل**
نثقفها حتى تلين متونها	**فيقصر عنها كل مايتمثل (١٠)**

وإذا كان الشاعر لايخرج كلامه على الناس إلا بعد مراجعة وتهذيب وتثقيف ، فمن المؤكد أنه كان يعيد النظر فى معانيه ، فما وجده منها ملائماً للمقام الذى صيغ من أجله هذا الشعر أقره ، وماوجده غير مناسب للمقام غيره وأتى بمعان تتفق وطبيعة هذا المقام ، ومن ناحية أخرى ينظر فى ألفاظه وعباراته ومدى تأديتها لهذه المعانى التى طلبها فى شعره ، فما كان منها مناسباً للمعانى ومؤدياً لها أبقاه ، وماوجده غير مناسب غيره بألفاظ وأساليب أخرى ، بل إذا كان هناك من الألفاظ والعبارات مايؤدى المعنى بصورة أحسن وأفضل غير ألفاظه وعباراته إلى ذلك الأحسن الأفضل .

فهل كان هذا التغيير للمعانى والألفاظ والعبارات يتم بوحى من فطرة الشاعر وسليقته فقط أم أن الشاعر يعلم أن هناك ضوابط فى عقول القوم ، يراجعها الشاعر فى نفسه ، ثم يغير كلامه بوحى منها !؟ .

الواقع أننى أكاد أجزم أن الشاعر لو كان يقيم كلامه على غير ضوابط أو مقاييس إذن لهان الخطب ، وأخرج كلامه على الناس دون تردد أو خوف ؛ لأنه يخرج عليهم ذوقه وفطرته ، وليس لأحد أن يقيس كلامه أو يعترض عليه .

أما خوف الشاعر وتردده ومراجعته لشعره مراراً فلأنه يعلم علم اليقين أن كلامه سيقاس بمقياس دقيق ، هذا المقياس يدعى الشاعر لنفسه – وهو يحوك شعره – أنه أعلم الناس به ، وأولاهم بأن يقيس كلامه به قبل أن يخرجه عليهم ، حتى يبرأ كلامه من الاعتراض ، ويسلم من كل عيب .

فالشاعر الذى ينقح ويهذب ، ويغير ويبدل فى كلامه ، ويرضى عن هذه اللفظة، ولايقبل تلك العبارة لابد وأنه عالم – تمام العلم – بمواقع الكلام ، وموازينه .

فهو يعلم متى يبسط الكلام ويطنب القول ، ومتى يكتفى باللمحة الدالة ،

---

(١٠) الأغانى ٢/١٦٥ .

والكلام الموجز ، ويعلم لماذا يؤكد كلامه ، ولما يختار هذا المؤكد ويطرح غيره ، ويعلم لماذا يقدم ، ولماذا يؤخر ولماذا يحذف ، وما الذى تفيده هذه الكلمة فى مكانها ، إلى غير ذلك من الضوابط التى كان الشاعر على دراية بها ويراجع شعره ويهذبه على أساسها ، والتى عدت - فيما بعد - ضوابط بلاغية ، مع أن الشاعر كان يدرك - أيضاً - أن سير كلامه وفق هذه الضوابط يجعله فى أعلى مراتب البلاغة .

ولاشك أن هذه المراحل التى يقف فيها الشعراء يخلون فيها بأنفسهم يصححون أخطاءهم ، ويثقفون شعرهم ، ويهذبونه باحثين عن درجة الجمال التى يتطلعون إليها يمكن أن نعدها المرحلة الأولى للنقد ؛ حيث يقوم فيها الشاعر بنقد إنتاجه قبل عرضه على الناس ، وتصحيح أخطائه ، وتثقيف شعره بتلافى أسباب النقص والبحث عن أسباب الكمال ، حتى يخرج على الناس فيسلمون لصاحبه بالشاعرية ، ويشهدون له بالجودة والبراعة .

وهذه المرحلة كان لها أكبر الأثر فى هذه الصورة الفنية التى نرى عليها القصيدة الغربية ، كما تعد هذه المرحلة الركيزة الأولى التى قامت عليها الضوابط والمقاييس البلاغية ، إذ أن الشاعر - وهو يغير أو يبدل أو يبقى كلامه دون تغيير أو تبديل - يقوم فى ذهنه ضابط أو مقياس يزن به كلامه ، ويدرك أن هذا الضابط يقر به الجميع ، ولايختلف عليه أصحاب الذوق .

الجانب الثانى :

حين ينضج هذا الشعر ، وتكتمل له صورته الفنية ، ويرضى عنه صاحبه فإنه يخرجه على الناس ، وهم من بنى جلدته ولهم من الأذواق مثل ذوقه .

وطبيعى أن ينظروا فيه تلك النظرة الناقدة التى تفتش عما فيه من عناصر الحسن أو القبح ، فأعلنوا استحسانهم لما استجادوا ، واستهجانهم لما استقبحوا فى عبارات تدل على فهم دقيق لمرامى الكلام ، ومعانيه وألفاظه .

وهذا أمر بديهى ، ففى كل مجتمع يوجد فيه شاعر أو كاتب أو خطيب يوجد ناقد يستحسن مايسمعه أو يعرض عليه من شعر وكتابة وخطابة أو يستقبحه ، فالنقد شئ فى طبيعة الإنسان الذى يتفاعل مع ماحوله من الأشياء .

وقد كان لهذا النقد أثره الذى لاينكر فى تهذيب القصيدة العربية فى الأدوار التى مرت بها حتى وصلت إلى درجة النضج والكمال .

وقد نقل إلينا التاريخ أحكاماً نقدية على الشعر - منذ العصر الجاهلى - ومن

هذه الأحكام ماجاء واضح الهدف ، محدد الفكرة ، نلمس فيه العمق والأصالة ، وأنه لايقوم على مجرد تذوق خاص لما يقال من الشعر ، ولكن يقوم على ضوابط ومقاييس واضحة فى عقولهم ، وتعيها قلوبهم .

وهذه الضوابط تمخض عنها كثير من اللفتات التى اتخذت – فيما بعد – أصولاً للبلاغة العربية ، وقام عليها بناء هذا العلم .

ونسوق هنا بعض النماذج النقدية فى العصر الجاهلى ؛ ليتضح مدى صدق هذه الفكرة ، ولنرى أن الجاهليين لم تكن أحكامهم تصدر عفوياً ، وإنما بعد روية وتدبر وتفكر ، وعرض على مقاييس قائمة فى عقولهم . فمن ذلك :

(١) كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فكان أول من أنشده الأعشى – ميمون بن قيس ، أبوبصير – ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى	وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق	فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما [١١]

فقال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك قللت أمركم ، فأقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك» [١٢] .

ويعلق الصولى على نقد النابغة بقوله : «فانظر إلى هذا النقد الجليل الذى يدل على نقاء كلام النابغة ، وديباجة شعره ، قال له : أقللت أسيافك ؛ لأنه قال : «وأسيافنا» وأسياف جمع سيف لأدنى العدد ، والكثير سيوف ، والجفنات جمع جفنة لأدنى العدد والكثير جفان ، وقال : فخرت بمن ولدت؛ لأنه قال : «ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق» فترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه . قال : وروى أن النابغة قال له : أقللت أسيافك ولمعت جفانك ، يريد قوله : «لنا الجفات الغر» والغرة لمعة بياض فى الجفنة ، فكأن النابغة عاب هذه الجفان ، وذهب إلى أنه لو قال: «لنا الجفنات البيض» فجعلها بيضاً أحسن ، فلعمرى أنه أحسن فى الجفان،

(١١) العنقاء : هو ثعلبة بن عمرو مزيقباء بن عامر بن ماء السماء ، ومحرق هو : الحارث بن عمرو مزيقياء ، وكان أول من عاقب بالنار ، وقوله «فأكرم بنا» هو تعجب ، أى ما أكرمنا وأكرمنا ابنا، ومافى «ابنما» زائدة . لضرورة الشعر .

(١٢) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ص: ٥٤ ، ٥٥ .

إلا أن الغر أجل لفظاً من البيض» [١٣] .

(٢) تنازع امرؤ القيس بن حجر وعلقمة بن عبدة – وهو علقمة الفحل – فى الشعر أيهما أشعر ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بينى وبينك ، فحكماها ، فقالت أم جندب لهما ، قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد ، فقال امرؤ القيس قصيدته :

خليلى مـرا بى عـلى أم جـندب ... نقض لبـانات الفـؤاد المعـذب

وقال علقمة قصيدته :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ... ولم يك حقا طول هذا التجنب

فأنشداها جميعاً القصيدتين ، فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك . قال : كيف ؟ قالت : فرس عبدة أجود من فرسك ؛ لأنك قلت :

فللسـوط ألهـوب وللسـاق درة ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب [١٤]

فجهدت فرسك بسوطك فى زجرك ، ومريته فأتعبته ، وقال علقمة :

فـأدركـن ثانيـا منـع عـنانه ... يمر كمـر الرائـح المتحلب [١٥]

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوطه ولم يتعبه [١٦] .

مدح النابغة الذبيانى النعمان بن المنذر ببيت من الشعر هو :

تراك الأرض أمـامـت خـفـا ... وتحى إن حـيـيت بهـا ثقـيـلا

فقال النعمان : هذا بيت إن أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح ، فأراد ذلك النابغة ، فعسر عليه ، فقال : أجلنى ، قال : قد أجلتك ثلاثا ، فإن أنت أتبعته مايوضح معناه فلك مائة من العصافير نجائب ، وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت ، فأتى النابغة زهير بن أبى سلمى ، فأخبره

---

(١٣) المرجع السابق – الموضع السابق .

(١٤) الزجر : الصياح بالفرس ليجرى ، والدرة : الدفعة ، اللهوب : يقال الهب الفرس : إذا اجتهد فى السير حتى أثار الغبار ، وخرج من حافره الشرر ، الأخرج : ذكر النعام ، والخرج : بياض فى سواد ، وبه سمى ، المهذب : المسرع .

(١٥) الرائح : السحاب – المتحلب : السائل عرقه .

(١٦) الموشح ص : ٢٦ ، ٢٧ .

الخبر ، فقال زهير : اخرج بنا إلى البرية ، فإن الشعر برى ، فخرجا فتتبعهما كعب بن زهير ، فقال ياعم أردفنى ، فصاح به أبوه ، فقال : دع ابن أخى يكون معنا فأردفه ، فتجاولا البيت مليا فلم يأتهما مايريدان ، قال كعب : فما يمنعك أن تقل :

وذاك بأن حللت العــز منهـــا فـتـــمنع جـــانبـــيــهـــا أن تزولا

فقال النابغة : جاء بها ورب الكعبة ، لسنا – والله – فى شئ ، قد جعلت لك يا ابن أخى ماجعل لى ، قال : وماجعل لك ياعم ؟ قال :

مائة من العصافير نجائب ، قال : ماكنت لآخذ على شعرى صفدا . فأتى النابغة النعمان بالبيت ، فأخذ مائة ناقة سوداء الحدقة (١٧) .

وهذه النماذج الثلاثة للنقد الجاهلى – وغيرها كثير – تبين بجلاء أن الفكرة التى كان النقاد يقيمون عليها أحكامهم كانت واضحة .

فإذا كانت أم جندب – فى حكومتها – لم تتناول العمل الأدبى كاملاً لكلا الشاعرين ، ولم تستوعب القصيدتين كاملتين من جهة مافيها من الصور الكثيرة ، والمعانى المتعددة حتى يجئ حكمها مستوعباً شاملاً ، إلا أننا نكتفى بهذا الجانب الذى تناولته ، والضابط الذى أقامت عليه هذه الحكومة .

فمن المؤكد – كما هو واضح من النص النقدى – أن كلا الشاعرين – فى وصفه لفرسه – يحاول أن يجعل فرسه قوياً شجاعاً ، وهذا مقام من المقامات يتطلب معانٍ خاصة ، ويستدعى ألفاظاً تتناسب مع ذلك المقام ، وهذا ما أدركته أم جندب ، وأقامت حكمها على أساسه ، فقد رأت أن ألفاظ امرئ القيس لاتتناسب مع المعنى الذى يقصده ، بينما تتناسب ألفاظ علقمة معها ، فألفاظ علقمة – فى نظرها – جاءت مطابقة لما يقتضيه المقام .

وأعتقد أن هذا المعنى لو لم يكن واضحاً فى ذهن أم جندب لما استطاعت أن تقول ماقالت فى حكمها على الشاعرين ؛ وبالتالى فإن هذا المعنى كان واضحاً فى ذهن كلا الشاعرين .

إذن فإن المطابقة لمقتضى الحال ، أو مطابقة الكلام لمقتضى الحال – ذلك الأصل المهم الذى قام عليه علم البلاغة – كان معنى قائماً فى صدر أم جندب وواضحاً فى عقلها ، وإن لم تعبر عنه كما عبر عنه العلماء فيما بعد .

(١٧) الموشح ص : ٤٢ ، ٤٣ .

فالألفاظ التى استعملها امرؤ القيس تدل على بلادة فرسه وأنه لايسرع إلا بالضرب والزجر ، وهذا مالم يقصده امرؤ القيس ، ولكن جاءت ألفاظه غير مطابقة لقصده ، أما علقمة فألفاظه دلت على مقصوده وجاءت مطابقة له ، ففرسه قوى لايحتاج إلى ضرب وزجر ، فهو يدرك صيده دون كد أو عناء .

وإذا رجعنا إلى نقد النابغة - وهو شيخ النقاد فى ذلك العصر - نجده يدور حول هذا الضابط وهو مطابقة الألفاظ والكلام للمقامات والأحوال والمعانى التى يصاغ لها الكلام .

فحسان يريد أن يفتخر بقومه ، وما له من قوة وبأس ، ونسب عريق ؛ ولكن جاءت ألفاظه تقلل من أمرهم وتصغر من شأنهم ، كما عبر بذلك النابغة ، فالمفتخر - دائماً - يركب متن المبالغة فى كلامه وألفاظه ومعانيه ، فيكثر القليل ويعظم الحقير ، ويكبر من شأن الضئيل ، أما أن يقلل ما هو آلة القوة ، وهى الأسياف والجفنات ، ويسمو بالفرع ويترك الأصل فهذا بعد بالألفاظ عن المقام الذى سيق الكلام من أجله ، وقد أدرك النابغة هذا ، وأقام حكمه عليه .

أما نقد النعمان بن المنذر النابغة فيبدو واضحاً تمام الوضوح أن النعمان أدرك أن البيت يحتمل وجهين متضادين ، يحتمل المدح كما يحتمل الذم ، وهذا الاحتمال وإن كان يحسن الكلام ويزينه ، كما نص على ذلك علماء البلاغة فيما بعد ، وكما فى قول الشاعر :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء (١٨)

- ولم يقل النعمان هذا - إلا أنه أراد أن يدخل كلام النابغة فى باب المدح ، دون احتمال للمعنى الآخر الذى لايليق بمقام الملوك .

ولو لم يكن الضابط - الذى أقام عليه هؤلاء النقاد حكوماتهم - واضحاً فى أذهانهم لما استطاعوا أن يقفوا هذه الوقفات التى تبرز أهم الجوانب التى تقوم عليها الأعمال الأدبية .

فالضوابط البلاغية فى عقول الجاهليين لم تكن خافية ، ولكنهم كانوا يقيمون كلامهم ، وينقدون كلام غيرهم وهم يقيسون هذا الكلام أو ذاك بفهم ووعى كاملين لهذه الضوابط وتلك المقاييس .

---

(١٨) هذا ما سماه البلاغيون «التوجيه» وعدوه من المحسنات البديعية ، انظر الإيضاح ٦٤/٤ .

وما علقت المعلقات فى جوف الكعبة ، وكتبت بماء الذهب إلا بعد أن قيست وضبطت بموازين دقيقة ، خرجت بعدها كأحسن ما أنتجه اللسان العربى فى هذا العصر .

وإذا كان من المعاصرين من يشكك فى نقد النابغة لحسان بأنه «لم يكن يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجموع القلة وجموع الكثرة ، ولم يكن له ذهن علمى يفرق بين هذه الأشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه ؛ ولأن مثل هذا النقل لايصدر إلا من رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ ، وألم بشئ من المنطق» [١٩] ، فإنه بعد القطع بصحة الرواية ، ونقل العديد من المصادر التاريخية لها فإن هذا التشكيك يعد دليلاً آخر على صدق ماذهبنا إليه من أن النقاد الجاهليين كانوا يدركون المقاييس والضوابط ومرامى الألفاظ ووضعها فى مواضعها اللائقة بها إلى الحد الذى لايتصوره هذا الكاتب .

فألفاظ المصطلحات لم تجر على لسان النابغة ، وإن كان قد جرى مايشبه مدلولاتها ، فإن العربى أقدر بلغته ، وأقدر على التصرف فيها من غير حاجة إلى معرفة تلك المصطلحات ، فالعربية لغته امتزجت بروحه ودمه ، من غير أن يعلمه الخليل وسيبويه وأضرابهما ، وإن مثل هذين العالمين وغيرهما إنما أخذوا مايعلمه العربى فيما يتصل بلغته ليعلموا به غير العرب أو ليعلموا العرب الذين نزحوا عن وطنهم الأول وفسدت لغتهم بمخالطة غيرهم [٢٠] .

أقرر هذا وأعتقد أنه فى الوقت الذى كانت فيه قواعد النحو وأصوله وضوابطه ليست فى عقول العرب ، ولم تكن واضحة لهم ، ولم يكن يعرفون لماذا يرفعون هذا الاسم وينصبون الآخر ، أو ما الفرق بين رفعه فى هذا الموضع ورفعه فى موضع آخر، ولم يكن يعرفون الإعراب والبناء وغيرها من القواعد النحوية ، وكل مايعرفونه أنهم يتكلمون بكلام صحيح لا خلل فيه ولا اعوجاج ، أقول إنه فى ذلك الوقت كانت هناك أصول وضوابط بلاغية واضحة فى عقول القوم .

من هنا فإننى لست مع القائلين بأن علم النحو وعلم اللغة سابقان فى الوجود لعلم البلاغة ويعللون ذلك بعلل لا أرى لها موضعاً من القبول ، ولاتقوم على سند من الواقع التاريخى .

ومن هؤلاء الدكتور/بدوى طبانة؛ حيث قال : «كان «علم اللغة» تالياً لعلم

(١٩) انظر تاريخ النقد الأدبى ، د : طه أحمد إبراهيم ، ص١٩ .

(٢٠) دراسات فى نقد الأدب العربى ، د/بدوى طبانه ص : ٦٥.

«النحو» فى النشأة والحياة ، ثم كان «علم البيان» تالياً لعلم العربية وعلم اللغة» [٢١] .

ويعلل ذلك بأن الجانب العقلى يحتل مكاناً بارزاً فى توجيه الدراسات البيانية وتنوع مباحثها ونمو موضوعاتها ، ثم هى فوق ذلك تحتاج إلى جهد ورياضة وألوان من الثقافة تعين على إدراكها وتصورها فوق مايحتاج إليه كل من علم النحو وعلم اللغة ؛ إذ هما فى الأصل علمان تقليديان يقومان على استقراء المأثور من كلام العرب وتتبعه واستخلاص الضوابط منه ، باحتذاء سنن العرب فى ترتيب الكلمات على نظام خاص ، على حسب مايقتضيه المعنى الذى يراد الإفصاح عنه ، ولاشك أن السماع عن العرب أصحاب اللغة هو الأصل فى الاحتذاء ، ثم كان من بعد أساس القياس الذى يحتكم إليه فى التصويب وفى التخطئة ، أما البيان وتذوقه وتفصيل القول فى عناصره، ومحاولة الحكم عليه بالحسن أو بالإصابة فإنه عمل يحتاج إلى مران وثقافة وإدمان نظر ، واستثارة للذوق والمعرفة وكل ذلك لايأتى إلا بعد التجربة والارتقاء الذهنى فى عصور التقدم والحضارة ، والنظر والتفكير [٢٢] .

ولو أن الأستاذ الدكتور يقصد أن علم النحو واللغة سابقان لعلم البلاغة فى ميدان الكتابة والتدوين وفى مجال التأليف لما اختلفنا معه فى ذلك ، فليس هناك شك فى أن علم النحو بدأ استنباط قواعده وتدوينها ، وكذا حصر مفردات اللغة وتدوينها قبل تدوين الملاحظات والضوابط البلاغية .

غير أنه ينبغى أن نفرق - فى هذا الجانب المهم - بين وضوح القاعدة والمقياس البلاغى فى العقلية العربية ، ثم تدوينها بعد ذلك بألفاظ ومصطلحات قد تتفق مع الألفاظ التى عبر بها الجاهليون عن هذه المقاييس أو تختلف ، وبين استنباط قواعد نحوية لم تكن فى عقلية العرب .

فمما لاشك فيه أن القواعد النحوية لم تكن تعرفها العقلية العربية ، بينما تدرك تماماً الكثير من الضوابط والأصول التى قامت عليها البلاغة العربية كما رأينا فى نقدى أم جندب والنابغة .

فالقواعد موجودة فى العقول وقائمة فى الأذهان فى هذه الأحقاب البعيدة ، وماكان جهد العلماء - فيما بعد - إلا أن استفادوا من هذه الضوابط وقيدوها ووضعوها فى إطار علمى منظم .

---

(٢١) البيان العربى ص : ١٥ .

(٢٢) المرجع السابق ص : ١٥ ، ١٦ .

وإذا كنتُ قد أطلتُ الوقوف – إلى حد ما – عند هذه المرحلة الأولى فى تاريخ البلاغة العربية فإننى أردت أن أبرز هذه الحقيقة المهمة التى اعتقدها اعتقاداً لايخالجه شك ، وهو أن الكثير من الضوابط والمقاييس والأصول التى قامت عليها البلاغة العربية نمت ونبتت فى العصر الجاهلى ، وكانت راسخة فى عقول الشعراء والخطباء والنقاد جميعاً .

الفصل الثانى

الجذور البلاغية فى صدر الإسلام

عرفنا – فيما سبق – كيف كان للبلاغة العربية جذورها فى العصر الجاهلى ، وكيف كان العرب – قبل الإسلام – يقيّمون كلامهم – وينقدونه على هدى من هذه الأصول .

وأشرقت شمس الإسلام على العقول ، فبددت جاهليتها ، ونزل القرآن الكريم فخلب أسماع العرب ، وهزّ أفئدتهم ، وفاق بلاغتهم وبيانهم ، وأطلعهم على لون من البيان لم يألفوه ، فغير من نظرتهم لفن القول ، وعمق أذواقهم فى صناعة الكلام . وأصبح لهم ذوق جديد مصطبغ بصبغة الدين والعقيدة الجديدة .

ويعنينا – فى هذا الفصل – أن نفتش فى مطلع هذا العصر عن الضوابط والمقاييس البلاغية التى تقوم عليها صناعة الكلام ، أو ينظر إليه على أساسها .

وأهم مايلقانا – فى مشرق هذا العصر الجديد – أن بيئة الأدب لم تعد البيئة الوحيدة التى نلمس فيها أصول الضوابط والمقاييس البلاغية ؛ بل أضحى أمامنا بيئة أخرى جديدة أكثر ثراءً ونشاطاً ، هى بيئة القرآن الكريم ، بل إن البيئة الأدبية تأثرت تأثراً واضحاً بالدين الجديد وتعاليمه ، وبأسلوب القرآن الكريم ونظمه ، وعاشت الملاحظات البلاغية وترعرعت فى أحضان هاتين البيئتين اللتين تعانقتا على نمو هذه الملاحظات وعمقها .

ومن الخير أن نقف – قليلاً – مع كل بيئة على حدة؛ لنبرز دورها ومساهمتها الفعالة فى وضوح هذه الملاحظات والأصول البيانية .

أولاً – بيئة القرآن الكريم :

عرف العرب فى جاهليتهم من ألوان الكلام : الشعر، والخطابة، والحكم، والأمثال وسجع الكهان ، وكان لكل لون من هذه الألوان مميزاته وسماته الخاصة به التى يعرفونها .

وقد جاءهم رسول من أنفسهم عزيز عليه ماعنتوا حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، أرسله الله إليهم وإلى الناس كافة بلغة العرب ، وأنزل إليه كتاباً عربياً ،

على سنن كلام العرب وطرائقهم فى التعبير ، فألفاظه عربية وأسلوبه عربى ، أنزله ليكون معجزة لنبيه على صدق رسالته ودعوته من ناحية ، وهداية للناس جميعاً من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم جاء بلسان عربى مبين ، إلا أنه بهر العرب وأفقدهم الوعى ، وكان مصدر دهشتهم أنهم رأوا فيه كلاماً وأسلوباً لايتفق مع أى فن من الفنون الأدبية التى عرفوها ، فلاهو بالشعر ولابالخطابة ولا بالحكم أو الأمثال أو السجع ، وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك .

فقد روى أن عتبة بن ربيعة قال حين سمع القرآن : ياقوم ، قد علمتم أنى لم أترك شيئاً إلا وقد قلته وعلمته وقرأته ، والله لقد سمعت قولاً ماسمعت مثله قط ، ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة [١] .

هكذا أدرك العرب – بعد نظر دقيق ومعرفة بصناعة الكلام – أن القرآن الكريم مباين في أسلوبه ونظمه وألفاظه ومعانيه لكل ماعرفوه من فنون الكلام ، وأنه فوق طاقتهم أجمعين ، فلايمكن أن يكون قول بشر ، حتى إن بعض الشعراء بلغ من افتتانهم بالقرآن وأسلوبه أن امتنعوا عن قول الشعر ، كما فعل لبيد بن ربيعة – الشاعر الفحل المشهور وأحد أصحاب المعلقات – فإنه لما قدم على النبى – ﷺ – فى وفد من قومه ، وأسلم وحسن إسلامه ، استغنى بالقرآن وقراءته عن الشعر الذى نبغ فيه ، حتى إنه لم يصح عنه فى أربعين سنة قضاها فى الإسلام إلا بيت واحد ، وهو :

الحمد لله الذى لم يأتنى أجلى ... حتى لبست من الإسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن ، وقال : أبدلنى الله خيراً منه[٢] .

وفرق مابين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه ، فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجز ، والمخمس من الأسجاع ، والمزاوج من المنثور ، والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العارض الذى يجوز ارتفاعه من العجز الذى هو من صفة الذات ، فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام ، ثم لم يكتف بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٣/١ ، ٢٩٤ .
(٢) تاريخ الإسلام . د/حسين إبراهيم ١٩٢/١ .

عن مثله ، وأن حكم البشر حكم واحد فى العجز الطبيعى ، وإن تفاوتوا فى العجز انعارض [٣] .

وإذا كان الدين الجديد ومعجزته الخالدة قد طمأنت من عواطف العرب الثائرة، وأسلست من نفوسهم النافرة ، فارتقت عقولهم؛ لتودع حياة الفوضى التى ألفتها وعاشت فيها أحقاباً طويلة ، فإن نفوساً تبقى حائرة يجتذبها ضلالها حين رأت فى الدين الجديد مايباعد بينها وبين وثنيتها الأولى وضلالها القديم ، وزعامتها القبلية ، فتناصب العداء لهذا الدين ، وتحاول القضاء عليه فى مهده .

وقد كان القرآن الكريم أهم ماوجهوا إليه أسلحتهم يحاولون النيل منه ، إذ هو ركيزة هذا الدين ، وقد وجدوا أن التهوين من شأن القرآن ، وادعاء أنه فى مقدورهم أمضى الأسلحة التى توجه إلى القرآن ، فقالوا – كما حكى القرآن عنهم – ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [٤] ، يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

وقد تحدى القرآن العرب قاطبة أن يعارضوه أو ينسجوا على منواله ، وطاولهم فى المعارضة ، وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٥] إلى التحدى بعشر سور من مثله فى قوله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [٦] إلى التحدى بسورة واحدة فى قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [٧] فكان عجزهم أشنع وأبشع ، فسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا – ولن يفعلوا – ودحضت حجتهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون [٨] .

وقد حدثنا التاريخ أن من العرب من أوهم نفسه بمعارضة القرآن الكريم ، وأن

(٣) العثمانية ص : ١٦ .
(٤) الأنفال . ى : ٣١ .
(٥) الطور : ى : ٣٤ .
(٦) هود : ١٣ .
(٧) البقرة . ى : ٢٣ ، ٢٤ .
(٨) مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/٢٢١ .

فى مقدوره أن يأتى بكلام له فى أسلوبه من السحر والروعة مثلما للقرآن فى سحره وروعته ؛ ولكن التاريخ نفسه أخبرنا بأن هذه المحاولات كانت مضحكة ، أخجلت هؤلاء أمام قومهم ، فباؤوا بغضب من الله وسخط من الناس .

وانصرف الناس عن مثل هذه المحاولات ، وأيقنوا بعجزهم ، فآمنوا بربهم ، والتفوا حول نبيهم وأقبلوا على كتابهم ، موقنين أنه ليس من كلام البشر ، ولكنه كلام خالق القوى والقدر .

لم ينصرف الناس عن معارضة القرآن الكريم ، ولم يسلموا له هذا التسليم المطلق إلا بعد نظر عميق ، وبعد أن قارنوه بكلامهم فى ألفاظه ومعانيه وأسلوبه ونظمه ، وبعد أن عرضوه على ضوابط فى عقولهم وقاسوه بمقاييس يفهمونها وتعيها أفئدتهم ، كما قاسوا المعلقات وعدوها من أروع ما أنتجه لسانهم .

وبعد هذا الانصراف التام عن معارضة القرآن الكريم ، والاطمئنان إلى الدين ومعجزته ، بدأوا ينظرون فيه مستفسرين عن بعض ما استغلق عليهم فهمه من ألفاظ وأساليب ومعان ، فكانوا يسألون رسول الله ﷺ – والعارفين من الصحابة بأسرار القرآن الكريم .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن صحابة الرسول الكريم كانوا يدركون أنه لايفسر كلام الله ، ولايحكم عليه إلا بعد معرفة الملابسات التى تدور حوله ، والمقامات التى تراعى فيه ، والموضع اللغوى لهذا الكلام ، فإن لكل مقام مقالا ولكل حال مقتضاه .

ومن ثم فقد كان لتفسير القرآن – عندهم – أدوات لابد لمن يتعرض للتفسير أن يلم بها ، ومن أهم هذه الأدوات : معرفة أوضاع اللغة ، وعادات العرب ، وأحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن ، وقوة الفهم وسعة الإدراك (٩) .

وقد بين المفسرون من صحابة رسول الله – ﷺ – كثيراً من ألفاظ القرآن الكريم ، وأساليبه وأسراره ، وإن كان تفسيرهم وقف عند الحاجة ، فلم يستغرق آيات القرآن كلها ، بل شمل بعض الآيات ، وتمخض عن تفسيرهم كثير من الملاحظات والأصول البيانية .

ويعنينا أن نتعرض لبعض النماذج من تفسير الصحابة ، ونلتمس مافيها من إشارات بيانية؛ ليتضح إلى أى مدى كان وضوح الفكرة البلاغية فى عقول الصحابة

---

(٩) التفسير والمفسرون ١/٥٨ .

– رضوان الله عليهم – وإلى أى مدى فتق القرآن الكريم وأسلوبه ونظمه العقول العربية وأسلس قيادها .

فمما يروى من ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١٠) فرح الصحابة ؛ لظنهم أنها مجرد أخبار وبشرى بكمال الدين ولكن عمر – رضى الله عنه – بكى ، وقال : مابعد الكمال إلا النقص ذلك لأنه استشعر نعى النبى – ﷺ – ، وقد كان مصيباً فى ذلك ، إذ لم يعش النبى بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً (١١) .

فالصحابة – رضوان الله عليهم – لم يدركوا مايرمى إليه مدلول هذا الكلام ، ولكن عمر – بما يملك من أدوات التفسير وقوة العارضة وسلامة الفطرة – فطن إلى المعنى الذى يكمن وراء الأسلوب ، ولايستفاد من الأسلوب نفسه . وهو معنى التعريض عند البلاغيين (١٢) .

كما نلمس هذه الإشارات واللمحات البلاغية بوضوح عند الصحابى العالم عبدالله بن عباس ، الذى لقب بحبر هذه الأمة وبحرها ؛ لكثرة علمه ومعرفته بمعانى كتاب الله ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى .

فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ (١٣) يقول : «هذا مثل ، أى : مثل المنافقين واليهود مع القرآن كمطر نزل من السماء ليلاً على مفازة (١٤)» .

ويروى الطبرى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سأل الناس عن قوله تعالى : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ (١٥) فما وجد أحداً يشفيه ، حتى قال ابن عباس – وهو خلفه – : «يا أمير المؤمنين : إنى أجد فى نفسى منها شيئاً، فتلفت إليه ، فقال : تحول ههنا ، لم تحقر نفسك ؟ قال : هذا مثل ضربه الله عز وجل ، فقال – يعنى الله سبحانه وتعالى – «أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير والسعادة ، حتى إذا كان أحوج مايكون أن يختمه بخير حين فنى عمره ،

(١٠) المائدة . ى : ٣ .
(١١) الموافقات ٣/٣٨٤ .
(١٢) الكناية والبديع ص : ٣٤ .
(١٣) البقرة . ى : ١٩ .
(١٤) تنوير المقباس ، ص : ٤ .
(١٥) البقرة . ى : ٢٦٦ .

واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله ، فحرقه أحوج ماكان إليه» (١٦) .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (١٧) يقول ابن عباس : «مثل بلعم ، أو مثلة أمية بن الصلت كمثل الكلب (إن تحمل عليه) أن تشدد عليه فتطرده (يلهث) يدلع لسانه (أو تتركه) فلاتطرده (يلهث) يدلع لسانه ، كذلك مثل بلعم وأمية إن وعظ لم يتعظ ، وإن سكت لم يعقل عنه» (١٨) .

وفى قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩) يقول ابن عباس : «خذ العفو : اعف عمن ظلمك وأعط من حرمك وصل من قطعك» (٢٠) . ومثل هذا كثير مما نقل عن ابن عباس رضى الله عنه .

وفى هذه الأمثلة السابقة نلمس - بوضوح - الفكرة البيانية فى ذهن ابن عباس، فالأمثلة الثلاثة الأولى نرى فكرة التشبيه فيها واضحة ، ثم هو يفطن إلى دقة التشبيه وروعته عندما يقول : كمطر نزل من السماء ليلاً على مفازة ، فهؤلاء لاتكون حيرتهم كاملة إلا إذا كان المطر ينزل عليهم ليلاً - لانهاراً - وفى مفازة من الأرض. وفى المثال الثانى يدرك أن التشبيه لحال بحال إنما هو مثل ، ثم هو يفصل أجزاء الحال المشبهة تفصيلاً يدل على فهم دقيق وحس مرهف . وفى المثال الثالث يفطن إلى وجه الشبه ، وتحقيقه فى المشبه بقوله : كذلك مثل بلعم وأمية إن وعظ لم يتعظ وإن سكت لم يعقل عنه . أما المثال الرابع ففيه يدرك ابن عباس ماتحويه الآية الكريمة من معان كثيرة ، على الرغم من قلة عدد كلماتها ، وهذا هو معنى الإيجاز عند البلاغيين .

ولاشك أن ابن عباس من أعلام المفسرين من صحابة رسول الله - ﷺ - ، فهو مفسر من الطراز الأول الأصيل ، يغوص بفكره وفطرته وراء الأساليب القرآنية يستشف مافيها من اللطائف والنكت ، ولن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن عبدالله

(١٦) تفسير الطبرى ٣/٤٧ .
(١٧) الأعراف . ى : ١٧٦ .
(١٨) تنوير المقياس ص١١١ .
(١٩) الأعراف . ى : ١٩٩ .
(٢٠) تنوير المقياس ص١١٢ .

ابن عباس هو واضع أساس التفسير البياني الذى وجدنا آثاره عند تلاميذه من التابعين، ثم نما وازدهر فيما بعد .

ورسول الله - ﷺ ، وهو أفصح العرب - تعهده ربه بالتربية والتثقيف والتهذيب إعداداً له لحمل الرسالة ، وتهيئة له لمواجهة هؤلاء القوم الذين خلصت لغتهم وفاق بيانهم ، فقد هيأ الله لنبيه ماجعله أفصحهم بياناً ، وأكثرهم إدراكاً وفهماً لبلاغة القول وماتقوم عليها من أسس وأصول ، وقد افتخر هو بذلك فى قوله : «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ورييت فى بنى سعد» .

وفصاحته - ﷺ - التى كشفت عن الكثير عن الملاحظات البيانية ، ونبهت إلى كثير من العيوب التى ينبغى تجنبها فى صناعة الكلام لاتنفصل عن البيئة القرآنية ، وما أسهمت به هذه البيئة فى مجال الدراسات البلاغية .

فالرسول الكريم لاينطق عن الهوى ، وإنما هو مفسر وموضح لما يوحى إليه ، وقد كانت أحاديثه وأقواله تذاع على كل لسان ، وجوامع كلمه تملأ الصدور والقلوب .

وقد سمع النبى ﷺ - الشعر ونقده ، واستحسن منه ماكان حسناً ، ومقت ماكان معيباً ساقطاً يمجه الذوق وتلفظه الأسماع ، كما نبّه إلى كثير من العيوب التى تخل بفصاحة الكلام ، فنهى عن التكلف والتشدق فى القول ، وهو القائل : «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» [٢١] . وكره النبى السجع البغيض الممقوت الذى لايجرى مع الطبع ويميل إلى التكلف والإغراب ، فقد أثر أنه أمر فى دية الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال له رجل : «أأدى من لاشرب ولاأكل ولانطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ؟ فغضب النبى - ﷺ - عندما سمع هذا السجع المتكلف ، وقال : أسجعاً كسجع الكهان ؟!»[٢٢] .

فالرسول الكريم - بتربية الله له ونزول الوحى عليه - كان أفهم العرب لصناعة الكلام ، وأبصرهم لما تقوم عليه هذه الصناعة ، كيف وقد خصه الله بجوامع الكلم ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين الوحشى .

---

(٢١) رواه الإمام أحمد فى مسنده : ١٩٤/٤ .

(٢٢) مختصر سنن أبى داوود ٣٦٥/٦ ، ٣٦٦ وله ألفاظ أخر .

ثانياً - البيئة الأدبية :

عرفنا - فيما سبق - أن الجاهليين كانوا يحرصون على البيان وصناعة الكلام، وأن حركة الأدب والنقد - عندهم - شهدت نشاطاً واسعاً ، حتى وصلوا فى هذه الصناعة إلى درجة رفيعة من فصاحة القول وبلاغته .

وهذه الحركة الأدبية والنقدية لم تضعف بظهور الإسلام ؛ بل كان لها نشاط واضح وملحوظ منذ بداية هذا العصر .

فقد كان الشعر من أمضى الأسلحة التى اعتمدت عليها الدعوة الإسلامية فى إرساء قواعدها ، ووقف شعراء المسلمين يدافعون عن العقيدة الجديدة ويقفون بجانبها.

والرسول - ﷺ - كان يشجع شعراءه ، ويحثهم على تأييده ومآزرته ، ويقول لهم : «مايمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بلسانهم ؟» ، وينتدب طائفة من المتحمسين أمثال كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة وغيرهم ليقفوا فى وجه المشركين ، ويردوا على شعرائهم ، وكان الرسول الكريم يشجع هؤلاء الشعراء ويعد شعرهم جهاداً فى سبيل الله ، فقد قال لحسان : «اهج قريشا ومعك روح القدس» (٢٣) .

ولانريد أن نطيل القول حول نشاط الشعر فى هذا العصر ، ودوره فى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، ولكن مما تجدر الإشارة إليه أنه أضحت فى هذا العصر ضوابط ومقاييس جديدة يهتدى بها الشعراء وينسجون شعرهم على منوالها ، سواء فى مجال المعانى أو الألفاظ ، وقد كان للدين الجديد والقرآن الكريم وتوجيهات الرسول ﷺ أثرها الكبير فى هذه الناحية .

ففى مجال المعانى رسم الإسلام للناس منهاج السلوك الصحيح الذى يضمن للمسلم السعادة فى الدنيا والآخرة ، فما جاء من الشعر متفقاً - فى معناه - مع تعاليم الدين الجديد وروحه فهو من الشعر فى القمة . أما أولئك الذين ينصرفون إلى حياة اللهو والعبث ، فقد كان للدين منهم موقف واضح نراه فى قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٤) ، وفى قوله ﷺ : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً»(٢٥).

(٢٣) الإصابة ٣٢٦/١ .
(٢٤) الشعراء . ى : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٢٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده : ١٧٥/١ .

فهؤلاء الشعراء الذين يخالفون تعاليم الدين ولاينسجون على هدى من نوره ، نعى عليهم القرآن مسلكهم ، وأعلن الرسول الكريم سخطه عليهم ، فشعرهم مستقبح ساقط ، فهو من كلام الغواة الذى يرفضه الإسلام .

وفى مجال الألفاظ نجد من أهم الظواهر الجديدة التى جاء بها الإسلام صفة البساطة وعدم التكلف والميل مع الطبع ، ورسول الله - ﷺ - يتعهد ذلك بنفسه ، فقد سمع الشعر فى مسجده كثيراً وهو القائل : «إن من الشعر لحكمة» [٢٦] ، وأبغض الخلق إليه وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ، كما حذر من التشدق فى القول فى قوله : «إياى والتشادق» [٢٧] .

وبتأثير الدين الجديد شاعت ألفاظ القرآن الكريم وطرائقه فى التعبير فى جميع القبائل العربية ، وأصبحت معروفة لديهم فيما ينشئون من خطب وأشعار ، فكان لهم بذلك لغة عامة وحدت مشاربهم وأذواقهم وخلقت فيهم خيالاً متجانساً ، ومثلاً عليا متحدة .

وفى مجال النقد فى هذا العصر نجد أن دائرته قد اتسعت كثيراً عن العصر السابق ، وأن تعاليم الإسلام وتوجيهاته أصبحت موضع قداسة عند النقاد ، يحكمون على الشعر وسائر فنون الكلام بوحى منها ، فالسهولة فى الآداء والبعد عن التكلف وتجنب المعاظلة فى القول ، والبعد عن الألفاظ الوحشية يجب أن تراعى فى الكلام حتى يحكم عليه بالجودة ، كما أن الشعر الذى يساير الدين والأخلاق ، وينتصر للفضائل والمثل العليا كان موضع احترام وتقدير من المسلمين فى ذلك العهد .

وعلى هذا الأساس نظر نقاد هذا العصر إلى الشعر ، مقتدين برسول الله - ﷺ - وصحابته - رضوان الله عليهم - فجاء نقدهم على أسس من هذه المقاييس والضوابط التى هذبها الإسلام ، وأوضحها القرآن الكريم فى معانيه وألفاظه ونظمه وأسلوبه .

فمما يروى أن النابغة الجعدى أنشد النبى - ﷺ - قوله :

ولاخير فى حلم إذا لم تكن له	بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولاخير فى جهل إذا لم يكن له	حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

(٢٦) رواه الإمام أحمد بلفظ : أن من الشعر حكماً . المسند ١/٢٦٩ .
(٢٧) انظر البيان والتبيين ٢/٢١ .

ناظراً إلى قوله تعالى :﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٨) ، وإلى قول الرسول – ﷺ – : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» فتعجب النبى – عليه السلام – من قوله ، ودعا له بقوله : «لايفضض الله فاك» فبقى عمره لم تنقض له سن (٢٩) .

وقصة كعب بن زهير مع الرسول – ﷺ – مشهورة ، فقد جاءه كعب مستأمناً تائباً – بعد أن كان الرسول قد أهدر دمه – فأنشده قصيدته التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ‌‌ ‌‌ متيم أثرها لم يفد مكبول

فلم ينكر عليه قوله ، بل تجاوز عنه ، ووهب له بردته الشريفة التى اشتراها معاوية بثلاثين ألف درهم .

وأنشد لبيد بن ربيعة أبا بكر – رضى الله عنه – قوله :

ألا كل شئ ماخلا الله باطل

فقال له : صدقت ، قال :

وكل نعيم لامحالة زائل

فقال له : كذبت ، عند الله نعيم لايزول (٣٠) .

وكان عمر – رضى الله عنه – إذا أنشد قول زهير بن أبى سلمى :

فإن الحق مقطعه ثلاث ‌‌ ‌‌ يمين أو نفار أو جلاء

– يعنى : يمينا أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى – تعجب عمر من معرفته بمقاطع الحقوق ، حتى قال بعض الرواة : لو أن زهير نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ما زاد شيئاً على ماقال» (٣١) .

---

(٢٨) الأعراف . ى : ١٩٩ .

(٢٩) الشعر والشعراء ٢٨٩/١ .

(٣٠) الموشح ص٦٤ ، ٦٥ .

(٣١) الشعر والشعراء ١٤٠/١ ، وانظر رسالة عمر إلى أبى موسى الأشعرى فى البيان والتبيين ٤٨/٢ .

ومن خلال هذه النماذج التى أثرت عن رسول الله – ﷺ – وصحابته نلمس وضوح الفكرة البيانية فى كثير منها ، كما ندرك أثر الدين فى تهذيب نفوس القوم ، وانعكاس هذا الأثر على مايقرضون من شعر أو يحوكون من قول فى أى فن من فنونه .

ومن أبرز الشواهد على وضوح المقاييس البيانية والبلاغية وعمقها فى هذا العصر نقد سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لزهير بن أبى سلمى وحكمه على شعره . فقد روى أنه قال : أنشدونى لأشعر شعرائكم ، فقيل له : ومن هو ؟ قال: زهير . قيل : ويم كان كذلك؟ قال كان زهير لايعاظل بين القول ، ولايتبع حوشى الكلام ، ولايمدح الرجل إلا بما فيه(٣٢) .

فكلام عمر وحكمه على شعر زهير يدل – بوضوح – على أن الضوابط التى أقام عليها حكمه كانت واضحة فى عقله وهو يقيس شعر زهير ، فهو أشعر الشعراء فى رأيه ؛ لأن كلامه يتميز عن كلام غيره إذا قيس بهذه المقاييس التى ذكرها . كما نلمس أيضاً – وضوح الفكرة البلاغية ، فالمعاظلة فى الكلام – فى مفهوم عمر – لم يضف إليها البلاغيون شيئاً إلا أن سموها «التعقيد اللفظى» (٣٣) ، وقد عرف أبوهلال العسكرى المعاظلة بأن «يركب بعض ألفاظ الكلام رقاب بعض ، وأن تتداخل أجزاؤه ، بحيث يؤدى هذا إلى عدم فهم المراد منه» (٣٤) . كذلك أدرك عمر أن اختيار الألفاظ لابد أن يقوم على أساس واضح حتى يكون الكلام فصيحاً ، فالألفاظ الوحشية الغريبة تخل بفصاحة الكلام ، فضلاً عن أنها ليست فصيحة فى نفسها ، وما الفرق بين هذا المعنى الذى أفصح عنه سيدنا عمر وبين ماقاله البلاغيون من أن غرابة الكلمة ووحشيتها تخل بفصاحتها كما تخل – أيضاً – بفصاحة الكلام (٣٥) .

وكما نلمس وضوح الضوابط البيانية فى نقد سيدنا عمر – رضى الله عنه – نلمس – أيضاً أثر الدين الجديد والقرآن الكريم فى هذه الضوابط ، فالمعاظلة ، واستعمال الوحشى فيه بعد وتكلف ، والإسلام – كما سبق أن أشرنا – تتسم تعاليمه باليسر والسهولة ، والميل مع الطبع ونبذ التكلف .

---

(٣٢) الشعر والشعراء ١/١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣٣) الإيضاح ١/٢٠ .
(٣٤) الصناعتين ص : ١٢٢ .
(٣٥) الإيضاح ١/١٣ ، ١٤ .

ومثل عمر – فى نقده – كان كل نقاد المسلمين فى ذلك العصر ، فقد كثرت ملاحظاتهم البيانية على الشعر وسائر فنون الكلام مترسمين – فى ذلك – خطى الإسلام وتعاليمه السمحة .

ومن كل ماسبق ندرك – بوضوح – أن الضوابط البلاغية أصبحت أكثر وضوحاً واتساعاً وعمقاً ، وأن القرآن الكريم وأسلوبه حرك عقول العرب فى البحث عن هذه المقاييس ، سواء فى نظرهم إلى القرآن من جهة إعجازه ومحاولتهم معارضته ، أو فى نظمهم للشعر ونقدهم لسائر فنون القول .

* * *

الفصل الثالث

الملاحظات البلاغية فى العصر الأموى

تطورت العقلية العربية – فى عصر بنى أمية – تطوراً سريعاً ، وتغير كل شئ فى حياة الناس ، فقد تحولت الخلافة الإسلامية الرشيدة الزاهدة إلى ملك عضوض يتوارثه أبناء البيت الأموى واحداً بعد الآخر ، فتحضرت العقول تحضراً سريعاً ، وألفت حياة الاستقرار والهدوء .

وقد كان لهذه السياسة الجديدة أثرها الواضح فى الأدب والنقد ، فاندفع الشعر والأدب إلى الأمام خطوات كبيرة ، وتعمقت النظرة إلى صناعة الكلام وماتنطوى عليه الأساليب من أسرار ولطائف ، كما عمقت نظرة الناس إلى خصائص القرآن الكريم فى أساليبه ونظمه ، بل عكف كثير منهم على إدمان النظر فى النظم القرآنى فى محاولة للبحث وراء هذه العظمة القرآنية ، وفهم معانيه ، وتدبر آياته .

ففى مجال الدراسات القرآنية :

بدأت تنشط بشكل ملحوظ فى هذا العصر ، وكان لهذا النشاط أثره – الذى لايجحد – فى وضوح الكثير من الملاحظات البيانية ونضجها ؛ بل إن هذه الدراسات كانت نواة لكتب الإعجاز التى ظهرت فيما بعد .

وقد أشرنا – فى الفصل السابق – إلى جهود الصحابة فى الصدر الأول حول تفسير القرآن الكريم ، وإجلاء بعض أسراره ، وكيف كان لهذا الجهد أثره فى إبراز بعض الملاحظات البلاغية .

وفى عصر بنى أمية كان هناك التابعون الذين تتلمذوا على الصحابة ، وكان لهؤلاء التابعين باع فى تفسير القرآن الكريم ، فتكلموا فيه ، ووضحوا كثيراً مما خفى من معانيه ، وماحواه نظمه وأسلوبه من أسرار ولطائف .

وقد اتسعت دائرة التفسير القرآنى فى هذا العصر ، وكثر الكلام فيه ، فقامت فى الأمصار المختلفة مدارس علمية أساتذتها الصحابة – رضوان الله عليهم – وتلاميذها التابعون .

وقد خلفت لنا هذه المدارس تراثاً ضخماً من تفسير هؤلاء التابعين ، تلقوا

أصوله من الصحابة ، وبعض من أقوالهم رجعوا فيها إلى أهل الكتاب ، وأضافوا كثيراً من آرائهم واجتهادهم .

وقد كان هؤلاء التابعون على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم وصفاء الملكة ؛ لقرب عهدهم من عهد النبوة ، واتصال مابين العهدين بعهد الصحابة ، وعدم فساد سليقتهم العربية .

ويكفى أن نشير إلى واحد – فقط – من أعلام المفسرين فى هذا العصر ، ونلقى الضوء على بعض نماذج من تفسيره ؛ لنبين – بجلاء – كيف كان هؤلاء المفسرون يقفون مع بعض آيات القرآن الكريم يوضحون ماغمض منها ، ويكشفون عن كثير من الدقائق واللطائف التى تكمن فى النظم القرآنى .

فهذا مجاهد بن جبير أوثق أصحاب عبدالله بن عباس رواية عنه فى التفسير ، فقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول : «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة» (١) .

وكان مجاهد يعطى عقله حرية واسعة فى فهم بعض نصوص القرآن الكريم ، التى يبدو ظاهرها بعيداً ، فإذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل وجدناه ينزله – فى صراحة ووضوح – على التشبيه والتمثيل ، وتلك خطة كانت – فيما بعد مبدأ معترفاً به ، ومقدساً لدى المعتزلة فى تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص (٢) .

فمثلاً نراه فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾(٣) يدرك التشبيه الذى تشير إليه الآية فى قوله «هذا الذى رزقنا من قبل» ، فالمعنى على التشبيه ، أى هذا مثل الذى رزقنا من قبل ، بل يدرك قرب الشبه بين المشبه والمشبه به فيقول : «ما أشبهه به من كل صنف مثل» (٤) .

ونجد وضوح التشبيه والتمثيل – عنده – فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٥) . يقول : «إن المسخ لم

---

(١) ميزان الاعتدال ٩/٣ .
(٢) التفسير والمفسرون ١٠٦/١ .
(٣) البقرة . ى : ٢٥ .
(٤) تفسير مجاهد ص ٧١ .
(٥) البقرة . ى : ٦٥ .

يقع على أجسامهم ، بل على قلوبهم ، فبقوا أناساً لهم نفوس القردة ، وإذا يكون المراد مجرد التمثيل ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (٦) .

وفى هذا التفسير وفى غيره من تفاسير التابعين كثير من النماذج التى تدل على طول باع هؤلاء العلماء فى معرفتهم بكتاب الله ، وماترمى إليه ألفاظه ، وماينطوى عليه نظمه من الأسرار واللطائف .

والدراسات القرآنية التى خدمت مسائل البيان والبلاغة – فى هذا العهد – تكاد تنحصر فى جهود هؤلاء المفسرين ، إلا ماكان من بعض الدراسات التى أثارها المتكلمون حول كثير من القضايا التى وردت فى القرآن الكريم أو تتصل به ، والتى شغلت المسلمين أعقاباً طويلة ، وقد كان هذا النظر وذلك الجدل يثيران الكثير من المسائل المهمة التى تصل أحياناً إلى درجة البحوث ، وبالأخص المعتزلة الذين ظهرت طائفتهم فى هذا العصر ، فقد كان لهم الأثر البالغ والفضل الكبير فى إثارة الكثير مما يتعلق بالمسائل البلاغية ، على ماسنرى ذلك واضحاً فيما بعد .

وفى مجال الأدب والنقد فى هذا العصر :

فقد جدت كثير من العوامل أدت إلى نشاطه وازدهاره فى كثير من الجوانب ، مما كان له الأثر الواضح على كثرة الملاحظات البيانية ونضجها وعمقها وانتقالها من طور إلى طور ، ومن أبرز هذه العوامل مايلى :

(١) تشجيع الخلفاء والأمراء :

أصبح الخلفاء والأمراء فى هذا العصر أشبه بالملوك والسلاطين ، وخلعوا على أنفسهم عظمة الملوك وهيبتهم ، وأصبح لهم أبواب يتهافت عليها طلاب الدنيا وأصحاب الحاجات .

وقد كان الشعراء فى مقدمة هؤلاء الذين يطلبون أبواب الخلفاء والأمراء ، ويتكالبون عليها فينشدونهم قصائد المديح والإطراء ؛ طمعاً فى نيل رضاهم ، والفوز بعطاياهم السخية .

وقد فتح الخلفاء والأمراء أبوابهم وصدورهم للشعراء يستمعون لإنشادهم ، ويطلبون المزيد من قصائد المدح ، ويشعلون نار التنافس بينهم مستعرضين معهم ماشاؤوا من فنون الشعر ، ثم يفاضلون بينهم ويأمرون لمن أجاد منهم بالجوائز والعطايا التى تقر بها عيونهم وتلهب حماسهم للمزيد من القول وإجادته .

(٦) الجمعة . ى : ٥ ، وانظر تفسير مجاهد ص٣٥ .

فمن ذلك ماروى عن الخليفة عبدالملك بن مروان وتشجيعه للشعراء ، وإشعال نار التنافس بينهم ، فقد اجتمع فى مجلسه – يوماً – كل من جرير والفرزدق والأخطل، فأحضر كيساً فيه خمسمائة دينار ، وقال لهم : ليقل كل منكم بيتاً فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فقال الفرزدق :

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فإن تك زق زاملة فإنى أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير :

أنا الموت الذى آتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال عبدالملك لجرير : خذ الكيس ، فلعمرى أن الموت يأتى على كل شئ (٧) .

ومما يروى عن الحجاج أن جريرا والفرزدق اجتمعا عنده يوماً ، فقال لهما : من مدحنى منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتى فهذه الخلعة له ، فقال الفرزدق :

فمن يأمن الحجاج ؟ والطير تتقى عقوبته إلا ضعيف العزائم

وقال جرير :

فمن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه فمر وأما عهده فوثيق
يسر لك البغضاء كل منافق كما كل ذى دين عليك شفيق

فقال الحجاج للفرزدق : ماعملت شيئاً : إن الطير تتقى الصبى والخشبة ، ودفع الخلعة إلى جرير (٨) .

ونلمس فى نقد عبدالملك حثه للشعراء الثلاثة على اختيار الألفاظ ، وإصابة المعنى ، مع الإيجاز فى القول ، كما يبدو واضحاً فى نقد الحجاج فهمه لمعنى الإيجاز فى الكلام وعظم أثره فى وضوح المعنى ، فهو يطلب من الشاعرين المدح وإحسان الصفة على شريطة الإيجاز .

---

(٧) الأغانى ٨/٦٥ .
(٨) الصناعتين ص٩٨ .

وكتب الأدب مليئة بمثل هذه النماذج التى تدل – بوضوح – على أن الخلفاء والأمراء كانوا يتعهدون الشعر والشعراء بالعناية والاهتمام ، وأن مجالسهم قد ازدانت بالأدب والأدباء ، كما تدل على تشجيعهم للشعر ، وبث روح المنافسة بينهم ، وقد خلفت لنا مجالسهم تراثاً هائلاً من الأدب ، وكانت سبباً فى تنبه ملكات النقد فى بيئات العلم والأدب ، كما كانت سبباً فى نمو الكثير من الملاحظات والأصول البلاغية.

(٢) كثرة الفرق وتعدد الأحزاب :

ظهر فى هذا العصر كثير من الفرق والأحزاب السياسية والعقائدية ، وكان بين هذه الفرق والطوائف خلافات شديدة وصراعات حادة .

وكان الشعر والخطابة من أبرز الأسلحة فى هذا المعترك السياسى والعقائدى الكبير ، فكان لكل فرقة أو طائفة شعراؤها وخطباؤها الذين ينتصرون لها ويدافعون عنها ، ويكيلون لأعدائها من الطوائف والأحزاب الأخرى الهجاء المر والمثالب الفاحشة .

وهذا مظهر جديد لتلك الحياة المدنية الأولية التى هيأها الإسلام للعرب لأول مرة ، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة وباطنها العداوة والفرقة ، فهو مهاجاة بين الأفراد ومساجلة بين الأحزاب ، ومفاخرة بين القبائل ومدح للزعماء والخلفاء .

وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضى اللفظ الجزل ، وتستدعى الأسلوب الرصين، والصور الرائعة مما جعل الشعراء والخطباء يفتنون فى القول ، باحثين عن أسباب جودته ورقيه ؛ ليكون ذلك أدعى لإفحام خصومهم .

ومما يصور هذا الصراع الذى كان له أثره على الأدب ، ماترويه كتب الأدب أن هشام بن عبدالملك كتب إلى عامله بالمدينة أن يأخذ الناس بسب على ، فقال عبدالله بن كثير السهمى ، وكان يتشيع ، وسمع عمال خالد القسرى يلعنون عليا والحسين على المنابر :

لعن الله من يسب عليـــا	وحـسـيناً من سـوقـة وإمـام
أيسب المطيـبـون جـدودا	والكرام الأخـوال والأعـمـام
يأمن الظبى والحمـام ولايأ	من آل الرسـول عند المقـام
طبت بيتـا وطاب أهلك أهلا	أهل بيت النبى والإسـلام

رحمة الله والسلام عليهم كلما قام قائم بسلام [٩]

ولما مدح عبدالله بن قيس الرقيات عبدالملك بن مروان بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

غضب عبدالملك ، وقال له : قد قلت فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم ، وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح مالافخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة [١٠] .

فالشعر – فى هذا العصر – سلاح من أقوى الأسلحة التى يواجه بها كل فريق خصمه ، فهم يدركون أن فن القول والتأثير على القلوب من أهم مايعلنون به عن مبادئهم وأهدافهم التى تعددت وكثرت فى هذا العصر . فعبد الله السهمى لم يجد رداً على صنيع هشام وعامله على المدينة من سبهم لآل بيت رسول الله – ﷺ – إلا الشعر ، فيحاجهم فى قصيدة طويلة يفند فيها آراءهم ، ويدحضها بالحجج القوية الواضحة ، معتمداً فى ذلك على جدل واضح وعارضة قوية ، وأسلوب جزل رصين . وعبدالملك بن مروان أدرك بعقله الواعى لصناعة الكلام وذوقه العربى الأصيل الفارق الشاسع بين مامدحه به ابن الرقيات ومامدح به مصعب بن الزبير ، وفطن إلى أن ابن الرقيات وهو يمدح مصعباً بعاطفة صادقة – أضفى عليه من الصفات الخلقية ومايتصل بالنفس من الفضائل ، ومن ثم جاء معناه وأسلوبه وتصويره قوياً رائعاً ، بينما يهبط المعنى ويضعف الأسلوب والتصوير فى مدحه عبدالملك .

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، مما يدل على أن هذ الصراع أدى إلى نشاط كبير سواء فى مجال الشعر أو النقد ، ونتج عن هذا النشاط وضوح الكثير من المفاهيم والملاحظات البلاغية .

وقد خطت الخطابة – أيضاً بسبب هذا الصراع – خطوات واسعة ، وازدهرت ازدهاراً ملحوظاً ، وكان خطباء كل فرقة يحرصون على أن يعبروا عن فلسفتهم ومبادئهم ببيان ساحر يجذب إليه قلوب السامعين ، ويستميلهم إلى رأيه وعقيدته ، ويسفه من شأن مناوئيه وأعدائه .

فمن الخلفاء اشتهر معاوية بن أبى سفيان بجودة لفظه ورقة أسلوبه وروعة

(٩) البيان والتبيين ٣/٢٦٠ .
(١٠) الصناعتين ص١٠٤ .

تصويره ، ومن الولاء اشتهر زياد بن أبيه ، وفيه يقول الشعبى : «ماسمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسئ إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً» وفى خطبته «البتراء» خير شاهد على اهتمام القوم بالخطابة وتخير معانيهم وألفاظهم (١١) .

واشتهر الحجاج بن يوسف الثقفى بعارضته القوية وطول باعه فى ميدان الخطابة ، كما كان له حس مرهف فى اختيار ألفاظه ومعانيه والبصر بصناعة الكلام والتفنن فى معارضه البليغة .

ومن الشيعة يشتهر زيد بن الحسين بن على ؛ فقد كان لسنا جدلاً يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته . ومن الخوارج يشتهر أبو حمزة الخارجى ، وكان له بصر بفن القول وصناعة الكلام .

ومن الفرق التى ظهرت فى هذا العصر وكان لها دورها البارز الفعّال فى البحث عن وسائل تحسين الأدب ، والتفتيش عن عيوبه وتجنبها فرقة المعتزلة ، فقد كثر خطباؤها فى هذا العصر وحرصوا على بيانهم وفصاحتهم وكل مايتصل بهذا البيان مما يعمل على حسنه ورقيه ، فواصل بن عطاء – وهو رئيس هذه الفرقة وزعيمها – لما علم أنه ألثغ ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة رام إسقاط الراء من كلامه (١٢) .

وقد اهتدى كثير من خطباء الفرق فى هذا العصر إلى ضوابط وأصول بيانية ، وأماطوا اللثام عن كثير من الملاحظات البلاغية ، بل لنا أن نقول إن كثيراً من المصطلحات البلاغية جرت على ألسنتهم عن وعى وفهم كاملين .

فهذا صحار بن عياش العبدى ، الذى راع معاوية بخطابته فسأله معاوية : «ماتعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلاتبطئ وتقول فلاتخطئ» (١٣) .

وهذا شبيب بن شيبة – من خطباء هذا العصر – يقول : «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ، ويمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت» (١٤) .

---

(١١) البيان والتبيين ٦١/٢ ، ٦٥ ، ٦٦ .
(١٢) انظر البيان والتبيين ١٥/١ .
(١٣) المرجع السابق ٩٦/١ .
(١٤) المرجع السابق ١١٢/١ .

ففى كلام معاوية ورد صحار عليه إبراز لمصطلحى : البلاغة ، والإيجاز ومحاولة وضع حد لهما ، وفى كلام شبيب تحدث عن جودة الابتداء ، وهو ماسماه البلاغيون – فيما بعد – «حسن الابتداء» ، وجعلوه واحداً من المواضع التى ينبغى للمتكلم أن يتأنق فيها [١٥] ، وكذلك حديثه عن جودة القطع ، الذى سماه البلاغيون «حسن الانتهاء» [١٦] .

فهذا النشاط الأدبى الذى أدى إليه الصراع السياسى والعقائدى – سواء فى ميدان الأدب والنقد أو فى مجال الخطابة – نتج عنه وضوح الكثير من الأفكار والمفاهيم والملاحظات البلاغية فى هذا العصر .

(٣) مجالس النقد :

رأينا – من قبل – كيف كان الخلفاء والأمراء يشجعون الشعراء على القول ، ويفتحون أمامهم أبواب الآمال لقرض المزيد من الشعر والإجادة فيه ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كان الخلفاء يعقدون المجالس الأدبية التى يجتمع فيها الشعراء والرواد ، فيلقى الشعراء ماعندهم من القصائد ، ثم يقوم الخليفة بنقد أشعارهم ، وإبراز مافيها من ملاحظات نقدية ، إن كانت بارعة فقد فاز الشاعر برضا الخليفة وظفر بجزيل العطايا والهبات ، وإن كانت الأخرى فقد باء بغضب الخليفة وسخط الحاضرين.

وقد كانت مجالس الخلفاء خير مظهر من مظاهر احتفاظ هؤلاء الخلفاء بعروبتهم وحبهم للشعر ، وصناعة الكلام ، وولوعهم بسحر البيان ، ودرايتهم بتذوقه ، وقدرتهم على نقده وتحسس جوانب الجمال فيه ، وتعرفهم على جوانب العيب والتقصير بفطرة سليمة وعقل ناضج وحس مرهف .

فمما ترويه كتب الأدب أن الأقيشر – الشاعر الأموى المشهور – دخل على عبدالملك بن مروان وعنده قوم ، وجاء ذكر الشعر ، فذكروا قول نصيب :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت ... فياويح دعد من يهيم بها بعدى ؟

فقال الأقيشر : والله لقد أساء قائل هذا الشعر ، فقال عبدالملك :

فكيف كنت تقوله لو كنت قائله ؟ قال : كنت أقول :

---

(١٥) الإيضاح ١٤٨/٤ .

(١٦) المرجع السابق ١٥٧/١ .

تحبكم نفسى حياتى فإن أمت   أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبدالملك : والله لأنت أسوأ قولاً منه ، حتى توكل بها ، فقال الأقيشر : فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟

قال : كنت أقول :

تحبكم نفس حياتى فإن أمت   فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

فقال القوم جميعاً : أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم (١٧) .

فنقد عبدالملك لشعر نصيب وكذا شعر الأقيشر وإجماع الحاضرين على إصابته يقوم على تحديد المعنى الذى يرمى إليه الشاعر واختيار الألفاظ المناسبة التى تؤدى هذا المعنى ، وقد أجاد عبدالملك – أيما إجادة – فى إبراز المعنى الذى أراده الشاعر فيما يناسبه من ألفاظ .

وقد كانت مجالس الخلفاء وأمرائهم صورة لمجالس أخرى يذكر فيها الأدب والنقد ، وتلك هى مجالس الوجوه وأثرياء القوم ، فالناس على دين ملوكهم ، وقد كثرت هذه المجالس ، وأضحت مظهراً من مظاهر الترف الذى ألفه كثير من الناس ، وقد أثير فى هذه المجالس الكثير من الملاحظات البيانية التى تدل على نضج هذه الملاحظات وعمقها . ومن هذه المجالس : مجلس سكينة بنت الحسين ، وعقيلة بنت عقيل بن أبى طالب .

ولم تعد المجالس وقفاً – فى هذا العصر – على الخلفاء والأمراء ، أو الوجهاء وأثرياء القوم ؛ بل اتخذت مظهراً عاماً فى جميع الأوساط وسائر الجماعات . فالشعراء – على ماكان بينهم من التنافس والتحاسد – كان يجمعهم التواد والتعاطف ، فلم تعصف بهم ريح البغضاء ، فكانت لهم مجالس للهو والسمر ، ولم تكن لهم مادة للهوهم وسمرهم إلا الشعر ينشدونه ، وينظر كل منهم فى شعر صاحبه ، ويبرز مافيه من محاسن ، أو مساوئ . وكتب الأدب والنقد مليئة بهذه المجالس ، وماكان يجرى فيها .

وهذه المجالس – على اختلافها – تناولت الأدب ونقده – مما يدل على شيوع الذوق الأدبى الرفيع ، وعلى نضج العقل العربى واتساعه ، وبصره بالقواعد والأصول

---

(١٧) الشعر والشعراء ١/٢٨٤ .

التى يقوم عليها فن الأدب ، وعلى تمكن ملكة النقد من نفوس القوم ، وتجاوزها الرجال إلى النساء .

وإذا كانت هذه المجالس قد خلفت لنا ثروة أدبية ونقدية هائلة ، فقد خلفت لنا تراثاً ضخماً من المقاييس البيانية ، حفظتها كتب الأدب والنقد والتاريخ ، واستفاد منها العلماء عند بدء التأليف البلاغى .

(٤) الأسواق الأدبية :

لعبت الأسواق الأدبية التى كانت تعقد فى العصرين الجاهلى والإسلامى دوراً مهماً فى النشاط الأدبى والعمل على إجادته ، والبحث عن الوسائل التى ترقى بها الأعمال الأدبية .

وفى هذا العصر يزداد هذا النشاط – بفضل الأسواق الأدبية التى قامت فيه – اتساعاً وشمولاً وعمقاً ، فقد قامت فى البصرة سوق المربد ، وفى الكوفة سوق الكناسة، وتحولا إلى ميدان واسع يلتقى فيه الشعراء والأدباء من كل صوب وحدب ؛ ليلقى كل منهم أشعاره على الناس ، وكان كل شاعر يعد نفسه إعداداً جيداً لهذا اللقاء ، فيختار ألفاظه ومعانيه وينتقيها ، ويعيد نظره مرة بعد أخرى فى شعره قبل أن يلقيه على الناس ، ويحاول أن يخرج على الناس ببيان فصيح يهز أسماعهم ويستولى على أفئدتهم ، وكان جرير والفرزدق فارسى الحلبة فى هذين المحفلين الكبيرين ، وتطور فنهما بصورة ملحوظة ؛ خاصة فى فن الهجاء الذى أصبح مناظرة واسعة بين هذين العملاقين الكبيرين – كما سنشير إلى ذلك فيما بعد – وكان كل واحد منهما يحاول أن يبز صاحبه ويقهره ، وأن يكون هو فارس الحلبة دون منازع أو منافس ؛ بل كان كل شاعر يتتبع أنداده فيتعرض لشعرهم بالتقبيح والتفنيد ، مبرزاً مافيها من العيوب والمثالب ، مما أدى إلى كشف القناع عن الكثير من الملاحظات البلاغية .

فمن ذلك مايروى أن جريراً كان يستمع إلى عمر بن لجأ وهو ينشد أرجوزته ، فلما وصل إلى قوله يصف إبله :

قد وردت قبل آنى ضحائها وتفرس الحيات فى خرشائها [١٨] .

جر العجوز الثنى من ردائها

---

(١٨) آلانى : الوقت ، ضحاء الإبل : رعيها فى الضحى ، الخرشاء : جلد الحيات .

تعرض له وقال : كان أولى بك أن تقول «جر العروس» لاجر العجوز ، التى تتساقط خوراً وضعفاً ، واستشاط عمر غضباً ، فهجاه واحتدم بينهما الهجاء (١٩) .

ومدار هذه الملاحظة - التى تعقب بها جرير شعر عمر - تقوم على انتقاء الكلمة الملائمة للسياق واختيارها ، وإذا كان البلاغيون - فيما بعد - قالوا : إن لكل مقام مقالا ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقاما ، فإن جريرا لم يبعد عن هذا المعنى .

ولم يقف الأمر فى الأسواق الأدبية على تعرض الشعراء بعضهم لبعض ؛ بل كان المستمعون ممن يحضرون هذه الأسواق يصغون إلى الشعراء بآذان مرهفة ، وقلوب واعية ، فيصفقون كلما مر عليهم بيت نافذ يخلب ألبابهم ، فإذا ماوجدوا ثلمة فى بيت أبدوا ملاحظاتهم النقدية والبيانية .

فقد روى أن ذا الرمة كان ينشد إحدى قصائده بالكناسة ، فلما وصل إلى قوله :

إذا غير النأى المحبين لم يكـــــد رسيس الهوى من حب مية يبرح

صاح ابن شبرمة به وقال : «أراه قد برح» ، ولم تعجبه عبارة ذى الرمة فى قوله : «لم يكد» ، فكف ذو الرمة ناقته بزمامها ، وجعل يتأخر بها ويفكر ، ثم عاد فأنشد :

إذا غير النأى المحبين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح (٢٠)

فابن شبرمة أدرك المعنى الذى رمى إليه ذو الرمة ، وبفطرة سليمة وعقل واع فطن إلى أن عبارته لم تؤد هذا المعنى ، بل أدت إلى عكس المقصود ، فنبهه إلى ذلك .

ومثل هذا كثير مما يوضح أن هذه الأسواق كان نشاطها واضحاً فى الحركة الأدبية والنقدية ؛ مما تمخض عنه الكثير من الملاحظات البيانية البارعة .

(٥) النقائض :

ظهرت فى هذا العصر طبقة من الشعراء اتخذوا من شعرهم أظفاراً وأنياباً مزقوا بها الأعراض ، وأشاعوا هجر القول فى الناس .

ومن المعروف أن هذا العصر لم يشهد أفحش قولاً وأقذع هجاء من جرير

---

(١٩) الأغانى ٨/٧٠ .
(٢٠) المرجع السابق ١٦/١١٨ .

والفرزدق والأخطل ، فهؤلاء الثلاثة كان لهم من الشهرة بحيث إذا مدحوا قوما رفعوهم ، وإذا ذموا قوما وضعوهم ، وإذا هجاهم غيرهم فردوا عليهم أنهضوهم وأقاموا لهم شأناً ، وإذا رغبوا بأنفسهم عن جوابهم قللوا من شأنهم فى أعين الناس .

ومن أخبار جرير أنه كان يناضل شعراء زمانه ، وكان هجاؤه مرا ، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل ، فكان بين الشعراء الثلاثة من المهاجاة والمفاخرات والنقائض ما أثرى الأدب العربى ، وكان سمة بارزة فى هذا العصر .

وقد كان لكل من الشعراء الثلاثة مذهبه وطريقته فى مناقضاته ، وليس هنا مجال للوقوف عند التكوين النفسى والبيئة التى تربى فيها كل منهم ، والدافع الذى دفعهم إلى هذه التهاجى ، فهذا مجاله تاريخ الأدب .

ولكن يعنينا – فى هذا المجال – أن نوضح أن هذه النقائض – التى كثرت كثرة فائقة فى هذا العصر ، وأفردت لها الكتب والمصنفات – كان لها أثرها الفعال فى تنمية الذوق الأدبى وعمقه فى فهم الأساليب وماينطوى تحتها من الأسرار واللطائف.

فقد كان هؤلاء الشعراء يدققون فى معانيهم ، ويفتشون عن المثالب التى يرمون بها فى وجوه خصومهم مما يدفع هؤلاء الخصوم أن يدافعوا عن أنفسهم ، وينفوا عن أنفسهم هذه المثالب ، ويكيلوا لهم فاحش القول بالسباب المر والهجاء المقذع، وهم فى سبيل ذلك يختارون الألفاظ والعبارات الحارة التى تناسب أغراضهم، وتحترق لها أكباد خصومهم .

نقرأ – على سبيل المثال – قول الفرزدق فى قصيدته التى يفتخر فيها بنفسه وقومه ويهجو جريرا :

أحلامنا تزن الجبال رزانة	وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بناءنا	ثهلان ذو الهضبات هل يتحلحل ؟
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم	وإليه كان حباء جفنة ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة	وأبوك خلف أتانه يتقمل

فنقضه الفرزدق بقوله :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله	مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة أن أمك منهم	ليس ابن ضبة بالمعم المخول

أبلغ بنى وقبان أن حلومهم   خفت فلا يزنون حبة خردل

أزرى بحلمهم الفياش فأنتم   مثل الفراش غشين نار المصطلى(٢١)

ونلمس فى هذا المثال كيف يختار كل من الشاعرين معانيه وينتقى ألفاظه وعباراته ، وفى رد جرير على الفرزدق نرى كيف يلتمس الشاعر الحجج القوية والمنطق السديد فى رده على خصمه وتفنيده آراءه ، كل ذلك فى عبارات فخمة سبكت سبكاً جيداً .

ومما لاشك فيه أن وراء هذا كله جهداً ضخماً يبذله الشاعر ، سواء فى مجال المعانى أو محيط الألفاظ والأساليب ، حتى يكون ذلك أدعى إلى إفحام خصمه .

ويصور جرير هذا الجهد فى قوله عن الأخطل : «والله مايهجونى الأخطل وحده ، وإنه ليهجونى ومعه خمسون شاعراً ؛ وذلك أنه كان إذا أراد هجائى جمعهم على شراب ، فيقول هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وينتحل هو القصيدة بعد أن يتمموها» (٢٢) .

وفضلاً عن هذا كله فقد كان لهذه النقائض أثر واضح فى ميدان النقد فى ذلك العصر ، فقد أكثر النقاد حديثهم عن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، مبرزين مافى شعرهم من عيب ومثالب ، كما أكثروا من حديثهم عن أساليب هؤلاء الشعراء وطرائقهم فى الهجاء .

فجرير كان مطلق اللسان فى شعره ، مرسل العنان ، لايعوقه قيد ، ولاتكبحه شكيمة ، فقد كان سوقياً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان ، وغزارة الفكر ومتانة الشعر وسهولة القافية ، وربما كان أول من أكره الشعر على قبول العامية المبتذلة فى الهجاء ، كذكر العورات وهتك المحارم ، وكان أحسن الناس تشبيباً ، فقد روى عن الأصمعى قوله : «سمعت الحى يتحدثون أن جريراً قال : لولا ماشغلنى من هذه الكلاب لشببت تشبيباً تحن منه العجوز إلى شبابها ، كما تحن الناب إلى سقبها»(٢٣) .

وكان الفرزدق فاحش الدعاية فلايحتشم ، شديد الدعارة ، فلايتعفف ، حاد البادرة فلايتلطف ، فهو فى هجائه يذكر العورات بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحى الشاب أن ينشدها ، فكان هجاؤه سوقياً وقحاً ، وكان يتفنن فى المعانى

---

(٢١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص١٢١ .
(٢٢) الأغانى ٨/٨ .
(٢٣) الشعر والشعراء ٤٦٦/١ .

افتناناً عجيباً ، يرددها فى كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى .

أما الأخطل فكان أديب النصرانية ولسان التغلبية وشاعر الأموية ، كان أسلوبه فى الهجاء عفيفاً لايميل إلى ألفاظه الفاحشة العارية ، ولايركب فيه متن الشطط ولايتجاوز به حدود الخلق .

ويمثل هذه الملاحظات والأحكام أخذ نقاد هذا العصر يحكمون على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وطريقتهم فى نقائضهم . بل أكثر من هذا كان النقاد يفاضلون بين الشعراء الثلاثة ويقارنون بينهم بعد تفنيد أشعارهم ، فقد روى عن أبى عبيدة قوله : «كان أبوعمرو يشبه جريرا بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة ويحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم فنون الشعر وأسهلهم ألفاظاًوأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً» (٢٤) .

ومثل هذا الميدان الرحب الفسيح جعل الناس ينظرون فى أشعار هؤلاء ، باحثين عن أسباب جودتها أو رداءتها ، ومافيها من تشبيهات أو كنايات ، أو ذكر أو حذف ، أو إيجاز أو إطناب ، ووضع للألفاظ فى مواضعها ، إلى غير ذلك من الملاحظات التى كان لها أثرها فى وضوح الكثير من المقاييس البلاغية .

(٦) نشأة علوم العربية :

فى هذا العصر كثرت الفتوحات الإسلامية ، واختلط العرب بغيرهم من أبناء الأمم الأخرى ، فأقبل كثير منهم على لغة العرب يتعلمونها ويفيدون منها بالدراسة والحفظ ، مما جعل اللحن يتفشى على ألسنة كثير من الناس ، بل وصل إلى ألسنة الخلفاء أنفسهم ، وزاد الأمر خطورة وصوله إلى القرآن الكريم ، الأمر الذى دفع الغيورين من العلماء أن يضبطوا هذه اللغة ويجمعوا موادها ، ويضعوا لها من القواعد مايكفل لها الحفظ والصيانة من ناحية ، ومن ناحية أخرى تضمن لغير العرب سهولة تعلمها بعد أن كانت فى أصحابها طبعاً وسليقة ، وكان من هؤلاء العلماء المتخصصون الذين أطلق عليهم : اللغويون والنحاة .

وقد وضعت فى هذا العصر نواة علوم العربية ، كعلمى اللغة والنحاة وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى عهد الأمويين ، وقيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه (٢٥) .

---

(٢٤) الأغانى ٨/٥ .

(٢٥) الفهرست ص٦٠ ، ٦١ .

وهيأ الله لهذه اللغة العلماء المخلصين ، الذين ضبطوا شاردها وواردها ، ووضعوا لها الضوابط التى تضمن لها العصمة من الخطأ والزلل والضياع من أمثال : يحيى بن يعمر ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وعبدالله بن اسحاق الحضرمى ، وأبو عمرو بن العلاء ، وغيرهم . وكان ماوقف عليه هؤلاء العلماء فى هذا العصر هو أول محاولة لتقنين هذه العلوم .

ومن الطبيعى أن يؤثر هذا النشاط العلمى فى مجالى اللغة والنحو على الأدب والشعر والنقد ، ومن ثم على بروز الكثير من الملاحظات البيانية والبلاغية وعمقها . فقد وجد الشعراء أنفسهم – لأول مرة – أمام عقول متخصصة فى اللغة وقواعدها ، تعرف أصولها وضوابطها ، وتميز الكلام – جيده من رديئه – تمييزاً دقيقاً .

وقد كان هؤلاء العلماء ينظرون فى أعمال الأدباء والشعراء ، ويتعقبونهم ، ويبرزون مافيها من أسباب الحسن والجودة أو القبح والرداءة ، وماعسى أن يقع فيه الشعراء من المخالفات لضوابطهم التى وصلوا إليها .

فعبد الله بن اسحاق الحضرمى كان يرد كثيراً على الفرزدق ويكلمه فى شعره ، وقد سمعه ينشد :

إليك أمير المؤمنين رمت بنا ... هموم المنى والهوجل المتعسف

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجلف [٢٦]

فقال له : على أى شئ ترفع «أو مجلف» ؟ فقال : على مايسوؤك وينوؤك ، قال أبوعمرو بن العلاء : قلت للفرزدق : أصبت ، فهو جائز على المعنى ، أى أنه لم يبق سواه» [٢٧] .

ويظهر أن الفرزدق قصد إلى الاستئناف ، حتى لايحدث فى البيت إقواء يخالف به حركة الروى فى القصيدة [٢٨] .

فقد كثر حديث هؤلاء العلماء عن الشعر ، وإجلاء مافيه من أسباب الحسن أو القبح ، وفاضلوا بين الشعراء ، سواء من كانوا فى عصرهم أو ممن تقدمهم ، فأبو عمرو بن العلاء كان يقدم الأعشى ، ويقول : مثله مثل البازى ، يضرب كبير الطير

(٢٦) المسحت : الهالك ، المجلف : الذى بقيت منه بقية .

(٢٧) نزهة الألباء ص : ٢٥ .

(٢٨) انظر المدارس النحوية ص٢٣ .

وصغيره [٢٩] . وكان يرى أن عدى بن زيد فى الشعراء مثل سهيل فى الكواكب ، يعارضها ولايجرى مجراها ، ويعيب ألفاظه بأنها كانت نجدية [٣٠] .

وذكر يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، وأن أهل الكوفة يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيرا والنابغة ، وأخبر أن ابن أبى اسحاق كان يقول : أشعر الجاهليين المرقش ، وأشعر أهل الإسلام كثير [٣١] .

وقد فتح حديث هؤلاء العلماء عن الشعر والشعراء باباً واسعاً من أبواب التنقيب والتفتيش عن الأسرار التى تكمن فى شعر هؤلاء الشعراء ، مما له اتصال وثيق بالأصول البيانية والبلاغية .

فقد ذكر ابن سلام فى طبقاته – واصفاً هذا النشاط النقدى الذى يقوم على الملاحظات البيانية فى عهد الأمويين : «أن من قدم امرأ القيس احتج له فقال : ليس أنه قال مالم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ؛ ولأنه شبه النساء بالبيض ، وشبه الخيل بالعقيان والعصى وقيد الأوابد وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً . وأحسن الإسلاميين تشبيهاً ذو الرمة . ومن احتج للنابغة قال : كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، وكأن شعره كلام ليس فيه تكلف ، والمنطق على المتكلم أوسع منه على الشاعر ، والشاعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافى ، والمتكلم مطلق يتخير الكلام ، وإنما نبغ النابغة بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل أن يهتر» [٣٢] .

وإذا كانت ملاحظات العلماء – اللغويين والنحويين – على الشعراء قد كثرت فى هذا العصر فإن معظم هذه الملاحظات أبرزت كثيراً من الأصول والضوابط البلاغية وزادتها وضوحاً وجلاءً .

فمن ذلك مايروى أن الأصمعى كان يقرأ على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة، فلما بلغ إلى قوله يصف ناقته :

---

(٢٩) طبقات ابن سلام ص : ٣٠ .
(٣٠) الموشح ص : ٧٣ .
(٣١) طبقات ابن سلام ص : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣٢) يهتر : يضعف .

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريف صريف العقو بالمسد [٣٣]

قال له أبو عمرو : ما أضر عليه فى ناقته ماوصف ! فقال له : وكيف ؟ قال : لأن صريف الفحول من النشاط وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذلك تكلمت العرب . فرآه بسكوته مستزيداً ، فقال : ألم تسمع قول ابن مقروم الضبى :

كناز البضيع جمالية ... إذا مابغمن تراها كتوما [٣٤]

ونلاحظ أن أبا عمرو نظر بذوق الأديب وعقل العالم البصير ، وتنبه إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه الشاعر ، مما ترتب عليه الأضرار بوصف الناقة ، فقد خالف الشاعر الاستعمال اللغوى الوارد عن العرب ، فأخل ذلك بكلامه ، وهذا ما أدخله البلاغيون تحت ماعرف بمخالفة القياس اللغوى .

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وكلها تدل على أن نواة علوم العربية التى وضعت فى هذا العصر كان لها أثرها – الذى لاينكر – فى وضوح الكثير من أسرار التراكيب ، ووسائل جودة الأدب وروعته والتى عدت مقاييس وأصولاً لعلم البلاغة .

* * *

---

(٣٣) المقذوفة : المرمية ، النحض : اللحم ، الدخيس اللحم : الممتلئة العظم من اللحم ، البازل : المسن ، الصريف : الصياح من النشاط والفرح ، العقو : مايضم البكر وهو من الخشب ، المسد : الحبل من الليف .

(٣٤) الكناز : كثيرة اللحم وهو البضيع .



الفصل الرابع

المقاييس البلاغية فى أوائل العصر العباسى

رأينا – فيما سبق – أن الملاحظات البلاغية – فى عصر الأمويين – ازدادت وضوحاً وعمقاً من ذى قبل ، سواء عند الأدباء والنقاد أو فى عقول العلماء والمفكرين ، وعرفنا أن مرجع ذلك هو النشاط الواسع الذى شهده هذا العصر ، سواء فى ميدان الأدب والنقد أو فى مجال الدراسات القرآنية .

وفى أوائل العصر العباسى نجد أن الدولة الإسلامية ازدادت رقعتها اتساعاً ، وضمت أوطاناً وأمماً كثيرة ، متباينة فى الجنس واللغة والثقافة والحضارة ، واستطاعت تعاليم الإسلام السمحة أن تمزج بين العرب وبين هذه الأمم ، وتجعل منهم – جميعاً – أمة واحدة ، لافضل فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وقد أدى هذا الامتزاج ، ووقوف العرب على ثقافات هذه الأمم ومناهجهم فى التفكير أن نقلوا كثيراً من علومهم ومعارفهم إلى العربية ، فأثرت هذه الثقافات على الملكات العربية وعلى التفكير العربى ، ووجهت عقول العرب نحو التعمق والبحث ، سواء فيما يتصل بدينهم أو مايتصل بلغتهم وسائر شئون حياتهم . كذلك أقبل المسلمون من الشعوب المفتوحة على لغة القرآن الكريم يتعلمونها ، ويروضون ألسنتهم عليها ، ويقفون على أسرارها . ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى تحولت هذه الشعوب إلى عرب ، حاملين معهم ثقافاتهم القديمة .

وقد كانت هناك آثار بعيدة المدى لهذا الامتزاج ، فظهرت فى هذا العصر حركة علمية واسعة ، ونهض التعليم فى كل مكان ، وكانت الكوفة والبصرة قبلتين يؤمهما العلماء والطلاب من كل صوب وحدب ، وكانتا – أيضاً – مثالاً يحتذى لكثير من الأمصار الإسلامية ، وأخذت المساجد طابعاً جديداً فى هذا العصر ، ولم تعد بيوتاً للعبادة وأداء الصلاة فحسب ؛ بل كانت دوراً للعلم ، يجلس فيها الأساتذة ، يتحلقهم طلاب العلم ، يكتبون مايمليه عليهم الأساتذة ، أو يتلقونه عنهم ، وكان للمسجد دوره فى وجود طائفتين مميزتين من العلماء : طائفة المتخصصين ، فكان هناك المحدث أو المفسر أو الفقيه أو اللغوى أو المتكلم إلى غير ذلك من سائر العلوم والفنون ، وطائفة تنوعت ثقافتها تنوعاً واسعاً ، فكانوا يأخذون من كل فن بطرف ، وهؤلاء أطلق عليهم

اسم الأدباء أو المسجديين (١) .

فالثقافة أصبحت سمة بارزة من سمات هذا العصر ، لاتقتصر على الخاصة وحدهم ؛ بل صارت ملكاً للجميع . واهتم الناس باقتناء المكتبات التى تضم روائع الكتب من كل العلوم والفنون ، وفتح الخلفاء قصورهم وصدورهم للعلم والعلماء ، فكانوا يعقدون لهم المجالس المتخصصة فى فروع العلم المختلفة ، كما شجعوا على نقل علوم الأوائل إلى العربية ، فترجمت ثقافات الأمم المختلفة فى شتى المعارف والآداب .

وكان من أهم ملامح هذه الحركة العلمية الواسعة أن ظهر التخصص فى فروع العلم المختلفة ، فتعددت البيئات العلمية وتخصصت ، وتنوعت فروع الثقافة ، ونشطت كل بيئة فى داخلها لتغذى الفرع الذى تخصصت فيه ؛ مما أرسى قواعد كثير من العلوم المختلفة .

وإذا كان العصر الأموى هو عصر الجد فى جمع تراث العربية ، فإن هذا العصر هو عصر تسجيل ذلك التراث وتدوينه فى الكتب والمؤلفات ، فنقل إلى السطور ماكان يجرى على الألسنة ، وماكانت تحويه الصدور من ألوان المعرفة ، فجمع كلام السابقين والمعاصرين ونتاجهم فى كتب الأدب ومختارات الشعر ودواوين الشعراء ، وكما دونت تلك الآثار وضمنت الكتب لتصونها من عبث الأيام فقد دونت بين كثير من سطورها آراء الناظرين فيما تضمنت ، وكان هناك مؤلفون عمدوا إلى تسجيل آرائهم فى الأدب منفصلة فى كتب خاصة (٢) .

كذلك فإن كتابة التاريخ نمت فى هذا العصر نمواً كبيراً ارتبط بالسيرة النبوية التى استخلصت من الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة ، فسجلت أقوالهم فى التفسير والنظر فى كتاب الله ، كما سجلت – أيضاً أقوال التابعين حول آيات الذكر الحكيم .

وفى هذه الكتب والمصنفات التى خلفتها البيئات العلمية – على اختلافها – تناثرت الملاحظات البلاغية ، سواء ماجاء منها تعليقاً على الأدب والأدباء ، أو ماجاء حول النظر فى كتاب الله .

وقد وجد العلماء المتخصصون – فى كل بيئة من البيئات المختلفة – هذه الملاحظات تحت أعينهم فاستفادوا منها وتربوا عليها وأضافوا إليها من معارفهم ،

(١) البخلاء ص٤٧ ، وانظر البيان والتبيين ٢٤٣/١ ، ٥٨/٣ .
(٢) انظر دراسات فى نقد الأدب العربى ص ١٢٥ ، ١٣٥ .

فحددوا الكثير منها ، ووضعوه فى ضوابط ومقاييس ، وتناثرت على ألسنتهم وأقلامهم كثير من المصطلحات التى تبرز وضوح هذه المقاييس ، واستوائها ، وقد صاغوها صياغة استطاعوا بها أن يجعلوا هذه الضوابط فى خدمة ماتخصصوا فيه .

ولكى نقف على هذه الضوابط والمقاييس – فى أوائل العصر العباسى – علينا أن نتتبعها فى بيئاتها المختلفة ، والتى كان أبرزها : بيئة الأدب والنقد ، وبيئة الكتاب، وبيئة اللغويين والنحويين ، وبيئة العلوم الدينية ، ثم بيئة المتكلمين .

ويجدر بنا – فى هذا المقام – أن نقف وقفة قصيرة عند كل بيئة من هذه البيئات العلمية ؛ ليتضح مدى مساهمتها فى إبراز المقاييس البلاغية ، ومحاولة وضع حدود لها ، ولنرى إلى أى حد أخذت هذه الأصول والمقاييس شكل القواعد والمصطلحات .

أولاً : *بيئة الأدب والنقد* :

رأينا – فى عصر بنى أمية النشاط الأدبى والنقدى الذى كان له أثره الواضح على نمو الملاحظات البلاغية وكثرتها وعمقها .

وفى هذا العصر نجد أن هذ النشاط يزداد عمقاً واتساعاً ، تبعاً لتحضر العقلية العربية ، ووقوفها على ثقافات الأمم الأخرى ، واطلاعها على أساليب جديدة من الحياة وضروب من التفكير لم تعهدها من قبل .

ففى مجال الشعر نجده يزداد تقدماً وقوة ، وكان لابد أن يجارى هذه الحياة الجديدة فى ألونها ومعانيها وصورها ، ويسجل كل هذا فى أحسن صورة وأبهى ثياب.

وقد كان للصراع السياسى الدامى بين العباسيين والعلويين فى أوائل هذا العصر أثر كبير على نهضة الشعر وقوته ، فقد وقف بجانب العباسيين فريق كبير من الشعراء يدافعون عنهم ، وينكرون على العلويين حقهم فى الخلافة ، وقد كثر هؤلاء كثرة فائقة بما أغدق عليهم الخلفاء من بذل وعطاء ، أو أخافوهم الذل والهوان ، بينما انتصر للعلويين الثائرين لفيف من الشعراء يلهبون حماسهم ، ويثبتون حقهم فى الخلافة ، ويردون على العباسيين حججهم ودعواهم . وقد خلف هذا الصراع الطويل بين الفريقين ثروة هائلة من الشعر ضاقت بها كتب الأدب ، وتدل دلالة واضحة على حذق هؤلاء الشعراء لصناعتهم ، فقد كانوا يطيلون القول ، ويجيدون التعبير ، ويلتمسون الحجج والبراهين ليفحموا خصمهم ويردوا كيدهم فى نحورهم .

وكما وقف الشعراء جبهتين متحاربتين فى هذا الميدان السياسى ، كذلك كان

بين الشعراء أنفسهم إحن وعداوات ، فتهاجوا وتلاحوا وأكثروا من الهجاء والفحش حتى كفر بعضهم بعضاً ، وقد أثرى الأدب بهذا الباب ثراءً عظيماً .

وخلفاء بنى العباس – فى هذا العصر – كانوا يحتفظون بأعظم خصائص العروبة ، وهى حب الشعر ونقده وتذوقه ، فكانوا يشجعون الشعراء ويبذلون لهم وافر العطاء ويقربونهم من مجالسهم ، مما دفع الشعراء إلى الإجادة والتفنن فى معارض الكلام البليغة ، كما فتحوا لهم باباً واسعاً للمديح ، فخلع الشعراء عليهم من صفات التعظيم والإجلال ماوصلوا به إلى مرتبة القدسية ، وساير الخلفاء فى ذلك وزراؤهم وولاتهم .

وقد كان المثل الأعلى لشعراء هذا العصر – كما فى عصر بنى أمية – هو القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ينظرون فى ألفاظهما ومناحى القول فيها ، ويهتدون بهديهما سواء فى المعانى أو الألفاظ .

كذلك كان الشعر القديم مثالاً يحتذيه الشعراء وينسجون على منواله ، ويغوصون وراء معانيه الشريفة وصوره الرائعة وأخيلته المبتكرة ومافيه من محسنات طريفة ، حتى أتقن شعراء هذا العصر مسالك المتقدمين فى صناعة الشعر ، وتربوا على أذواقهم ووقفوا على طرائقهم فى التعبير .

وفى هذا العصر كانت البادية لاتزال تمد الحواضر بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة والفطرة المستقيمة ، كأبى البيداء وأبى حية النميرى ، وكان لهذا أثره على شعراء الحواضر .

على أن اللغويين جمعوا لغة العرب ووضعوا مقاييسها– كما أشرنا من قبل – وجمعوا كذلك الشعر الجاهلى والإسلامى ، ولم يتركوا قصيدة ولامقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودونوها وشرحوها ، وكان أهم الكتب التى جمعت الشعر فى هذه الحقبة : المفضليات للضبى ، والأصمعيات للأصمعى ، وأصبح كل ذلك أمام الشعراء ، فانقادت لهم اللغة وسلست معانيها وألفاظها ، وتحولت فى نفوسهم السليقة العربية ، وصاغوا أنفسهم عليها .

ومن ثم طرق الشعراء كل موضوعات الشعر القديمة ، ولكنهم عرضوها فى صورة زاهية متعددة الألوان ، ولم يكتفوا بهذا ، بل حلقوا فى آفاق جديدة وطرقوا من المعانى المستحدثة ما أملته عليهم بيئتهم الجديدة .

وقد كان كل شاعر يختار لنفسه المذهب الشعرى الذى يرضى عنه ، ويعتقد أنه

يرضى أذواق جمهوره من العلماء وغيرهم ، وعلى الرغم من تعدد المذاهب إلا أنها دارت حول مذهبين :

الأول : نسب إلى أبى العتاهية ، وكان يعتمد على الأسلوب اللين واللفظ الخفيف ، والجرس السهل الذى تأنس له قلوب العامة .

الثانى : نسب إلى مسلم بن الوليد ، وكان يعتمد على جزالة اللفظ وفخامته ، وجلال الأسلوب وضخامته . وقد عنى أصحاب هذا المذهب بالمحسنات التى تضفى على الكلام رونقاً حسناً ، حتى إن مسلم بن الوليد كان يجعل هذه المحسنات جزءاً لايتجزأ من جوهر شعره ، وأطلق عليها لأول مرة اسم «البديع» ، هذا إلى جانب عنايتهم بما عنى به القدماء من تشبيهات رائعة واستعارات حسنة رائقة وجناسات ومقابلات ، إلى غير ذلك من الألوان التى تجعل الكلام عالى الدرجة ، وتحله المرتبة الرفيعة .

وقد كان هذا النشاط الواسع للشعر ، والاحتذاء والنظر من جانب الشعراء ، سواء لألفاظ القرآن الكريم وأساليبه ، أو للشعر القديم دافعاً جعل الشعراء يوازنون بين أشعارهم ويقيسونها على أساليب القرآن الكريم أو الشعر القديم سواء فى المعانى أو فى طرائق التعبير عنها .

وقد كانت المقاييس البلاغية تبرز وتتضح من خلال هذه الموازنات ، وبخاصة وأن الشعراء كانوا ذوى عقول ناضجة ، ولهم اتصال دائم بالعلم والعلماء ، يسمعون منهم ويناقشونهم فى مسائل اللغة والشعر والمقاييس التى تقوم عليها صناعة الأدب .

وإذا تتبعنا النشاط الشعرى فى هذه الحقبة استطعنا أن ندرك مدى مساهمة الشعراء واهتمامهم بصناعتهم فى ميدان البحث البلاغى ، بل إننا نرى وضوح المقاييس البلاغية فى عقولهم ، وأبعد من هذا نجد أن المصطلحات البلاغية تجرى على ألسنتهم ، فمن ذلك ماروى عن بشار بن برد من قوله : مازلت أروى فى بيت امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالى

إذ شبه شيئين بشيئين ، حتى صنعت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (٣)

فوضوح التشبيه فى ذهن بشار ونوعه ، وأنه تشبيه شيئين بشيئين ، يدل - بما لايدع مجالاً للشك - على أن الشعراء كانوا على علم ودراية بهذه المقاييس ، وأنهم كانوا يهتدون بها فى أشعارهم ، وإن كان بشار يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين . ومثل هذا كثير مما تمتلئ به بطون الكتب التى اهتمت بالأدب وروايته فى هذه الحقبة.

وفى مجال النقد فى هذا العصر فقد اتسعت دائرته اتساعاً كبيراً ، فتنوعت مذاهبه ، وأصبح حراً طليقاً يتناول كل النواحى التى تتصل بالعمل الأدبى ، فحيناً يوجه الناقد همه إلى المعنى فيعرض له من ناحية صدقه أو كذبه ، وصحته أو خطئه، وجدته أو تقليده إلى غير ذلك من المسائل التى ترتبط بالمعنى ، وحيناً آخر يقف الناقد مع الأسلوب ليبين قوته أو ضعفه ووضوحه أو غموضه ، ومافيه من أسباب الحسن والكمال، أو القبح والرداءة وغير ذلك مما يعرض للأسلوب من صفات ، وحيناً يعرض لفنون الشعر وبيئة الشاعر وغيرهما من النواحى التى تتصل بالعمل الأدبى وتؤثر فيه.

وقد تعددت مظاهر النقد واتجاهاته فى هذا العصر ، كل على حسب ثقافته ، فهناك نقد الألفاظ ، ونقد للغة الشعر مايستحسن منها ومايستنكره ، وهناك نقد نحوى يحصى على الشعراء أخطاءهم فى النحو والإعراب ، وهناك نقد عروضى ، ونقد دينى أخلاقى ، وهناك نقد للصور التى هى قوام العمل الأدبى ، فاهتم بوصف الخيال والاستعارة والكناية ، ونقد تلك الضروب إذا كان فيها بعد يسلم إلى التعقيد ، وهناك نقد اهتم بشخصية الأديب ، ومدى مافيها من ابتكار وأصالة ، أو اتباع وتقليد .

ولم يقف النقد فى هذا العصر عند حدود دائرة الشعر؛ بل اتسع ليضم إلى جانب نظرته للشعر نظرة إلى الألوان الأدبية الأخرى من كتابة وخطابة ورسائل .

وقد شارك فى هذا الميدان الواسع الخلفاء والأمراء والوزراء وأثرياء القوم ومن دونهم من الطبقات كما شارك فيه العلماء على اختلاف علومهم ومعارفهم ، حتى الشعراء أنفسهم كانوا يدلون بدلائهم فى هذا الميدان .

وقد كان النقاد من اللغويين والرواة فى هذا العصر هم قضاة الشعر وصيارفة الكلام بما لهم من ذوق مرهف وبصر واسع بما تقوم عليه صناعة الأدب ومحسناته ، حتى قال الخليل بن أحمد للشعراء : «إنما أنتم تبع لى ، وأنا سكان السفينة إن قرظتكم

---

(٣) الأغانى ١٩٦/٣ .

ورضيت قولكم نفقتم ، وإلا كسدتم» [٤] .

وقد كان الشعراء يثقون فى هؤلاء القضاة من اللغويين والرواة ، ويستجيبون لأحكامهم ، بل ويحتكمون إليهم فيما ينشدونه من شعر قبل عرضه على الناس . وقصة مروان بن أبى حفصة مع يونس بن حبيب مشهورة [٥] .

وقد تمخضت ملاحظات النقاد – من العلماء والرواة وغيرهم – عن كثير من الآراء والمقاييس البيانية التى أضحت أسساً قام عليها علم البلاغة عند جمعه وتدوينه .

فمن ذلك مايروى أن بشار بن برد أنشد خلفا الأحمر وأبا عمرو بن العلاء قصيدته فى سلم بن قتيبة ، فلما وصل إلى قوله :

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

قال له خلف : يا أبا معاذ ، لو قلت مكان : «إن ذاك النجاح فى التبكير» ، «بكرا فالنجاح فى التبكير» كان أحسن ، فأجابه بشار بقوله : «إنى بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : إن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : بكرا فالنجاح كان هذا من كلام المولدين ، ولايشبه ذلك الكلام ، ولايدخل فى معنى القصيدة [٦] .

وسلوك هذه الطريقة التى أرادها بشار لشعره – كما يقول الخطيب القزوينى – شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ، فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء ، وهم من فحولة هذا الفن إلا للطف المعنى لذلك وخفائه»[٧] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المقاييس البلاغية – التى تقوم عليها الأعمال الأدبية وتنقد على أساسها – كانت واضحة فى عقول القوم ، وبخاصة النقاد من العلماء والرواة فدونوها مؤلفاتهم ، وتناثرت فى هذه المصنفات التى خلفتها هذه البيئة وحفظها لنا الزمن ، ومن أبرزها : فحولة الشعراء للأصمعى ، وطبقات الشعراء لابن سلام .

ثانياً : بيئة الكتاب :

تطورت الكتابة فى هذا العصر تطوراً ملحوظاً ، وتنوعت من كتابة علمية إلى كتابة فلسفية وتاريخية وأدبية ، ثم كتابة الدواوين . كما أصبحت فناً له أصوله

(٤) الأغانى ١٦/١٧ .
(٥) المرجع السابق ٨٨/١٠ ، وانظر الموشح ص٢٥٨ .
(٦) الأغانى ١٩٠/٣ . ودلائل الإعجاز ص١٨٧ .
(٧) الإيضاح ٤٨/١ .

وقواعده ورجاله الذين تخصصوا فيه .

وقد تهيأ لهذا الفن من العوامل والأسباب ما أدى به إلى هذا التطور والازدهار . وكان من أبرز هذه العوامل حركة الترجمة والنقل التى شهدها هذا العصر ؛ وبخاصة نقل كتابى أرسطو فى الخطابة والشعر ، ثم تعرب الأمم التى دخلت الإسلام ، فقد أخذت العقلية العربية تتغذى بهذا الغذاء الجديد من ثقافات هذه الأمم ، ثم ترتوى لتثمر بلغتها – لغة القرآن الكريم – أسلوباً مميزاً ، وطرائق جديدة فى الكتابة لم تكن معهودة من قبل ، وأصبح هذا الأسلوب الجديد يحمل صبغة الدولة العباسية الجديدة بكل جوانب الحياة فيها . وقد أطلق على هذا الأسلوب اسم «الأسلوب المولد» (٨) .

وقد تميز هذا الأسلوب باستحداث طرائق تعبر عن المعانى التى جدت فى هذا العصر ، دون أن يخل ذلك بالطابع اللغوى أو الأسلوب المعروف عن العرب ، كما تميز بالبعد عن الألفاظ الخشنة الجافة التى تلفظها الأذواق المتحضرة ، وكذا البعد عن الألفاظ الساقطة التى يكثر دورانها على ألسنة العامة من الناس ، وأهم ماتميز به هذا الأسلوب الجديد هو الحرص على البلاغة والفصاحة ، فالعناية بفصاحة الألفاظ ، وجزالتها ومطابقة الكلام لمقتضى الحال كان أهم ماشغل الكتاب فى هذا العصر ؛ ليخرج أسلوبهم على صورة تلذ الأسماع وتطرب القلوب ، وتهتز لها الأفئدة .

وقد ساهمت هذه البيئة فى وضوح المقاييس البلاغية ، ومحاولة وضع ضوابط لها مساهمة فعالة وكان لها أثرها الواضح ، ودورها الذى لايجحد فى نشأة هذا العلم ، وكانت جهود الكتاب التى وصلوا إليها فى هذا المجال إرهاصاً لاستقلال هذا العلم وتميزه عن العلوم الأخرى ؛ وبخاصة كتاب الدواوين .

فقد كان كتاب الدواوين – فى هذا العصر – يعنون بكتابتهم عناية فائقة ، وكانوا يتعلمون أصول هذه الكتابة قبل التحاقهم بوظائفهم ، حتى تحولت إلى صناعة تقوم على أصول وضوابط ، فقد كان يعقد لمن يريد أن يلتحق بأحد هذه الدواوين امتحان قاس ، فمن وجد عنده البصر بهذه الصناعة ، وكان عنده الإلمام التام للوسائل التى تضفى على الكلام الرونق والروعة من أصول بلاغية ، ومقاييس بيانية ، وقدرة على التعبير بعبارات وأساليب فصيحة فقد فاز بالالتحاق بهذه الدواوين .

ومن ثم فقد تحولت هذه الدواوين إلى ميادين واسعة لتعليم أصول البلاغة وفن القول ، وكثر حديث هؤلاء عن الضوابط والمقاييس البلاغية ، وبرزت فى بيئتهم كثير من هذه المقاييس ، وحاولوا وضع حدود وتعريفات للكثير منها .

(٨) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٠ .

فالجاحظ يشهد لهذه الطائفة بالتفوق فى صناعة الكلام ، والبصر بفنونها وأصولها فيقول : «لم أر – قط – أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ، ولاساقطاً سوقياً» (٩) كما نوه بتفردهم بهذه الصناعة وأنهم أهلها دون سواهم (١٠) .

ومن ألمع كتاب هذا العصر عبدالله بن المقفع ، وهو فارسى الأصل ، عربى النشأة ، وكان فصيح المنطق ضليعاً فى أدب العرب ولغتهم ، ويقول عنه ابن سلام : «سمعت من مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد، ولاأجمع ، ولاكان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولاأجمع» (١١) .

ويعد ابن المقفع من الطبقة الأولى من الكتاب ، وقد استخلص من الأسلوب الفارسى والعربى طريقة فى الكتابة عرفت به ، وأخذت عنه ، وأهم مايميز هذه الطريقة ، تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلام ، وتوخى السهولة ، والعناية ، والزهد فى السجع . وقد روى أنه قال لبعض الكتاب : إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعاً فى نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العى الأكبر . وقال الآخر : عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة» (١٢) .

وقد برزت عند ابن المقفع كثير من المقاييس والضوابط البلاغية ؛ بل جرى على لسانه وقلمه كثير من المصطلحات التى لم يضف إليها البلاغيون شيئاً زائداً عما عناه . فقد «سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الإشارة ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جواباً ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها مايكون شعراً ، ومنها مايكون سجعاً وخطباً ، ومنها مايكون رسائل ، فعامة مايكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى . والإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين ، وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل ، والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته ، فقيل له : فإن ملّ السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلاتهتم لما فاتك من رضا

---

(٩) البيان والتبيين ١/١٣٧ .
(١٠) المرجع السابق ٤/٢٤ .
(١١) مراتب النحويين ص٢٨ .
(١٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص٢١٧ .

الحاسد والعدو ، فإنه لايرضيهما شئ ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شئ لاتناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شئ لاينال» (١٣) .

وبالنظر المجرد فى هذا النص الذى نقل عن ابن المقفع نلمس وضوح القاعدة البلاغية ، والبصر بها وفهمها مما يدل على خصب هذه البيئة فى إنماء الدرس البلاغى . فمما نلمسه فى هذا النقل مما يمس الدرس البلاغى مايلى :

(١) حاول ابن المقفع أن يضع تعريفاً للبلاغة ، فقال إنها «اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة» ولكنه أبرز أهم مايصف الكلام بصفة البلاغة ، وهو الإيجاز فحدها به .

(٢) هذا التقسيم لفنون الكلام من الاحتجاج والجواب والشعر والنثر والخطب والرسائل، وإشارته تدل على أنها وجوه من الكلام يختص كل منها بخصائص بلاغية لاتجرى مع سواه ، إلا أن الوحى والإشارة إلى المعنى يجرى فى كل الوجوه .

(٣) حديثه عن الإيجاز ، وبيان شرفه فى عرض المعانى ، وكذا الإطالة فى الكلام ، فالإيجاز هو البلاغة ، والإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال .

(٤) تنبيهه إلى ماينبغى أن يستهل به الحديث ، وليكن فيه دليل على حاجة المتكلم ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته .

(٥) مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فإذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلاتهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لايرضيهما شئ ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا كل الناس شئ لاتناله .

فهذه مقاييس وضوابط تتصل بالبحث البلاغى وترتبط بالقاعدة البلاغية ارتباطاً مباشراً مما يدل على وضوح هذه المقاييس وتطورها إلى حد القواعد وإبراز المصطلحات عند ابن المقفع .

ومثل ابن المقفع كثير من الكتاب الذين أثروا الدرس البلاغى ثراءً عظيماً كجعفر بن يحيى البرمكى ، فقد سئل مرة ، ما البيان ؟ فقال :

أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولاتستعين عليه بالفكرة ، والذى لابد له منه أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً عن

(١٣) البيان والتبيين ١/١١٥ ، ١١٦ .

الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل» (١٤) .

فقد أنصب من هذا التعريف معان كثيرة نجدها فى «البيان والتبيين» ، إذ نرى الجاحظ من حين إلى حين يوصى بالوضوح وينهى عن التكلف والتعمية والتعقيد والاستغلاق (١٥) .

وبالجملة فقد أسهمت هذه البيئة بنصيب كبير فى إبراز القواعد البلاغية ، وأصبحت وكأنها بيئة تخصصت فى تدريس أصول البيان وقواعد الفصاحة والبلاغة .

ثالثاً : بيئة اللغويين والنحويين :

أشرنا – فيما سبق – إلى أن علوم العربية وضعت نواتها فى العصر الأموى ، وأن علماء اللغة والنحو هبوا مخلصين لجمع مواد اللغة وضبط شاردها وواردها . وعرفنا أيضاً كيف أثر نشاط هؤلاء العلماء على الأدب والنقد ، ومن ثم على كثرة الملاحظات البلاغية ونموها .

وفى أوائل العصر العباسى كانت الحاجة أشد إلى استكمال مابدأه العلماء فى العصر الأموى ، فقد أقبلت شعوب الأمم المفتوحة على لغة القرآن الكريم يتعلمونها ويتدارسونها ، وكان لابد من وضع مواد اللغة وضوابطها أمام هؤلاء الأعاجم ، كما أن اللحن زاد وفاض فى هذا العصر الذى كثر فيه اختلاط العرب بالعجم ، وكثر على ألسنة العامة والخاصة ، فضعفت السليقة العربية ، وغشيتهم المدنية والحضارة ، فكان لابد – إزاء هذا كله – أن تحفظ اللغة وتوضع لها الضوابط الدقيقة التى تصونها وتحفظها من العبث والضياع .

وقد كثر أعلام اللغة والنحو فى هذا العصر كثرة فائقة ، وبرز نشاطهم اللغوى والنحوى بروزاً جعل لهذه الطبقة من العلماء طابعاً مميزاً فى الجانب الذى تخصصوا فيه ، وكان من أعلامهم – فى هذا العصر – أبوزيد الأنصارى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وابن الأعرابى وغيرهم من اللغويين ، والخليل وسيبويه والكسائى والفرائى ، وغيرهم من النحويين .

وقد كان تراث هؤلاء الذى خلفوه خير شاهد على جهدهم الصادق فى خدمة اللغة العربية وحفظها ، ولم يكن فضلهم قاصراً على جمع مواد اللغة أو وضع القواعد النحوية فحسب ، ولكن كان لهم – أيضاً – فضل كبير فى جمع أشعار العرب

---

(١٤) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٥) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٣ .

وأنسابهم، وضبطها وتدوينها ، ووضع هذا كله أمام الكتاب والشعراء ، ينهجون نهجه ويقتفون أثره .

وهؤلاء العلماء – فى نشاطهم اللغوى والنحوى – لم يقفوا عند حدود المواد اللغوية وجمعها ، أو الصياغة الشكلية للقواعد ؛ ولكنهم تعرضوا للكثير من المعانى البلاغية وأقيستها ، بل كان منهم أساتذة تخرج على أيديهم أعلام الفصاحة والبلاغة فى هذا العصر ، من أمثال ثور بن زيد الذى تتملذ عليه ابن المقفع ، ولقنه كثيراً من حدود الفصاحة والبيان .

وقد برزت فى هذه البيئة كثير من المقاييس والمصطلحات البلاغية ، وحفظها لنا تراث هؤلاء ومصنفاتهم ، فشرحهم للأشعار وتفسيرها ، والتعليق على الأساليب ، وماقاموا به من موازنات بين الشعراء ونظرهم فى التراكيب العربية ، كل هذا جعلهم يدركون مرامى هذه الأساليب والعبارات ، وماتحويه من أسرار ولطائف ، وقد أفاضوا فى هذه الجوانب بعقل العالم وذوق البصير ، وصاغوا كل ذلك صياغة تدل على فهمهم لهذه الأسرار ، ووضعوا لها كثيراً من الضوابط التى تجعل جهدهم واضحاً فى هذا الميدان .

ويكفى أن نقف – فى لمحة خاطفة – مع كتاب واحد مما خلفته هذه البيئة من تراث ضخم ؛ لندرك إلى أى حد كانت المسائل البلاغية موضع اهتمامهم ، فتناثر الكثير منها فى كتبهم أثناء شرحهم وعرضهم للقواعد اللغوية أو النحوية .

فإذا تصفحنا كتاب سيبويه – الذى جلب معظم مادته من إملاءات الخليل – نجده يعرض للكثير من المسائل التى تتصل بخصائص الأسلوب ، والتى قام عليها ماعرف – فيما بعد – بعلم المعانى .

فمن المعروف أن الخليل اعتمد فى إقامة صرح النحو على مادتين أساسيتين ، هما : القياس والعلل . أما القياس فيتضح فى ضبطه للقواعد وإطرادها ، وأما العلل فيقول عنها : «إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع الكلام ، وقام فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذاك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة أخرى فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء ، عجيبة النظام والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق ، أو البراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شئ منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، وجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك الفعل للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل

الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك ، فإن سنح لغيرى علة أخرى لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته للمعلول فليأت بها» (١٦) .

ومن يتصفح كتاب سيبويه – فيما نقله عن الخليل – يجد أن الخليل كان يقوم بتحليل العبارات والتماس العلل والمعانى التى تكمن وراء القاعدة النحوية، فأثار الكثير من المعانى البلاغية فى كثير من بحوثه ، فمثلاً نراه فى حذف الفعل وجوباً فى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (١٧) يبين السر فى حذف الفعل وجوباً ، فيقول : «قد جاءت كلمة (والمقيمين الصلاة) بالنصب ، ولو كانت معطوفة على ماقبلها لكان حقها الرفع ، ولكنها منصوبة بفعل محذف ، قصدا للثناء والتعظيم ، كأنه قيل : اذكر أهل ذاك ، واذكر المقيمين ، وهذا شبيه بقولهم : إنا بنى فلان نفعل كذا ؛ لأنهم لايريدون أن يخبروا من لايدرى بأنهم من بنى فلان ، وإنما يذكرون ذلك افتخاراً» (١٨) .

ويعلق على قول أمية بن أبى عائذ :

ويأوى إلىَّ نسوة عطل ... وشعثا مراضيع مثل السعالى

فيقول : «إنه نصب شعثا بإضمار فعل لايصح إظهاره ؛ لأن ماقبله دل عليه ، فوجب حذفه ، على مايجرى عليه تعبيرهم فى المدح والذم» (١٩) .

وفى حذف ضمير الشأن فى قول ابن صريم اليشكرى :

ويوما توافينا بوجه مقسم ... كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الآخر :

ووجه مشرق النحر ... كأن ثدياه حقان

يعلل الخليل حذف الضمير فى البيتين بقوله : «لأنه لايحسن فيه إلا الإضمار ،

(١٦) الإيضاح فى علل النحو ص٦٥ .
(١٧) النساء . ى : ١٦٢ .
(١٨) الكتاب لسيبويه ١٤٩/١ .
(١٩) المرجع السابق – الموضع السابق .

وهذا يشبه قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجى عظيم المشافر (٢٠)

ومثل هذه اللفتات التى نراها فى كتاب سيبويه تتصل بالدرس البلاغى اتصالاً وثيقاً فهذه المعانى التى نبه إليها الخليل وارتباطها بالمقامات والأحوال ، وبناء التراكيب على ماتقتضيه تلك الأحوال ، هى المسائل التى قام عليها علم المعانى .

والواقع أن سيبويه - سواء فيما أملاه عليه الخليل ، أو ما أتى به من عقله وفكره - كان صاحب حس مرهف ، دقيقاً فى فهم الأساليب العربية واستعمالاتها ، مدركاً لما ينطوى وراء هذه الاستعمالات من الأسرار والمعانى البيانية ، فأكثر من تحليله للعبارات ، حتى تتفق مع مايراه لألفاظها من إعراب . ومن ثم فقد عرض للكثير من خصائص الأساليب ، مما له ارتباط وثيق بالدرس البلاغى ، كالتقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير ، والإظهار والإضمار ، وما إلى ذلك من المسائل الكثيرة التى أثارها فى الكتاب .

ولم تكن هذه التحليلات - التى أثرت المسائل البلاغية وبحوثها - وقفاً على كتاب سيبويه ، ولكنها كانت طابعاً عاماً لهذه البيئة اللغوية والنحوية ، فمن يتصفح الكتب والمصنفات التى خلفتها هذه البيئة - على اختلاف مناهجها وأهدافها - يدرك - بما لايدع مجالاً للشك - بصر هؤلاء العلماء بخصائص الأساليب وأسرارها ، وفقههم للضوابط التى يقوم عليها البيان وبلاغة الكلام .

وقد كثرت مناقشة هؤلاء العلماء - كما سبق أن أشرنا - للشعراء والأدباء ومراجعتهم لهم ؛ مما أثرى المسائل البلاغية وأنضجها ، فجرى على ألسنتهم وأقلامهم كثير من المصطلحات البلاغية ، كالتشبيه ، والاستعارة، والكناية، والتعريض، وغيرها من المصطلحات .

فمن ذلك مايرويه أبوحاتم السجستانى أنه قال للأصمعى : أبشار أشعر أم مروان ابن أبى حفصة ؟ فقال : بشار أشعرهما ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن مروان سلك طريقاً كثر سلاّكه ، فلم يلحق بمن تقدمه ، وأن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد ، فانفرد به وأحسن فيه ، وهو أكثر فنون الشعر ، وأقوى على التصرف ، وأغزر وأكثر بديعاً ، ومروان آخذ بمسالك الأوائل» (٢١) ، وقد سئل الأصمعى عن البليغ فقال :

---

(٢٠) المرجع السابق ٢٨١/١ .

(٢١) الأغانى ٦٧/٨ .

«البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر» (٢٢) ، وقد عاب شعر الحطيئة ، فقال : «الحطيئة عبد لشعره» ، حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه» (٢٣) .

ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن مرحلة التأليف البلاغى – منذ نشأتها – استفادت – إلى حد كبير – بجهود هؤلاء اللغويين والنحويين ، فمن يتصفح كتاب «البديع» لابن المعتز – على سبيل المثال – يجد أثر هذه البيئة واضحاً فى الكتاب ، فهو يذكر الخليل ابن أحمد فى صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة ، يقول فى التجنيس : «قال الخليل بن أحمد : الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ، ومنه ماتكون **الكلمة تجانس الأخرى فى تأليف حروفها ومعناها»** (٢٤) .

بل إننا نرى إمام البلاغيين الشيخ عبدالقاهر الجرجانى يتتلمذ على تراث هؤلاء العلماء ، ومن يقرأ كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يدرك مدى استفادة الشيخ وتأثره بأعلام هذه البيئة أمثال : الخليل وسيبويه والأصمعى وأبى عبيدة والكسائى وغيرهم ، فقد كان يستشهد بأقوالهم ، ويسوق آراءهم فيما يعرض له من أبواب البلاغة ومسائلها ، بل إن نظريته فى النظم التى أفرد لها كتابه : دلائل الإعجاز أقامها على أساس نحوى استمد روافده من ومضات هؤلاء البلاغية ، ونظراتهم الثاقبة فى خصائص التراكيب ، وماتحويه من النكت واللطائف (٢٥) .

رابعاً : بيئة العلوم الدينية :

سبق أن أوضحنا أن كثيراً من العلوم الدينية وضعت نواتها فى عصر بنى أمية ، وأن هذا العصر شهد نشاطاً ملحوظاً فى مجال الدراسات القرآنية بصفة خاصة .

وفى أوائل هذا العصر كانت هناك عناية جادة بتصنيف العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى الشريف ، فقد كثر التصنيف فى علم الحديث ، وكان المصنفون يوزعون الأحاديث على أبواب الفقه غالباً ، وأهم كتاب وصلنا فى هذه الطريقة هو «الموطأ» للإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ، فقد رتبه على أبواب الفقه ، ثم وزع على كل باب مايتصل به من الأحاديث .

---

(٢٢) البيان والتبيين ١٠٦/١ .
(٢٣) المرجع السابق ٢٠٦/١ .
(٢٤) البديع ص : ٣٧ .
(٢٥) انظر دلائل الإعجاز ص: ٨٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٧ .

وكانت هناك طريقة ثانية تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، وزع فيها المصنفون الأحاديث على حسب رواته من الصحابة – رضوان الله عليهم – وكان أشهر أصحاب هذه الطريقة الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، فى مسنده .

وهناك طريقة ثالثة تقوم على توزيع الأحاديث وترتيبها حسب المعانى والموضوعات ، بغض النظر عن أبواب الفقه أو رواة الأحاديث ، وكان من أشهر أتباع هذه الطريقة عبدالله بن أبى شيبة (ت٢٣٥هـ) ، والإمام البخارى (ت٢٥٦هـ) .

ولانعدم فى إشارات أصحاب هذه الطرق الثلاثة فى رواية الحديث لمحات بيانية ، فقد كانوا يفتشون فى ألفاظ الحديث ، ومارترمى إليه من دلالات ومعان أو مجازات وكنايات قبل وضعها فى أبوابها المتعلقة بها ، بل إن أصحاب الطريقة الثالثة كان اهتمامهم بهذا الجانب أكثر وأعمق ، وعنايتهم بالألفاظ وماتدل عليه واضح من طريقتهم التى سلكوها . فعبد الله بن أبى شيبة يقول عنه المقريزى إنه: «تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف» [٢٦] .

وقد اندس بين رجال الحديث كثير من أتباع الضلالة والهوى ، فتقولوا على الرسول وأدخلوا فى الحديث كثيراً من الزور والبهتان ، فعمى الحق من الباطل على كثير من الناس .

وقيض الله من أئمة الحديث من قام بتمحيص الأحاديث ونقدها ، وكان أسبقهم إلى ذلك إسحاق بن راهويه (ت٢٣٨هـ) . وقد كان هذا التمحيص – إلى جانب عنايته برواة الحديث والتعرض لهم بالجرح أو التعديل – يعنى بلفظ الحديث عناية فائقة ، سواء مايتفق منه ومبادئ الدين الحنيف وما لايتفق ، ومايتمى لبلاغة الرسول – ﷺ – ومالاينتمى إليها . وهذا النقد للأحاديث بهذه الطريقة أبرزت فى عقول هؤلاء العلماء كثيراً من المسائل التى تقوم عليها بلاغة اللفظ وفصاحته .

كما قام كثير من لغوى هذا العصر بالعناية بلفظ الحديث ، فشرحوا غريبه ، ونشأ علم سمى «علم غريب الحديث» ، وكان على رأس هؤلاء الشراح أبوعبيدالله القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) .

وازدهرت فى هذا العصر دراسة الفقه ، واعتمد الفقهاء على مصادره الأربعة المشهورة : القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ثم القياس والاجتهاد . وقد بذل علماء الفقه جهوداً جبارة فى صياغة الأحكام حتى لم يتركوا صغيرة ولاكبيرة

---

(٢٦) خطط المقريزى ١٤٣/٤ .

إلا وضعوا لها الحكم الشرعى ، فإن وجدوه فى القرآن أو الحديث فذاك ، وإلا قاسوا مالم يقع على ماوقع فى العهد الأول ، وإلا اجتهدوا باحثين عن نص قرآنى أو حديث نبوى يهتدى به فى اجتهادهم ، وكثرت المذاهب الفقهية فى هذا العصر ، وكان أشهرها وأكثرها ذيوعاً : مذهب الإمام مالك بن أنس ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل .

وقد كثرت الخلافيات فى بعض المسائل الفقهية ، وكان هذا الخلاف يقوم - فى معظمه - على اختلافهم فى فهم النصوص وتأويلها بما يناسب مذهبهم ، مما جعلهم ينعمون النظر والبصر فى النصوص القرآنية ونصوص الحديث النبوى الشريف، وماترمى إليه هذه النصوص من عموم أو خصوص أو حصر أو مجاز أو كناية ؛ ليتسنى لهم بناء القاعدة الفقهية عليها .

وقد انتهت هذه الروح العلمية الأصيلة فى تقنين الأحكام الشرعية إلى وضع علم «أصول الفقه» ، فقد استطاع الإمام الشافعى أن يضع كتابه الملقب بـ«الرسالة» ، وأخرج هذا العلم جامعاً ، ونسب إليه كنسبة العروض إلى الخليل ، والنحو إلى سيبويه ، وقامت طائفة من العلماء تخصصوا فى هذا الجانب ، وغلب عليهم ، وعرفوا باسم «الأصوليين» أو «علماء الأصول» ، وكانت عناية هؤلاء بالنظر فى الأدلة والنصوص التى تقوم عليها الأحكام أكثر من عناية الفقهاء أنفسهم ؛ إذ اهتم هؤلاء بتمحيص الأدلة بعد النظر فيها وتقديمها شراباً مصفى للفقهاء .

وإذا انتقلنا إلى التصنيف فى التفسير ، وجدنا أن هذا العصر يزخر بمصنفات كثيرة تستمد مما أثر عن الرسول - ﷺ - وأصحابه والتابعين ، فقد كان التفسير يُعد باباً من الأبواب التى اشتمل عليها علم الحديث ، ومن أشهر المفسرين فى هذا العصر سفيان بن عيينة وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة وغيرهم (٢٧) .

وهذه الطبقة من المفسرين نجد عندها بذور التفسير بالرأى والاجتهاد ، والاحتكام إلى لغة العرب فى ألفاظها ومعانيها وأساليبها وطرائقها فى التعبير ، ونلمس فى تفاسيرهم للكثير من الآيات بصرهم بمواقع الكلام ومسائل البلاغة ، فعلى الرغم من أن معظم كتب التفسير فى هذه الحقبة لم تصلنا وضاعت فيما ضاع من المصنفات إلا أننا نلمس هذا فيما روى عنهم ، وفيما حفظه لنا الزمن من تراثهم .

ولانبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن «معانى القرآن» للفراء (ت٢٠٧هـ) دليل واضح

---

(٢٧) الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٩٠ .

على نشاط المفسرين فى هذا العصر ، بل لقد عده الكاتبون أول تفسير جامع لكل آيات القرآن الكريم مرتباً على وفق ترتيب المصحف (٢٨) . وشهد له أبوالعباس ثعلب بالفضل والسبق فقال عنه : «لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه»(٢٩) .

وقد عنى الفراء فى تفسيره بشرح آيات القرآن الكريم شرحاً اهتم فيه بتأويل العبارات وخصائص التراكيب ؛ ولذا فإن هذا التفسير كثرت فيه الإشارات والمصطلحات البلاغية ، فهناك إشارات إلى التشبيه والاستعارة والكناية ، وحديث عن التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب ، وكثير من المعانى التى تنطوى عليها آيات الذكر الحكيم .

والحق أن الكتاب كله ينطق بهذه الحقيقة ، ومن يطالع هذا التفسير يجد أن كل صفحة من صفحاته لاتخلو من إشارات بلاغية تأخذ صفة البحوث التى خلصت للدرس البلاغى .

ويكفى أن أشير إلى مثال واحد من هذا الكتاب – حتى لايطول بنا القول – ولكى يتضح منهج الفراء فى فهمه وعرضه للمسائل البلاغية . ففى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ (٣٠) يقول : «أضاف المثل إلى الذين كفروا ، ثم شبههم بالراعى ، ولم يقل : كالغنم . والمعنى – والله أعلم – مثل الذين كفروا كمثل البهائم التى لاتفقه مايقول الراعى أكثر من الصوت ، فلو قال لها : ارعى أو اشربى لم تدر مايقول لها ، فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن ، وانذار الرسول ، فأضيف التشبيه إلى الراعى ، والمعنى – والله أعلم – فى المرعى ، وهو ظاهر فى كلام العرب ، أن يقولوا : فلان يخافك كخوف الأسد ، والمعنى كخوفه الأسد ؛ لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف ... وفيها معنى آخر : تضيف المثل إلى الذين كفروا ، وإضافته فى المعنى إلى الوعظ ، كقولك : مثل وعظ الذين كفروا وواعظهم كمثل الناعق ، كما تقول : إذا لقيت فلاناً فسلم عليه تسليم الأمير، وإنما تريد به كما تسلم على الأمير» (٣١) .

ففى هذا النص ندرك ذوق الفراء وعقله وعلمه وبصره بمسائل البيان وأسراره،

(٢٨) ضحى الإسلام ١٤١/٢ .
(٢٩) الفهرست ص٩٩ .
(٣٠) البقرة . ى : ١٧١ .
(٣١) معانى الفراء ٩٩/١ ، ١٠٠ .

فهو يدرك التشبيه المقصود فى الآية القرآنية الكريمة ، ويفطن إلى السر فى أن كان المشبه به هو راعى الغنم وليس الغنم ، مما يحقق للتشبيه إصابة الغرض ، ويضفى عليه من الروعة والجمال مالايخفى ، كما يفطن إلى صورة من صور التشبيه وهى كون المشبه به مفعولاً مطلقاً . ومثل هذا كثير فى الكتاب .

وكان يعاصر الفراء أبوعبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٨هـ) وكان له باع طولى فى التفسير ، كما كان صاحب فضل كبير فى مجال «الإعجاز القرآنى» .

وقد كتب أبوعبيدة كتابه الذى أسماه «مجاز القرآن» هادفاً أن يوضح للناس كيفية الوصول إلى المعانى القرآنية باحتذاء سنن العرب فى كلامهم وطرائقهم فى التعبير ، ولم يكن يعنى بالمجاز مايقابل الحقيقة .

وكان الدافع الذى دفعه إلى تأليف ذلك الكتاب ماروى أنه كان فى مجلس الفضل بن الربيع ، فقال له إبراهيم بن إسماعيل الكاتب : قد سألت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرفك إياها ؟ فقال أبوعبيدة : هات ، قال إبراهيم : قال الله – عز وجل – ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٣٢) ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فقال أبوعبيدة : إنما كلم الله – تعالى – العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ؛ ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزم أبوعبيدة من ذلك اليوم أن يضع كتاباً فى القرآن فى هذا وأشباهه . فوضع كتابه الذى أسماه «مجاز القرآن» (٣٣) .

وهذا الدافع الذى دفع أبا عبيدة إلى تأليف كتابه كاف فى تحديد المنهج والطريق الذى سلكه فيه ، فالكتاب يدخل فى باب التفسير وفى باب الإعجاز القرآنى ، فقد عنى فيه صاحبه بالجانب اللغوى ، والرجوع إلى لغة العرب ؛ لتوضيح مايحتاج إليه من الأساليب القرآنية ، كما عنى بخصائص الأساليب ، وماتقوم عليه روعة الكلام ، وكان له اهتمام شديد بالآيات التى تصور طرقاً مختلفة للدلالة على المعانى . ومن ثم فقد تناثرت فى كتابه كثير من المباحثات والمصطلحات البلاغية ، التى هى

---

(٣٢) الصافات . ى : ٦٥ .

(٣٣) معجم الأدباء ١٩/١٥٩ .

فى صلب الدرس البلاغى ، كالذكر ، والحذف والإضمار ، والتكرار ، والتقديم والتأخير ، والتشبيه والاستعارة والكناية ، والخاص يراد به العام وعكسه ، والالتفات وغير ذلك من الصور والألوان البلاغية .

ونقف مع بعض الأمثلة التى توضح اهتمام أبى عبيدة فى كتابه بالمسائل البلاغية ، وتبين مدى وضوح هذه المسائل ونضجها فى هذا الكتاب .

فتراه ينبه إلى الالتفات فى قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣٤) فيقول : «مالك يوم الدين حدث عن مخاطبة غائب ، ثم رجع فخاطب شاهداً فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا ﴾ ، قال عنترة ابن شداد العبسى :

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسراً على طلابك ابنة مخرم (٣٥)

ويكرر التنبيه إلى هذه الصورة فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ (٣٦) فيقول : «ومن مجاز مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى : «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم» ، ومن مجاز ماجاء خبره عن غائب ، ثم خوطب مخاطبة الشاهد قوله: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ (٣٧) .

ويتنبه إلى المعنى المستفاد من الأمر فى قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (٣٨) فيقول: «لم يأمركم بالكفر ، إنما هو توعد» (٣٩) .

ويقف عند التشبيه فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ (٤٠) موضحاً وجه الشبه وروعته فيقول : «إن الذى يبسط كفه على الماء حتى يؤديه إلى فيه لايتم له ذلك ، ولاتسقه أنامله [أى تجمعه] قال ضابئ بن الحارث البرجمى :

(٣٤) فاتحة الكتاب . ى : ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٣٥) مجاز القرآن ٢٣/١ .
(٣٦) يونس . ى : ٢٢ .
(٣٧) القيامة . ى : ٣٣ ، ٣٤ ، وانظر مجاز القرآن ١١/١ .
(٣٨) فصلت . ى : ٤٠ .
(٣٩) مجاز القرآن ١٩٧/٢ .
(٤٠) الرعد . ى : ١٤ .

فـإنى وإياكـم وشـوقـا إليكـم ... كـقـابض مـاء لم تسـقـه أنامله

يقول : ليس فى يدى شئ من ذلك ، كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شئ.

وقال :

فأصبحت مما كان بينـى وبينـها ... من الود مثل القابض الماء باليد (٤١)

إلى غير ذلك من المسائل والأقيسة البلاغية التى أثارها أبوعبيدة فى كتابه ، ولاتكاد صفحة من صفحات الكتاب تخلو من هذه الومضات البلاغية . وكان هذا الكتاب أول محاولة لمعالجة البلاغة القرآنية بشكل علمى واضح .

وهكذا أثرت هذه البيئة البحوث البلاغية إثراءً كبيراً ، فعلماء الحديث والتفسير ، وعلماء الإعجاز ، والأصوليون والفقهاء ، كل هؤلاء كانت لهم طريقتهم فى البحث الذى اتصل اتصالاً وثيقاً بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، والنظر فى ألفاظهما وأساليبهما وماتحويه هذه الأساليب من أسرار ولطائف وكان لهم الفضل فى توضيح الكثير من مسائل البلاغة ومصطلحاتها ، وأودعوها مصنفاتهم التى تمخضت عنها بيئتهم .

خامساً : بيئة المتكلمين :

سبق أن أشرنا – فى لمحة خاطفة – إلى أن الفرق الدينية بدأ ظهورها منذ عصر بنى أمية ، وأن هذه الفرق كثر الجدال والكلام بينها فى مسائل الدين والعقيدة .

وقد طال هذا الجدال وامتد إلى هذا العصر ؛ حيث احتدمت المناقشات والمناظرات بين أرباب هذه الفرق الكلامية ، ولم يزدهر علم – فى هذا العصر – كعلم الكلام ، فلم يقف عند حدود الجدال والنقاش حول القضايا الإسلامية ؛ بل شمل جميع الملل والنحل ، فظهرت فرق ليست إسلامية ، كأهل الجدل من اليهود والنصارى والدهريين والمانويين وغيرهم .

ومما لاشك فيه أن المجتمع – إلى ذلك العهد – كان يرتبط بالإسلام ارتباطاً وثيقاً فى جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، غير أنه من الظواهر التى برزت فى هذا العصر أن أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، مما أدى إلى كثرة هذه الفرق

---

(٤١) مجاز القرآن ١/٣٢٧ .

والطوائف وكثرة الجدل بينها ، فكل شيء أضحى يناقش في صراحة وحرية على بساط الجدل والبحث . وقد كان الباعث الحقيقي لهذه الظاهرة هو رقي الحياة العقلية وانطلاقها وتحليقها في آفاق جديدة ، وبخاصة بعد أن ترجمت كتب الأمم الأخرى وثقافاتهم إلى العربية .

وهذه الفرق والطوائف أطلق عليها اسم «المتكلمين» ؛ لكثرة مادار بينهم من كلام طويل ونقاش حاد حول كثير من القضايا الدينية والعقائدية ، واهتمامهم بذلك اهتماماً بالغاً .

فقد كان كل متكلم يحرص على أن يدافع عن عقيدته دفاعاً يقوم على حجة واضحة ، وبيان ناصع ، كما حرص زعماء الفرق والنحل على أن يقفوا على أسرار المهارة في الإقناع وإفحام الخصوم ، ملتمسين وسائل البراعة في القول ، كما يروى عن أبي شمر – أحد أئمة المرجئة – أنه «كان إذا جادل لم يحرك يديه ولامنكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما خرج من صدع صخرة ، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك ، وبالعجز عن بلوغ إرادته ، وكان يقول : ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره» (٤٢) .

وقد مضى هؤلاء الزعماء يمرنون أتباعهم على هذه المهارات وأسرارها ووسائلها ، ويجنبونهم النقص في الحجج والأدلة ، ويدربونهم على ذلك في مجالسهم التي زخرت بها مساجد الكوفة والبصرة وبغداد .

وكان أبرز فرق المتكلمين وأشهرهم – في هذا العصر – فرقة المعتزلة ، الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن العقيدة والإسلام ، ومايتصل بذلك من القضايا الدينية ، ووقفوا – في صلابة وحزم – أمام المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة واليهود والنصارى والدهريين والمانويين وغيرهم من الطوائف التي حاولت الكيد للإسلام أو النيل منه أو التشكيك فيه . ومن زعمائهم – في هذا العصر – عمرو بن عبيد (ت١٤٥هـ) ، وبشر بن المعتمر (ت٢١٠هـ) ، وثمامة بن أشرس (ت٢١٣هـ) ، ومعمر بن الأشعث (ت٢١٥هـ) ، وأبوالهذيل العلاف (ت٢٢٧هـ) ، وإبراهيم النظام (ت٢٣١هـ) .

وقد استخدم هؤلاء وغيرهم من المعتزلة في دفاعهم عن الإسلام ضد الملحدين والمشككين شتى ألوان الثقافة وأنواع المعرفة .

---

(٤٢) البيان والتبيين ٩١/١ .

وكانت الثقافة العربية الأصيلة هى أول اهتمامهم ، فدرسوا البيان العربى دراسة وافية مستفيضة ، واعتمدوا عليه فى فهم معانى القرآن الكريم ، وطريقة الاستدلال بأساليبه وتعابيره على إثبات إعجازه ، وخروجه عن طوق البشر أجمعين ، والرد على من ينكر هذا الإعجاز أو يشكك فيه .

ولم تقتصر دراساتهم للبيان العربى والأساليب العربية على الناحية اللفظية أو الشكلية ، ولكنهم درسوه دراسة موضوعية عميقة تقوم على فهم الأساليب والبصر بمواقع الكلام ، فأكثروا من الاطلاع على النصوص المأثورة عن العرب وتذوقها تذوقاً واعياً ، ووازنوا بين هذه النصوص وبين أساليب القرآن الكريم ، ومن ثم فقد كان حرصهم على تفسير القرآن الكريم بالطريقة اللغوية المعروفة عن العرب وطرائقهم فى التعبير ، ومناحيهم فى القول .

وهم فى سبيل ذلك كان لهم جهدهم - البارز - فى صناعة الكلام والبيان ، ووسائل هذه الصناعة وعملوا على استخراج فنون جديدة ، تتصل بالفصاحة والبلاغة، واستلهموها من جهود السابقين من الشعراء والنقاد والرواة والكتاب ، وممن عاصرهم أو تقدمهم من اللغويين والنحاة ، وطبقوا كل ماوصلوا إليه فى هذا الميدان على القرآن الكريم ونظمه وأسلوبه (٤٣) .

وكما درس أئمة المعتزلة وأتباعهم البيان العربى بعقل واع وبصر ثاقب ، حرصوا - كذلك - أن يطلعوا على ماوصلت إليه الأمم الأخرى فى مجال البيان وصناعته ، وماكتبوه فى هذا الميدان ، وهذا أمر طبيعى ، فهم يتعرضون لأبناء هذه الأمم ممن يشككون فى العقيدة ، وفى القرآن الكريم ولغته ، ويطعنون فى إعجازه ، فكان لابد لهم أن يقفوا على طرائقهم فى التعبير ، ووسائل التأثير فى بيانهم ، وأسرار البلاغة عندهم .

فقد روى عن معمر بن الأشعث أنه سأل بهلة الهندى : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ فقال له بهلة : عندنا صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق بنفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، فلقى أبو الأشعث بهذه الصحيفة التراجمة ، فترجموها له ووقف على مافيها (٤٤) .

وقد صور الجاحظ - فى بيانه - حرص طائفة المعتزلة على معرفتهم

---

(٤٣) انظر التفسير والمفسرون ١/٣٧٦ .
(٤٤) انظر الخبر والصحفية فى البيان والتبيين ١/٩٢ .

تصورات هذه الأمم عن البيان والبلاغة والفصاحة ، ومايتصل بها من وسائل ، كما نقل كثيراً من أقوالهم وصحائفهم التى ترجمت إلى العربية ، مما يتصل بالبيان والبلاغة (٤٥) .

وإذا كان هؤلاء المتكلمون من المعتزلة استطاعوا أن يمزجوا ثقافتهم العربية الأصيلة بما وقفوا عليه من ثقافات الأمم المختلفة مما يتصل بأساليب الجدل وفن القول ومسائله ، فإنهم – إلى جانب ذلك – استطاعوا أن يتعمقوا فى دراسة الفلسفة ومايتصل بها من المنطق ، وبرعوا فى ذلك براعة منقطعة النظير ؛ وبخاصة وقد نقلت إليهم فلسفات الأمم المختلفة ومنطقهم وطرائقهم فى التفكير ، واستطاعوا – أيضاً– أن يربطوا ربطاً قوياً بين هذه الفلسفة وبين ماوصلوا إليه من وسائل البراعة فى فن القول ، حتى عدوا الفلسفة أساساً مهماً من أسس البيان . ويصور ذلك الجاحظ فى قوله عنهم : «لايكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم – عندنا – (٤٦) هو الذى يجمعهما» (٤٧) .

كل هذه الوسائل من الثقافة العربية وغير العربية ، ومايتصل بهما من مسائل البيان ، ثم بصرهم بالفلسفة والمنطق جعلهم ينظرون إلى مسائل البلاغة والبيان بفكر فلسفى ناضج ، فاندفعوا إلى التساؤل عن الأسس التى تقوم عليها براعة القول ، والبحث عن الوسائل التى ترقى بها صناعة الكلام ، ومايدور حول البلاغة والفصاحة من بحوث ودراسات ، كل هذا على أساس علمى منظم .

وقد تناثر على ألسنة هؤلاء وأقلامهم كثير من الملاحظات والمقاييس البلاغية التى تدل على فهمهم لهذه المقاييس بعقول ناضجة وأذهان ثاقبة . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وقد جمع الجاحظ كثيراً منها فى كتابه «البيان والتبيين» .

ونذكر – على سبيل المثال – أن سائلاً يتعرض لمعتزلى كبير هو عمرو بن عبيد ، فسأله عن البلاغة ، فيجيبه بأنها : «تخير اللفظ فى حسن الإفهام ، وتزيين المعانى المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان» (٤٨) .

وقد سئل العتابى أيضاً – وهو من أعلامهم – عن البليغ والبلاغة ، فقال : «كل

---

(٤٥) المرجع السابق ٨٨/١ ومابعدها .
(٤٦) يعنى المعتزلة .
(٤٧) الحيوان ١٣٤/٢ .
(٤٨) البيان والتبيين ١١٤/١ .

من أفهمك حاجته من غير إعادة ولاحبسة ، ولااستعانة فهو بليغ . فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب فإظهار ماغمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق ، فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهناه ، وياهذا ، وياهيه ، واسمع منى ، واستمع إلى ، وافهم عنى ، أو لست تفهم ، أو لست تفعل ؟ فهذا كله وما أشبهه عىّ وفساد [٤٩] .

وواضح من تعريف كل من عمرو بن عبيد والعتابى أن كلا منهما يحاول وضع ضابط للبلاغة . فابن عبيد يتصورها فى تخير اللفظ وتزيين المعانى بالعبارات الرائقة ، والعتابى يفرق بين نوعين من البلاغة :

البلاغة العامة ، وهى – عنده – فى التدفق البيانى ، دون إعادة أو تكرار أو حبسة ، ودون استعانة أو حشو فى الكلام ، والبلاغة الرفيعة العالية ، وهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من المهارة ماتعرض به الباطل فى صورة الحق ، معتمدة على خلابة اللسان ، وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له ، حتى يرى كأنه الحق الذى لاحق سواه .

هذا وتعد صحيفة بشر بن المعتمر خير ما أثر عن المعتزلة فى مسائل البلاغة والبيان ، وقد عرفت هذه الصحيفة بأن موضوعها البلاغة . فقد روى «أن بشراً مر بإبراهيم بن جبلة الخطيب ، وهو يعلم فتيانه الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد ، أو ليكون رجلاً من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع إليهم بهذه الصحيفة التى من تحبيره وتنميقه» [٥٠] .

وقد روى الجاحظ هذه الصحيفة كاملة فى بيانه ، فليرجع إليها من شاء ، وسوف يعجب عندما يجد فيها هذا النضج البلاغى ، ووضوح الأفكار البيانية التى تقوم على فلسفة عميقة وفكر واع مستنير ، فقد أثار بشر فيها كثيراً من المسائل البلاغية المهمة ، كمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وقضية اللفظ والمعنى ، ومايتصل باللفظ من عيوب تبعده عن الفصاحة كالتوعر والغرابة والتعقيد ، ومايتصل بالمعنى من الطواعية والسهولة إلى غير ذلك من الضوابط والأصول البلاغية التى نجدها فى هذه الصحيفة [٥١] .

---

(٤٩) المرجع السابق ١١٣/١ .
(٥٠) المرجع السابق ١٣٥/١ .
(٥١) انظر الصحيفة كاملة فى البيان والتبيين ١٣٥/١ ومابعدها .

والواقع أن المعتزلة - بنشاطهم الفكرى المنظم ، وتذوقهم المرهف للأساليب العربية - استطاعوا أن يقدموا للبلاغة العربية ثمرة هذا الفكر وذلك الذوق ، بل لنا أن نقرر أن البلاغة العربية انتقلت على أيديهم من طور المقاييس العامة إلى طور جديد ، هو محاولة وضع ضوابط ومقاييس لمسائل البلاغة وفنونها .

هذه هى البيئات التى أسهمت فى إنماء المباحث البلاغية وإثرائها فى صدر العصر العباسى ، وحتى أوائل القرن الثالث الهجرى .

وواضح من عرضنا السابق - لهذه البيئات - أن الفكرة البلاغية أصبحت واضحة فى عقول هؤلاء العلماء ، على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم العلمية ، وتناثرت كثير من مقاييسهم البلاغية فيما خلفوه من مصنفات ومؤلفات فى شتى فروع العلم والثقافة .

ثم يطالعنا المعتزلى الكبير أبوعثمان الجاحظ فى منتصف القرن الثالث الهجرى الذى يعد أشهر أدباء هذا العصر ومصنفيهم ، فيهضم هذا التراث البلاغى الضخم الذى خلفته هذه البيئات ، ويقدمه فى مصنف علمى كبير هو كتابه «البيان والبيان» ، ويخصصه لدراسة هذا الفن وأصوله ، فيجمع فيه كل ماعرضه السابقون من مسائل هذا العلم وبحوثه ، مضيفاً إليه من عقله وفكره ما اهتدى إليه بذوقه ، عارضاً معظم هذه المسائل فى صورة ضوابط ومقاييس . على ماستراه فى الباب الثالث إن شاء الله .

الباب الثالث

المقاييس البلاغية في "البيان والتبيين"



المقاييس البلاغية فى "البيان والتبيين"

تصدير :

كان أبوعثمان الجاحظ عقلية فذة ، كتبت فى البيان العربى بحس مرهف ، وذوق رفيع ، فقدم لنا فى كتابه «البيان والتبيين» درساً بلاغياً يقوم على فكر واع وذوق ناضج ، وإدراك كامل لضوابط الكلام التى يرقى بها فى باب الفصاحة والبلاغة، هذا فضلاً عن قوة أسره ودقته المتناهية ، التى تعبر عن أصالة فكره ، وذوقه فى صناعة الكلام .

وأهمية «البيان والتبيين» ترجع إلى كونه كتاباً فى البلاغة ، فقد أثار الجاحظ كثيراً من المقاييس والضوابط البلاغية التى كانت واضحة فى عقله وضوحاً تاماً ، وكان حديثه عن هذه المقاييس والضوابط حديثاً مستفيضاً ، استغرق الكثير من أبواب البلاغة ومسائلها .

فغلبة اللون البلاغى على ما أثير فى الكتاب من مسائل أخرى لها صلتها الوثيقة بالأدب ، بل بالبلاغة – أيضاً – واضحة كل الوضوح لمن يتصفح هذا الكتاب ويمعن النظر فيه .

وقد كان من أهم الدوافع التى دفعت الجاحظ أن يقدم لنا هذه البحوث البلاغية فى كتابه تلك الحركة العنصرية التى عرفت باسم «الشعوبية» ، والتى حاولت أن تسلب العرب كل فضل ، وتثبت لهم كل نقيصة ، وكان من جملة ماتناولوه فى مثالب العرب «البيان» الذى هو مفخرة العرب وموضع اعتزازهم ، و «البلاغة» التى يقوم عليها أدبهم ، ويرقى على أصولها رقياً عظيماً .

وقد انبرى الجاحظ للدفاع عن البيان العربى ، وعن بلاغة قومه ، فأثار هذه الأحاديث المتشعبة عن البلاغة وضوابطها ومقاييسها ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً كبيراً – على ماسنوضحه إن شاء الله – ، وقد أعانه على نجاحه فى تحقيق هذا الهدف سعة معارفه ، وكثرة محفوظه من فنون البيان .

ومن يديم النظر فيما ساقه من أدلة وبراهين على بيان العرب وبلاغتهم يجده

قد شغل نفسه إلى حد كبير بما يقوم عليه هذا البيان من أصول، وما تقوم عليه البلاغة العربية من ضوابط وأدوات. فالكتاب زاخر بالحديث عن أبواب الفصاحة والبلاغة والبيان وحدودها ؛ ليثبت من خلال ذلك أن بلاغة العرب إنما تقوم على أصول راسخة ، ولها أدلتها التى لاتقبل الجدال أو التشكيك ، وقد كان الجاحظ فى عرضه لهذه الأدوات ذا عقلية بصيرة ، مهتدياً بذوقه العربى الأصيل .

وصنيع الجاحظ – الذى قدمه فى كتابه – لايقل – فى رأيى – ولايختلف عمّا قدمه الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه «دلائل الإعجاز» ، مع احتفاظ الجاحظ بفضل السبق والإبداع ، وإن كان لكل منهما منهجه وطريقته وهدفه .

فالجاحظ أراد أن يثبت للعرب بيانهم وبلاغتهم بما ساقه من أدلة وبراهين ، وبما أثاره من مقاييس وضوابط ، وهو مافعله الإمام عبدالقاهر بالنسبة لكتاب – الله تعالى – الذى انبرى للدفاع عنه ضد الملحدين والمشككين فى إعجازه بما ساقه من أدلة تثبت هذا الإعجاز ، وبما أوضحه من ضوابط وقواعد بلاغية يقوم عليها الإعجاز القرآنى ، فمسلك الرجلين واحد مع اختلاف هدفيهما .

وقد يقال إن الفرق بين الرجلين بعيد ، وأن عبدالقاهر كان أكثر وضوحاً وتحديداً وتقنيناً لمسائل البلاغة ، وأن الجاحظ يغلب عليه الاستطراد والانتقال من موضوع إلى موضوع ، وأن كتابه يفتقر إلى التبويب العلمى الدقيق ؛ مما يجعل البحث فى هذا الكتاب على قدر كبير من الصعوبة .

وقد يتعلق هذا الرأى بما ذكره أبو هلال العسكرى عن «البيان والتبيين» من قوله : «إن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لاتدرك إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير[1]» .

وهذا القول الذى يفرق بين الجاحظ وعبد القاهر يحمل – فى ظاهره – التهوين من أثر الجاحظ فى البيان ، كما ذهب إلى ذلك بعض الكاتبين[2] .

وفى هذا ظلم للرجل أيما ظلم ، وهو وإن دلّ على شىء فإنما يدل على أن صاحبه لم ينظر فى «البيان والتبيين» النظرة الفاحصة المتأنية ، ولم يفهم الرجل من خلال كتابه ، وأنه شغل بمسائل الأدب وغيره – مما هو فى الكتاب – عن الضوابط والمقاييس البلاغية المبثوثة فى تضاعيفه ، والمنتشرة فى أثنائه ، والتى عرض لها

(١) الصناعتين . ١ / ١١ .

(٢) نحو بلاغة جديدة . ١ / ٤ حيث أشار مؤلفه إلى هذا الرأى ، وعده من الخطأ .

الجاحظ بعقل العالم البصير ، وحس الأديب المرهف ، كما أن صاحب هذا الرأى لم يقف على ما أراده أبو هلال من قوله هذا وقوفاً صحيحاً .

والواقع أن كتاب الجاحظ كتاب فى البلاغة داخل فى صميمها ، على الرغم من أنه موسوعة كبرى فى الأدب ، وعلى الرغم – أيضًا – من قول الباحثين : « إن من يحاول الاهتداء إلى آراء الجاحظ – يعنى آراءه البلاغية – من كتبه عليه أن يستوعب تلك الكتب من أولها إلى آخرها ،وسيجد – حتمًا – كثيراً من العنت حتى يوفق إلى ما يريد ، ويستطيع أن يجمع تلك الأفكار المشتتة ، ويضم الإلف منها إلى إلفه حتى تتضح له الفكرة المبثوثة فى مواضع متفرقة ، وحينئذ – وبعد هذا العناء – يستطيع أن يقف على الجاحظ وأن يحكم على أفكاره ، وأن يحلها ماهى جديرة به من المنازل[٣]» .

وإذا كانت ظاهرة الاستطراد وعدم الترابط بين الأفكار والموضوعات سمة بارزة فى كتاب الجاحظ فتلك سمته فى كل كتبه ومؤلفاته ، ولم يكن غافلاً عما يفعل من استطراد أو تكرار .

فالواقع – الذى لامراء فيه – أنه كان يدرك هذه الظاهرة التى أخذت عنه إدراكاً تاماً ، ودافع عنها – بنفسه – ذاكراً السبب الذى دعاه إلى ذلك .

فنراه يذكر فى فصل من فصول كتابه «الحيوان» وهو (مزج الهزل بالجد) سبب هذه الظاهرة فيحصرها فى سببين :

أولهما :

أنه قد يخفى السبب على القارئ ؛ لدقة المسلك وبعد المرمى الذى قصد إليه ، فمن يتأمل كتابه يجد أن كل شئ قد وضع فى موضعه ، وماعلى القارئ إلا أن يتأنى فى فهمه لما يقرأ ، أو يلتمس له العلة ، وهو – ولاشك – واجدها .

يقول : «هذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكر فى فصوله ، وتعتبر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض مارأيت فى أثنائه من مزج لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت ، وأى شيء أريد بها ، ولأى جد احتمل هذا الهزل ، ولأى رياضة تجشمت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلبت ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة» [٤] .

(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى ص : ١٨٠ .
(٤) الحيوان ٣٧/١ .

ثانيهما :

إن مايظن أنه من باب الاستطراد مما لافائدة فيه فإنه بالتأمل الدقيق تظهر له فائدة ويظهر ارتباطه بما سبقه ومالحقه ، فهو من باب مالايتم الواجب إلا به .

فيذكر أنه «لما قال الخليل بن أحمد : لايصل أحد من علم النحو إلى مايحتاج إليه حتى يتعلم مالايحتاج إليه ، قال أبوشمر : إذا كان لايتوصل إلى مايحتاج إليه إلابما لايحتاج إليه فقد صار مالايحتاج إليه يحتاج إليه ، وذلك مثل كتابنا هذا – يعنى الحيوان – لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق ، وصعوبة الجد ، وثقل المئونة وحلية الوقار لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزه ، ونال سروره على حسب مايورث الطول من الكد ، والكثرة مع السآمة ، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير [٥] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة» [٦] .

على أن السبب الثانى الذى ذكره الجاحظ يحمل روح السخرية والتهكم التى جبل عليها الجاحظ وإن كان – فى رأيى – يحمل توجيهاً منه إلى كل الكاتبين ، بحيث لاتكون كتاباتهم محصورة مقيدة أشبه ماتكون بالكائن ناقص الخلقة ، أو المبتور أحد أطرافه ، بل فى رأيه أن الكتاب ينبغى أن يكون أشبه بالبستان متعدد الورود ، التى تعطى شكلاً مؤلفاً متناسقاً ، وإن اختلفت أشكالها وتزاحمت ألوانها ، وهذا ماعناه بالسبب الأول .

وفضلاً على ماذكره الجاحظ فإن هناك أمرين مهمين كانا من الأسباب التى جعلت هذه الظاهرة غالبة على كتاباته ومؤلفاته ، وينبغى أن ننبه إليهما :

الأمر الأول :

طبيعة العصر الذى عاش فيه الجاحظ ، فلم يكن هذا العصر يعرف طريق المنهج العلمى المنظم ، كما رسمه العلماء فيما بعد . فالمؤلفات التى هى نتاج هذه الفترة ، والمؤلفات البلاغية بصفة خاصة «لم تكن تعرف التبويب العلمى الدقيق الذى هو أبرز خصائص المنهج العلمى ، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد الذى يخرج بالقارئ من الخط الأساسى الذى يعالجه المؤلف إلى موضوعات وقضايا فرعية أخرى لاتمت إلى الموضوع المطروح بكبير صلة ، ويضل القارئ وسط هذه الاستطرادات

---

(٥) السواجير : جمع الساجور ، وهو خشبة تعلق فى عنق الكلب ، وسجره : شده به .
(٦) الحيوان ١/٣٧ ، ٣٨ .

الكثيرة العثور على الخط الأساسى فى فكر المؤلف ، وإلى جانب هذا الاستطراد والخروج عن الموضوع الأصلى كان المؤلف يبعثر الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة فى أكثر من موضع من مواضع الكتاب» (٧) ؛ مما يجهد القارئ فى لم شتات تلك الفكرة، وجمع أجزائها المتناثرة ، كما أن المؤلف أحياناً قد يكرر الفكرة الواحدة فى أكثر من موضع من مواضع الكتاب .

فظاهرة الاستطراد وعدم التبويب لم تكن قصراً على الجاحظ وحده ، ولا على المؤلفات البلاغية وحدها فى ذلك العصر ، وإنما كانت شركة – فى هذه الفترة – بين جميع المؤلفين على اختلاف ثقافاتهم ، ونجدها فى جميع المؤلفات على اختلاف مناهجها وموضوعاتها ، فلم يكن هناك ترابط علمى بين فصول تلك الكتب وأبوابها مما يفقدها وحدتها العلمية .

الأمر الثانى :

أن الجاحظ كان رجلاً واسع المعرفة والاطلاع ، ضليعاً فى الثقافة ، مشهوداً له بالعبقرية ممن عاصره وممن جاء بعده ، رحب العقل والتفكير ، مرهف الحس والوجدان ، ومن هنا تزاحمت عليه الأفكار وتسابقت إلى قلمه ، فحشد لها كل ما استطاع أن يسجله مما جال بفكره فى كتابته .

فالجاحظ كان يتمتع بالكثير من المزايا العلمية التى فاق بها غيره ممن عاش تلك الفترة ، ومن ثم فقد كانت هذه الظاهرة أكثر بروزاً ووضوحاً فى مؤلفاته دون غيره من المؤلفين أو المصنفين .

قيل لأبى العيناء : «ليت شعرى ، أى شئ كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى ، أى شئ كان الجاحظ لايحسن !؟» (٨) .

لقد كان الجاحظ أعجوبة الدنيا ، تعرف ذلك إذا قرأت كتاب الحيوان ، ولمست مافيه من جهد ، ومايتطلبه من وعى واسع وانتباه دقيق ، ثم عرفت بعد ذلك كله أن تلك المعلمة الخالدة صنعها صاحبها وأتم حوكها وهو فى سن عالية ، مفلوج ، يقول فى شكاية مرضه : «أنا من جانبى الأيسر مفلوج ، فلو قرض بالمقاريض ماعلمت به، ومن جانبى الأيمن منقرس ، فلو مر به الذباب لألمت» (٩) .

---

(٧) البلاغة العربية ، تاريخها ومصادرها ومناهجها ، ص : ٣٤ ، ٣٥ .

(٨) جمع الجواهر ص : ١٦٥ .

(٩) وفيات الأعيان ١٤٣/٣٠ .

ويزداد عجبك إذا عرفت أنه بدأ فى تأليف كتابه «الحيوان» قبل أن يبدأ فى كتابه «البيان والتبيين» ، ويصرح بذلك فى قوله فى بيانه «كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب، ونوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك ، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب فى ذلك أوفر إن شاء الله» (١٠) .

فمثل هذا الرجل ، وتلك العقلية بما تحمل من تعدد الثقافات والمعارف والاهتمامات العلمية لايمكن أن يطلب منها منهج علمى منظم .

وعلى هذا جاء كتاب «البيان والتبيين» موسوعة كبرى فى باب البلاغة ، استفاد فيه صاحبه من جهود السابقين ، ولم شتات البلاغة المبعثرة فى الكتب والمصنفات وأضاف إليها ما اهتدى إليه عقله وفكره وذوقه .

على أن هذه الموسوعة الكبرى – كما قال عنها أبوهلال – تضل فيها الإبانة عن حدود البلاغة وأقسامها ؛ لأنها مبعثرة بين طيات الكتاب ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لايمكن دركها إلا بعد التأمل والتأنى والتصفح الكثير .

ومن حق الجاحظ علينا ، وواجبنا نحو هذا العلم – أعنى علم البلاغة – أن نبحث عن هذه الحدود والأقسام المبثوثة فى تضاعيف الكتاب ، محاولين وضعها فى إطار علمى يقوم على تبويبها وتنظيم أقسامها ، ووضع الحدود والضوابط فى أشكال مترابطة تمكن من الاستفادة منها . وتسهل على الدارسين والباحثين التعرف عليها .

* * *

(١٠) البيان والتبيين ٣/٢٠٢ .

الفصل الأول

البيان عند الجاحظ

كان البيان هو الموضوع الرئيسى الذى أقام الجاحظ عليه كتابه ، فكشف عن معناه موضحاً آراء السابقين فيه ، ومبرزاً أهميته وفضله ، وماله من أثر عظيم وخطر جليل ، كاشفاً عن أصالة العرب فى هذا الباب ، وماخصهم الله به من نعمة البيان ، مقارناً بينهم وبين غيرهم من الأمم الأخرى فى هذا الميدان ، مقيماً حجته فى هذه المقارنة على أن البيان صناعة لها أصولها وضوابطها التى خص الله بها العرب دون سواهم من الأمم . وسوف يتضح هذا من خلال عرضنا لهذا الفصل الذى جعلناه فى أربعة مباحث .

المبحث الأول
معنى البيان

إن البيان الذى قصد إليه الجاحظ وعناه فى كتابه ، وأدار حوله مسائله هو : القدرة على الإبانة والكشف عما فى النفس ، والإفصاح عما فى الضمير بطريق اللسان والألفاظ .

وقد كان البيان - بهذا المفهوم - أول ماشغل به الجاحظ فى كتابه ، فعقد له باباً خاصاً - بعد عدة صفحات من كتابه - نعته «باب البيان» ، وذكر أن هذا الباب كان - من الواجب - أن يكون فى أول الكتاب ، ولكنه أخره لبعض التدبير [1] .

وفى هذا الباب، عَرفَ الجاحظ البيان بقوله : «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان ، الذى سمعت الله - عز وجل - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت على أصناف العجم » [2] .

وفى تحديد الجاحظ لمعنى البيان مايفسر السبب فى تأخيره عقد هذا الباب ، وعدم ذكره فى أول الكتاب ، مع تصريحه بأن البيان هو المقصود الأصلى من الكتاب، وأن مكان هذا الباب هو صدر كتابه ، فما ذكره - قبل هذا الباب - يعد كالتمهيد لتحديد معنى البيان الذى ذكره ، فحديثه قبل باب البيان كان حديثاً عن فضله ، ورجوع كثير من المزايا والفضائل إليه ، ومدح الله - تعالى - له ، وحثه عليه ، مستدلاً على ذلك بما ساقه من نصوص قرآنية واضحة فى مدح البيان ، والإشادة به، وبما رواه من جيد المنظوم والمنثور ، كل هذا تمهيد لتعريف البيان ، ومدخلاً لما ذكره فى هذا الباب .

وهذا يجعلنا نجزم بأن الجاحظ كان صاحب فكرة تتصل بالبيان والبلاغة وأدواتهما ، أراد أن يعالجها فى كتابه . ومن ثم فقد رأى - لزاماً عليه - أن يبدأ بها الباب ، بوضع إطاره وتحديد مفهومه ، والاستدلال عليه ، لولا أن عنت له بعض الأمور ، التى تتصل بهذا الباب ، والتى رأى أنها ضرورية ليبنى عليها ماذكره ، جعلته يؤخر هذا الباب بعض الشئ .

(١) البيان والتبيين ٧٦/١ .
(٢) المرجع السابق ٧٥/١ .

وهو – في تحديده السابق للبيان وتعريفه له – يدل دلالة صريحة على أنه لايعنى بالبيان إلا ماكان بطريق الألفاظ ، فهو البيان الذى مدحه الله – عز وجل – ، وهو الذى تفاخرت به العرب .

ويوضح هذا المعنى فى صدر الجزء الثالث من كتابه بقوله «هذا – أبقاك الله – الجزء الثالث من القول فى البيان والتبيين ، وماشابه ذلك من غرر الأحاديث ، وماشاكله من عيون الخطب ، ومن الفقر المستحسنة ، والنتف المستخرجة ، والمقطعات المتخيرة ، وبعض مايجوز فى ذلك من أشعار المذاكرة ، والجوابات المنتخبة» (٣) .

ومعروف أن غرر الأحاديث وعيون الخطب ، وبعض مايستحسن من الشعر والأجوبة لاتكون ولاتؤدى إلا باللسان والألفاظ .

ويؤكد هذا المعنى بأنه كلما كانت دلالة اللفظ على معناه أوضح كان أدخل فى باب البيان ، «فعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة وحسن الاختصار ، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع» (٤) .

والجاحظ – إذ يبدو واضحاً فى هذا الرأى – فإننا نجده يستطرد إلى رأى آخر يظهر وكأنه متناقض مع هذا التحديد والتعريف ، فيقرر أن «البيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائناً ماكان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع» (٥) .

فكلام الجاحظ – هذا – يفيد إطلاق البيان على كل مايكشف المعنى بلفظ أو غيره . ثم يزيد فى استطراده ، فيعدد أصناف الدلالة على المعنى من لفظ أو غير لفظ، فيحصرها فى «خمسة أشياء ، لاتنقص ولاتزيد : أولها ، اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التى تسمى نصبة ، والنصبة هى الحال الدالة ، التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولاتقصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهى التى تكشف لك

---

(٣) البيان والتبيين ٣/٥ .
(٤) المرجع السابق ١/٧٥ .
(٥) المرجع السابق ١/٧٦ .

عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، ومايكون منها لغواً بهرجاً ، وساقطاً مطرحاً» (٦) .

وواضح أن هذه الدلالات - عدا دلالتى الخط واللفظ - لايمكن أن تعد فى البيان ، إذ أن البيان أدب وتعبير قبل كل شئ .

ومن يتأمل كلام الجاحظ فى الموضعين يجد أنه لاتناقض فيه ، فهو إذ يعدد أصناف الدلالة فإنما يعددها فى معرض إحصاء وسائل الفهم والإبانة عما فى النفس ، أياً كانت هذه الوسيلة ، وقد ألمح إلى ذلك بقوله : «فهذا هو البيان فى ذلك الموضع» . أما إذا انتقل إلى غاية البيان الحقيقية من التأنق فى رسم الصورة الأدبية المصطبغة بالصبغة الفنية فإنما يعنى البيان عن طريق الألفاظ ، أما باقى أصناف الدلالات فلااعتبار لها عنده حينئذ .

وقد أزال بعض هذا التناقض فى تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (٧) فقال : «لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإفهام والتفهم ، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد» (٨) .

فالبيان مرتبط باللسان ، فعلى قدر بيانه يكون حمده ، وإذا استطاع اللسان أن يجعل المعنى فى القلب أشد بياناً كان أكثر حمداً .

ثم أوضح مراده بما يزيل هذا التناقض ويدفعه فى حديثه عن معانى البلاغة عند العتابى بأن : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فقد قال : «من زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء وكله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذى فينا ، وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لايستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم كما لايعرفون رطانة الرومى والصقلبى ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا لانفهم عنهم كثيراً من حوائجهم ، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم

(٦) البيان والتبيين ٧٦/١ .
(٧) إبراهيم . ى : ٤ .
(٨) البيان والتبيين ١١/١ .

بضغاء السنور كثيراً من إرادته ، وكذلك الكلب والحمار والصبى الرضيع ، وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء» (٩) .

ويؤكد الجاحظ رأيه فى البيان ، وارتباطه بالألفاظ بما رواه من كلام جعفر بن يحيى حين سئل : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولاتستعين عليه بالفكرة ، والذى لابد منه أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل» (١٠) .

وهناك رأى آخر للبيان ذكره الجاحظ نقلاً عن بعضهم ، وهو : تلبيس الحق بالباطل ، وتلبيس الباطل بالحق . وقد ذم الجاحظ هذا الرأى ، وأوضح أنه مذهب غير محمود ، جعل بعض الناس يكرهون البيان ويمقتونه .

وينقل الجاحظ فى هذا المذهب قول مالك بن دينار : «ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ماصنع به أهل العراق وماصنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج» (١١) .

«ومرَّ غيلان بن جرشة الضبى مع عبدالله بن عامر ، على نهر أم عبدالله الذى يشق البصرة ، فقال عبدالله : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير ، يعلم القوم صبيانهم فيه السباحة ، ويكون لسقياهم ومسيل مياههم ، وتأتيهم فيه ميرتهم . قال : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهر ، وقد كان عادى ابن عامر ، فقال زياد : ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر ! قال غيلان : أجل والله أيها الأمير ، تنز منه دورهم ، وتغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله يكثر بعوضهم» (١٢) .

ويعلق الجاحظ على مانقله بقوله : «فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا مثل هذا المذهب ، فأما نفس حسن البيان فليس يذمه إلا من عجز عنه ، ومن ذم البيان مدح العى ، وكفى بهذا خيالاً» (١٣) .

فالبيان ليس موضعاً للخلاف ، أما هذا المذهب الذى كرهه بعض الناس فقد كرهوه لما فيه من تعمية وإضلال عن الحق ، أما البيان نفسه الذى يقوم على وضوح

---

(٩) المرجع السابق ١٦٢/١ .
(١٠) البيان والتبيين ١٠٦/١ .
(١١) المرجع السابق ٣٩٤/١ .
(١٢) المرجع السابق ٣٩٤/١ ، ٣٩٥ .
(١٣) المرجع السابق ٣٩٥/١ .

اللفظ والمنطق ، وحسن الاختصار للكلام ، ودقة المدخل وإظهار ماغمض من المعانى فهذا هو المعنى الذى ينبغى ألايختلف عليه اثنان .

ومما سبق عرضه نستطيع أن ندرك بوضوح أن معنى البيان – عند الجاحظ – محدد وواضح ، وهو الإبانة عما فى النفس من المعانى والأغراض عن طريق اللسان والألفاظ ، مع حسن عرضها فى المعارض الزاهية ؛ ليكون البيان أكثر حمداً وأحلى جنى .

* * *

المبحث الثانى
أهمية البيان وفضله

إن الأديب أو المتكلم إذا كتب أو نطق فإنما يكون غرضه إخبار السامعين أو القارئين بما يقصد إليه من معان ، وأن ينقل إليهم مايحس به فى قرارة نفسه وقلبه ، وأن يكشف لهم مستور ضميره ، ووسيلته إلى ذلك كلام مبين ، يفصح به عما فى نفسه وعقله ، ويكشف به عن مكنون ضميره . ومن ثم كان للبيان من الفضل والمزية مالايستطيع أحد أن ينكره .

وقد أوضح الجاحظ – فى كتابه – تلك الأهمية وذلك الفضل للبيان ، بل إن كل صفحة من صفحات الكتاب تنطق بما للبيان عنده من عظيم الشأن وجليل القدر .

ونراه يفصح عن ذلك بقوله : «المعانى القائمة فى صدور الناس ، المقصورة فى أذهانهم والمتخلجة فى نفوسهم .. مستورة خفية وبعيدة وحشية .. لايعرف الإنسان ضمير صاحبه ولاحاجة أخيه وخليطه .. وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم وتجليها للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً» [١] .

والجاحظ إذ يذكر فضل البيان عن إدراك ووعى كاملين لم يغفل أن يدلل على هذه الفضيلة ، فساق كثيراً من الأدلة والبراهين – التى نجدها مبثوثة فى كتابه – ليؤكد فضل البيان ، ويبرز أهميته وهذه الأدلة التى ساقها هى :

أولاً : إشادة القرآن الكريم بهذه النعمة العظيمة ، «فالله – سبحانه وتعالى – ذكر جميل بلائه فى تعليم البيان ، وعظيم نعمته فى تقويم اللسان ، فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[٢] ، وقال تعالى :﴿ «هذا بيان للناس﴾ [٣] ، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح ، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ ، وسماه فرقاناً كما سماه قرآناً ، وقال ﴿ عربيٌ

(١) البيان والتبيين ١/٧٥ .
(٢) الرحمن . ى : ١-٤ .
(٣) آل عمران . ى : ٥٥ .

مُبِينٌ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٥) ، وقال : «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ» (٦) وقال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ (٧) .

فكل هذه الآيات – وغيرها كثير – تدل على قيمة البيان ، وأن الله – تعالى – يذكر أن أول مامن به على عباده هو نعمة البيان ، وأنه – تعالى – عندما مدح القرآن الكريم وأشاد به فإنما مدحه من هذه الجهة ، أعنى البيان والإفصاح وجودة الإفهام ، فالقرآن الكريم كله بيان فى أرقى درجاته وأعلى مراتبه . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٨) .

ثانياً : إشادة الرسول – ﷺ – وتعظيمه لشأن البيان وبيان قيمته ، ويروى الجاحظ فى ذلك أحاديث كثيرة منها : قول العباس بن عبدالمطلب للنبى – ﷺ : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال : فى اللسان» (٩) .

فالرسول الكريم – ﷺ ، وهو من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، حتى كان قرآناً يمشى بين الناس – يدرك ما للبيان من جلال القدر ، فهو القائل :

« إن من الشعر حكماً ومن البيان سحراً» (١٠) ، وكان يفتخر بأنه أفصح العرب وأنصعهم بياناً ، فقد كان من قريش وتربى فى بنى سعد ؛ ولذا فقد كان مما خصه الله به دون سائر الأنبياء أن أعطاه جوامع الكلم ، فكانت أقواله أمثالاً وحكماً تجرى بين الناس .

ثالثاً : ميز الله – سبحانه وتعالى – الإنسان عن سائر المخلوقات بالبيان ، فلولا البيان لكان الإنسان صورة أو بهيمة .

ويبرز الجاحظ هذه الحقيقة فيما نقله عن خالد بن صفوان فى قوله : «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة» (١١) ، وقول صاحب

(٤) النحل . ى : ١٠٣ ، والشعراء . ى : ١٩٥ .
(٥) طه ، ى : ١١٣ .
(٦) النحل . ى : ١٦ .
(٧) الإسراء . ى : ١٢ ، وانظر البيان والتبيين ٨/١ .
(٨) الزمر ى : ٢٨ .
(٩) البيان والتبيين ١٧٠/١ .
(١٠) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، ٢٦٩/١ .
(١١) البيان والتبيين ١٧٠/١ .

المنطق : «حد الإنسان : الحى الناطق المبين» [١٢] وقول «الأعور الشنى» :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم [١٣]

رابعاً : إطباق العلماء والحكماء والفلاسفة على فضله وأهميته ، وقد نقل الجاحظ فى ذلك أقوالاً لطائفة كبيرة من هذه الطوائف ، تدل على إدراكهم للبيان وأثره ، فمن ذلك قول يونس بن حبيب : «ليس لعيى مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ولوحك بيا فوخه أعنان السماء» ، وقالوا : «البيان بصر ، والعى عمى ، كما أن العلم بصر والجهل عمى ، والبيان من نتائج العلم ، والعى من نتائج الجهل» ، وقال سهل بن هارون : «العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم» ، وقالوا : «حياة المروءة الصدق ، وحياة الروح العفاف ، وحياة الحلم العلم ، وحياة العلم البيان»، وقال ابن التوأم :«الروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم» [١٤] .

فهذه الآراء والأقوال لم ينقلها الجاحظ عن طائفة تخصصت فى لون واحد من العلوم أو الفنون وإنما نقلها عن أعلام تعددت ثقافاتهم ، واختلفت أذواقهم ؛ ليدلل على أن فضيلة البيان لم يختلف عليها أحد من الناس .

خامساً : إن أرباب الملل وزعماء النحل ، ومن يتعرض للدعوة أو الخطب الطوال لايمكن لواحد منهم أن يستغنى عن البيان ، فإنه آلته التى لايمكن أن يقوم بدونها .

ويضرب الجاحظ المثل لذلك بواصل بن عطاء – رئيس طائفة المعتزلة – فإنه «لما علم أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد له من الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ... وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ماتستمال به القلوب وتثنى به الأعناق ... وعلم واصل أنه ليس معه ماينوب عن البيان التام .. ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان رام

---

(١٢) المرجع السابق ١٧١/١ .

(١٣) المرجع السابق ١٧١/١ .

(١٤) انظر هذه الأقوال فى المرجع السابق ٧٧/١ .

أبوحذيفة – يعنى واصل بن عطاء – إسقاط الراء من كلامه .. فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه .. حتى انتظم له ماحاول ، واتسق له ما أمل .. ولست أعنى خطبه المحفوظة، ورسائله المخلدة ؛ لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان» [١٥] .

والجاحظ – إذ يضرب المثل بعطاء – فلأنه كان رأساً لطائفة المعتزلة ومؤسساً لها ، وهذه الفرقة خدمت العقيدة ودافعت عن الإسلام وعن إعجاز القرآن وبيانه ضد الملحدين والمشككين ، واشتهر خطباؤها بالفصاحة والبيان . ولما كان واصل كذلك كان بحاجة إلى التصدى لهؤلاء المعاندين وأعداء الإسلام بلسان قويم وبيان مستقيم ؛ ولذا فإنه بحث عن أدواته من الطلاقة فى المنطق ، والسلاسة فى الحديث ، والبعد عن كل مايخل بهذا البيان مما يتصل بأى عيب من العيوب ، حتى ولو كان هذا العيب خلقياً ، لادخل له فيه .

سادساً : إن موسى – عليه السلام – لما رأى فى لسانه بعض الحبسة التى تخل ببيانه دعا ربه أن يطلق لسانه ، ويمده بنعمة البيان ليتصدى لقومه ويبلغهم دعوة ربه، فاستجاب الله – تعالى – دعاء نبيه وأعطاه من «التوفيق والتسديد مع لباس التقوى ، وطابع النبوة .. ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، ومايغشيهم الله به من القبول والمهابة ... إلى أن حل تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة ، وأسقط تلك المحنة» [١٦] .

ويستدل الجاحظ على أن الله – سبحانه وتعالى – استجاب دعاء نبيه ، وأعطاه من البيان ماطلب بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾[١٧] . قال : «فلم تقع الاستجابة على شئ من دعائه دون شئ لعموم الخبر» [١٨] .

فموسى – عليه السلام – لما دعا ربه هذا الدعاء ، وأيضاً لما قال: ﴿ وَيَضِيقُ

---

(١٥) البيان والتبيين ١/١٤ ، ١٥ .
(١٦) المرجع السابق – الموضع السابق .
(١٧) طه . الآيات : ٢٥–٣٦ .
(١٨) البيان والتبيين ١/٨ .

صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾[١٩] لم يقل ذلك إلا رغبة منه فى غاية الإفصاح بالحجة ، والمبالغة فى وضوح الدلالة ؛ لتكون الأعناق إليه أميل ، والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع ، وإن كان قد يأتى من وراء الحاجة ، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة»[٢٠] .

ولايفوتنا – فى هذا الصدد – أن نشير إلى حكمة الله – تعالى – فى هذه المحنة التى امتحن الله بها نبيه موسى – عليه السلام – ، فالله – سبحانه وتعالى – لايخلو فعله من حكمة ومصلحة ، «وله أن يمتحن عباده بما شاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المحبوب والمكروه ، ولكل زمان ضرب من المصلحة ، ونوع من المحنة ، وشكل من العبادة» [٢١] .

فحكمة الله – تعالى – فى ابتلائه موسى – عليه السلام – على ما أشار الجاحظ ، تتناسب مع الزمن الذى بعث فيه موسى ، وتتفق مع ماكان عليه قومه ، ويبدو أن قومه لما كانوا أهل صناعة وسحر لم تتجه أنظارهم إلى البيان وما له من عظيم الشأن ، ومن ثم لم يدرك موسى – عليه السلام – عظم هذه النعمة وأهميتها إلا بعد تكليفه بالدعوة ، وتعرضه لقومه ودفاعه عن دين الله ، فأراد الله – تعالى – أن يبين لنبيه فضل هذه النعمة العظيمة ، فامتحنه بهذا البلاء ، ثم كشفه عنه وأزال غمته بعد أن دعاه وتضرع إليه .

سابعاً : إن العى والحصر – وهما ضد البيان – مذمومان فى كل وقت وعلى كل لسان ، فالله – سبحانه وتعالى – «ضرب مثلاً لعى اللسان ، ورداءة البيان حين شبه أهله بالنساء ، فقال تعالى : «أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين»[٢٢] .

قال العلامة الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : «أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته ، وهو أنه (ينشأ فى الحلية) أى يتربى فى الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ، ومجاراة الرجال كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولايأتى ببرهان يحتج به من يخاصمه ، وذلك لضعف عقول النساء ،

---

(١٩) الشعراء . ى : ١٣ .
(٢٠) البيان والتبيين ٧/١ .
(٢١) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٢٢) الزخرف . ى : ١٨ ، وانظر البيان والتبيين ١٢/١ .

ونقصانهن عن فطرة الرجال ، يقال : قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم إلا تكلمت بالحجة عليها» (٢٣) .

فالله – سبحانه وتعالى – ذم العى وعدم الإفصاح عن الحجة ؛ حيث شبه أهله بمن يتربون فى الزينة ويحيون حياة النساء فلايقدرون على الإبانة والاحتجاج .

ولما كان موضوع الكتاب عن البيان وأدواته بدأه الجاحظ بمقدمة استهلها بالاستعاذة بالله من العى والحصر «فقديماً تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما» (٢٤) .

وينقل الجاحظ فى ذلك أقوالاً كثيرة من شعر الشعراء ، ونثر الأدباء . وكلام الحكماء ليستدل على أن العى والحصر كلاهما مذموم على كل لسان سواء فى ذلك عند العرب أو العجم ، ومن هذه الأقوال :

قول النمر بن تولب :

أعـذنى رب من حـصـر وعـى	ومن نفس أعـالجـها عـلاجـا

وقول أحيحة بن الجلاح :

والصـمت أجـمل بالفـتى	مـا لـم يـكن عى يشـينه
والقـول ذو خـطل إذا	مـا لـم يكن لب يعـينه

وقول حميد بن ثور الهلالى :

أتانا ولم يعـدله سـحبـان وائل	بيـانـا وعلـمـا بالذى هو قـائل
فـمـا زال عنه اللقم حـتى كـأنه	مـن الـعى لـمـا أن تكلم باقل

ويعلق الجاحظ على هذا القول الأخير بقوله : «سحبان مثل فى البيان ، وباقل مثل فى العى ، ولهما أخبار» (٢٥) .

وهذا التعليق يدل على إدراك الجاحظ التام لفضيلة البيان وأهله وذم العى وأهله ، ومن ذلك نوه بفضل سحبان وأنه يضرب به المثل فى البيان ، وأبرز انحطاط شأن باقل الذى ضرب به المثل فى العى والحصر .

---

(٢٣) الكشاف ٢٤٣/٤ .
(٢٤) البيان والتبيين ٣/١ .
(٢٥) المرجع السابق ٦/١ .

ومن أخبار سحبان التى أشار إليها الجاحظ «أنه قدم على معاوية وفد خراسان ، فطلب سحبان فلم يجده فى منزله ، فجاؤوا به من حيث كان وأدخل عليه ، فقال له معاوية : تكلم . فقال : أحضروا إلى عصا ، قالوا : وماتصنع بها ، وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ماكان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية وأمر له بها ، فلما جاءته ركلها ولم ترق فى نظره ، فجاءوه بعصاه ، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ماتنحنح ولاسعل ولاتوقف ولاتلكأ ، ولاابتدأ فى معنى، وخرج منه وقد بقى فيه شيء ، فمازالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون، فأشار إليه معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : لاتقطع على كلامى ! فقال معاوية : الصلاة ! قال : هى أمامك ! نحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، قال سحبان : والعجم ، والجن والإنس» (٢٦) .

ومن أخبار باقل – أيضاً – أنه بلغ من عيه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبى ؟ فمد يديه ودلع لسانه ، يريد أحد عشر ، فشرد الظبى (٢٧) .

ولم يكتف الجاحظ – فى ذم العى والحصر – بهذه الأقوال التى رواها عن العرب ، بل ينقل عن العجم أقوالاً كثيرة تؤكد أن ذمهما مما لايختلف عليه مهما اختلفت اللغات وتباينت الأجناس . فمن ذلك مايرويه عن بزر جمهر بن البختكان الفارسى أنه قيل له : أى شئ أستر للعى ؟ فقال : عقل يجمله ، قالوا : فإن لم يكن له عقل ، قال : فإخوان يعبرون عنه ، قالوا : فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ ، قال: فيكون عيياً صامتاً ، قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ، قال فموت وحى خير له من أن يكون فى دار الحياة» (٢٨) .

ونرى الجاحظ – فى موضع من كتابه – يحذر من سلاطة اللسان ، ويروى فى ذلك أقوالاً ، كقوله – ﷺ – : «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقرة بلسانها» (٢٩) وقول الشاعر .

وجرح السيف تدمله فيبرا ... ويبقى الدهر ماجرح اللسان (٣٠)

(٢٦) تاريخ الأدب العربى ، للأستاذ أحمد حسن الزيات ص : ١٨٨ ، ١٨٩ .
(٢٧) مجمع الأمثال ٤٣/٢ .
(٢٨) البيان والتبيين ٧/١ .
(٢٩) المرجع السابق ١٧٢/١ .
(٣٠) المرجع السابق ١٦٧/١ .

وعلى الرغم من هذا التحذير إلا أننا نجده يصرح بأن «مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة ليست بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة ، والناس لايعيرون الخرس ، ولايلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ، ويؤنبون العى ، فإن تكلفا – مع ذلك – مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب» (٣١) .

هذه أدلة الجاحظ ، التى ساقها لبيان أهمية البيان وفضله وعلو شأنه ، وكلها توضح أن هذا الفضل ، وذاك الشأن لايختلف عليهما اثنان ذوا عقل ، حتى الذين كرهوا البيان لم يكرهوا البيان نفسه . وإنما كرهوا ماقد يكون فيه من إظهار للباطل وغمط للحق ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وواضح – مما سبق أن الجاحظ قد بسط الحديث فى توضيح فضل البيان وأهميته ، وكشف عما للبيان من مزايا وخصائص ، وعن تمجيد الله – تعالى – ونبيه – ﷺ – وإشادة العلماء ، والحكماء والفلاسفة ، وكل من يتعرض لصناعة الكلام به ، وبما له من عظيم الأثر ، كما أن فى ذمه العى والحصر دليلاً قاطعاً على أن البيان احتل فى نفس الجاحظ مكانة سامية ، فقد سبق أن أوضحنا أنه قدم سلاطة اللسان والهذر عليهما .

وهو إذ يقدم هذا العرض المستفيض فى معنى البيان وأهميته ، فإنما يعنى بهذا التمهيد لما قصده وهدف إليه من كتابه ، وهو الدفاع عن البيان العربى ، وبيان أنه منحة منحها الله – تعالى – لهم ، دون سواهم من الأمم .

* * *

(٣١) المرجع السابق ١٢/١ .

المبحث الثالث
البيـــان مقصـــور علـى العـــرب

سبق أن أشرت - فى مدخل هذا الباب - أن الدافع الأساسى الذى دفع الجاحظ إلى تأليف كتابه «البيان والتبيين» هو رد عادية الشعوبية عن العرب وبيانهم ، الذى هو موضع فخرهم ومناط اعتزازهم .

والجاحظ عربى غيور على قومه ، وعلى لغتهم وبيانهم ، فلم يكن ليقبل أن يترك لهؤلاء الشعوبيين أن ينالوا من البيان العربى ، أو يقذفوه بسهامهم الطائشة .

وقد أخذ على عاتقه أن يقف فى وجه هؤلاء ، وأن يفند حججهم ، ويثبت للعرب كل فضيلة ، وأن البيان صفة خصهم الله بها .

فيبدأ بعرض حجج هؤلاء الخصوم ، ومطاعنهم على خطباء العرب ، تمهيداً لتنفيذها ، والرد عليها وبيان بطلانها . فيذكر أنهم أخذوا على العرب اتخاذ «المخصرة[١] عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذى لم يقف ، وبالأرجاز عند المتح [٢] ، وعند مجاثاة الخصم [٣] ، وساعة المشاولة[٤] ، وفى نفس المجادلة والمحاورة ، وكذلك الأسماع عند المنافرة والمفاخرة[٥] ، واستعمال المنثور فى خطب الحمالة [٦] ، وفى مقامات الصلح وسل السخيمة [٧] ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة [٨] ، وترك اللفظ يجرى على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ، ولااجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولاتكلف لوزن ، مع الذى عابوا من الإشارة بالعصى ، والاتكاء على أطراف القسى ، وخدوجه الأرض بها ،

---

(١) المخصرة : ما اختصره الإنسان بيده فأمسكه ، من عصا أو مقرعة أو عكازة .
(٢) المتح : الاستسقاء من أعلى البئر .
(٣) المجاثاة : الجلوس على الركبتين للخصومة .
(٤) المشاولة : أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرماح .
(٥) المنافرة : التفاخر بكثرة عدد القوم ومكانتهم .
(٦) الحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم .
(٧) السخيمة : الحقد والضغينة ، وسلها : انتزاعها .
(٨) المعاقدة : المعاهدة والميثاق .

واعتمادها عليه إذا اسحنفرت فى كلامها [٩] ، وافتنت يوم الحفل فى مذاهبها ، ولزومهم العمائم فى أيام الجموع ، وأخذ المخاصر فى كل حال ، وجلوسها فى خطب النكاح ، وقيامها فى خطب الصلح ، وكل مادخل فى باب الحمالة، وأكد شأن المحالفة، وحقق حرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم فى المواسم العظام ، والمجامع الكبار.. والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح [١٠] ، وأخذ العهد المؤكد واليمين الغموس [١١] ، مثل قولهم : ماسرى نجم وهبت ريح» [١٢] .

وهذه المزاعم التى ذكرها الجاحظ لهؤلاء الشعوبيين تتصل ببيان العرب ، وتطعنهم من الجهة التى يفتخر بها العرب ؛ وبخاصة فن الخطابة الذى يعد من ألمع فنون الأدب عندهم ؛ حيث تعددت مجالاتها ، والمواقف التى تطلبها وتستدعيها من منافرة ومفاخرة وحمالة وصلح وغيرها .

وقد كانت عادة خطباء العرب اتخاذ المخاصر والعصى ، والاتكاء على أطراف القسى ، ولم يغفل الخصوم أن يطعنوا على العرب هذه العادات التى اعتادوها فى إلقاء بيانهم .

ويرخى الجاحظ العنان لخصمه ، ويتركه ليبرز حجته ، ويلقى ماعنده ، فيذكر أنهم قالوا : «إن الخطابة شئ فى جميع الأمم ، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة ، حتى أن الزنج مع الغثارة [١٣] ، ومع فرط الغباوة ، ومع كلال الحد ، وغلظ الحس ، وفساد المزاج لتطيل الخطب ، وتفوق فى ذلك جميع العجم ، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل ، وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاماً ، وأسهلهم مخرجاً ، وأحسنهم دلاً ، وأشدهم فيه تحكماً أهل مرو» [١٤] .

فالعرب – فى نظر هؤلاء الشعوبيين – إذ يفخرون بخطبائهم إنما يفخرون بشئ اشتهر به غيرهم من الزنج والفرس ، وهو موجود عند جميع الأمم ، وفى كل العصور، فليس هناك موضع لافتخار العرب ببيان أو خطابة .

ولايمل الجاحظ ذكره هذه الأوهام الباطلة ، والحجج المزعومة ، ويسير فى

(٩) اسحنفر فى كلامه : مضى فيه .
(١٠) الملح : الحرمة .
(١١) اليمين الغموس : التى لا استثناء فيها .
(١٢) البيان والتبيين ٣/٦ ، ٧ .
(١٣) الغثارة : الحمق والجهل .
(١٤) البيان والتبيين ٣/١٢ ، ١٣ .

الشوط إلى مداه ، ويترك الحبل لخصمه فى تقرير أصالة هذه الأمم – عدا العرب – فى باب الخطابة والبيان والبلاغة ، فيذكر أنهم قالوا : «من أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر فى اللغة فليقرأ كتاب «كاروند» [١٥] ومن احتاج إلى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات [١٦] ، والألفاظ الكريمة ، والمعانى الشريفة فلينظر فى سير الملوك ، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وخطبها ، وعللها وحكمها ، وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلتها الحكماء ، بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند فى حكمها وأسرارها وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم عرف أين البيان ، وأين البلاغة ، وأين تكلمت تلك الصناعة ، فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعانى ، وتميز الأمور أن يشيروا بالقنا والعصى والقضبان والقسى . كلا ، ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم» [١٧] .

فهؤلاء الشعوبيون يقصرون كل علم عليهم وعلى أممهم ، حتى البيان والبلاغة وصناعتهما فإنها لأممهم خاصة ، ولم يصل إليها العرب ؛ حيث زعموا أنهم رعاة الإبل والغنم ، فلايرقون إلى مصاف هذه الأمم وفلسفاتها وبيانها ، ولو كانت هذه الأمم – التى لها باع طولى فى البيان والبلاغة – ترى فى اتخاذ العصى والقسى وجهاً لما تغافلت عنها .

ويبدو أن تحامل الشعوبيين على فن الخطابة عند العرب كان أكثر وأشد إيلاماً من الفنون الأدبية الأخرى ، وواضح – أيضاً – أنهم وجهوا سهامهم إلى الخطابة ؛ لأنها فن تصدر فيه الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، فإذا مانفذت سهامهم إلى هذه الطبقة العالية كانت سهلة النفاذ إلى غيرهم من الكتاب والشعراء الذين هم فى المرتبة التالية .

ولذا فإن الجاحظ – فى عرضه لمزاعمهم ، وفى رده عليهم أيضاً – وإن تعرض للبيان بكل فنونه وألوانه عند العرب ، إلا أنه يبدو أكثر تركيزاً على فن الخطابة بصفة خاصة .

وينسلخ من تقرير هذه المزاعم للرد عليها ودفعها بحججه القوية ، فيذكر أنا

---

(١٥) كاروند : كلمة مكونة من مقطعين «كار» ومعناها : الصناعة ، و «وند» ومعناها : المديح .

(١٦) المثلات : جمع المثلة ، وهى العقوبة والتنكيل .

(١٧) البيان والتبيين ١٤/٣ .

«لانعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة، لاتضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق [١٨] نفسه بكي اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه ، وهم يزعمون أن جالينوس [١٩] كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ، ولابهذا الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأى وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم»[٢٠] .

وهذا إحصاء دقيق للأمم التى عرفت حتى عصر الجاحظ ، وما اشتهرت به كل أمة من هذه الأمم ، فالهند اشتهرت بمعانيها وحكمها وكتبها المخلدة ، أما البيان فإنها لم تعرف هذه المفخرة التى عرفها العرب وأجادوها ، وكذلك أمة اليونان ، وعلى رأسهم أرسطو ، لم يشتهروا فى باب البيان والبلاغة ؛ بل إن أرسطو نفسه كان بكى اللسان ، وإنما اشتهرت هذه الأمة بالفلسفة والمنطق ، أما الفرس فقد اعترف الجاحظ أن فيهم خطباء ، ولكنه عاد فقرر – بما لايقبل الشك – أن كل كلامهم وكل كلام للعجم – بصفة عامة – ليس طبعاً فيهم ، وإنما يأتى عن اجتهاد رأى ، وطول خلوة وتفكر ودراسة .

ويبقى حكمه على العرب ، فيقرر : «أن كل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولامكابدة ، ولا إجالة فكر ولااستعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة ، أو المناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى إرسالاً [٢١] ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لايقيده على نفسه ، ولايدرسه أحداً من ولده ، وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لايتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه

---

(١٨) صاحب المنطق : يعنى أرسطو .

(١٩) جالينوس : كان إمام عصره فى الطب ، فى حوالى القرن الثانى الميلادى . وله مؤلفات كثيرة فى الطب .

(٢٠) البيان والتبيين ٣/٢٧ ، ٢٨ .

(٢١) الإرسال : جمع الرسل ، وهو الفوج .

من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كل من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ماعلق فى قلوبهم ، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولاقصد ، ولاتحفظ ولاطلب» (٢٢) .

والجاحظ – بهذا الحكم – يؤكد الفارق الجوهرى الذى تتفاضل به الأمم ، وتظهر منن الله على عباده .

فالعرب مطبوعون، لا يتكلفون بيانهم ، وليست هناك معاندة أو مكابدة، فقلوبهم متصلة بعقولهم من غير تكلف ولا قصد، وبيانهم ليس وليد دراسة .

ويحيل الجاحظ خصمه إلى ماساقه فى كتابه من أدبهم – سواء المنظوم أو المنثور – فهو دليل على بيانهم المطبوع ، فلايدرسه سابقهم للاحقهم . «فإن شيئاً هذا الذى فى أيدينا جزء منه لبا لمقدار الذى لايعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون» (٢٣) .

وقد يظن من يتابع الجاحظ فى هذه القضية وعرضه لها أنه وصل إلى غايته وحقق هدفه ، ولكنا نراه يؤكد هذه القضية ، ويدعم حكمه فى إثبات الفرق بين العرب وبين غيرهم ، وأن البيان عند العرب بديهة وارتجال بدليل مادى لايقبل الجدال فهو «لايستطيع أن يعلم أن الرسائل التى بأيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبى عبيد الله ، وعبدالحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، وصنعوا مثل تلك السير» (٢٤) .

أما العرب ، فإنه يحيل الخصوم ومن تسول له نفسه الطعن على بيانهم ، وماخلفوه من شعر ورجز وسجع ونثر وغيرها إلى واقعهم الذى يعيشون فيه ، فمن يشك فى بيانهم يمكنه – بسهولة – الوقوف على أصالة معدنه ، وتغلغله فى دمائهم ، فيقول : «ونحن – أبقاك الله – إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج ومالايزدوج ، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب والسبك والنحت ، الذى لايستطيع أشعر الناس اليوم ، ولاأرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير ،

(٢٢) البيان والتبيين ٢٨/٣ ، ٢٩ .
(٢٣) المرجع السابق ٢٩/٣ .
(٢٤) المرجع السابق – الموضع السابق .

والنبذ القليل .. ومتى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، وأوقفته على شاعر مغلق ، أو خطيب مصقع علم أن الذى قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عياناً ، فهذا فرق مابيننا وبينهم» (٢٥) .

والجاحظ فى عرضه لقضية البيان العربى ، وطريقة تفنيده لأركان هذه القضية يبدو متكلماً من الطراز الأول ، وفيلسوفاً فى أرقى درجات الفلسفة ، وأديباً صاحب ذوق رفيع ، وعالماً واسع العقل والاطلاع والثقافة ، وهو إلى جانب ذلك يبدو منطقياً صاحب فكر عميق ، يدرك إدراكاً تاماً كيف يعالج قضيته ، وكيف يعرضها ، ومن أين يبدأ ، وإلى أى شئ ينتهى ، وكيف يسير فى عرضه للقضية ، فهو يلم بأطراف موضوعه إلى أن يصل إلى حكمه الذى لايستطيع لأحد أن يعترض عليه فيه .

ولم يكتف الجاحظ فى حكمه بسلب البيان عن سائر الأمم ، وقصره على العرب وحدهم عن طريق تفنيد الحجج وسوق الأدلة والبراهين ؛ بل أثبت خلاصة ذلك فى صورة صريحة ، واضحة تكون بمثابة شعار يحفظه هؤلاء الخصوم وغيرهم بعد أن سقط فى أيديهم ، ودحضت حجتهم ، وباؤوا بالخسران والخيبة والفشل فى انتقاص العرب قدرهم أو النيل من شأنهم ، فقرر أن «البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان» (٢٦) .

ومعروف أن «البديع» كلمة أطلقت فى ذلك العصر - أو قبله بقليل - على محاسن الكلام وخصائص الأدب المميزة له ، على ماسنوضح ذلك فى موضعه إن شاء الله .

ويتضح - مما سبق - أن الأدلة التى ساقها الجاحظ لإثبات البيان العربى وتأكيده ، ونفى البيان - جملة - عن جميع الأمم هى أدلة عقلية ، على طريقة أهل الكلام ، أبرزها فى صورة منطقية رائعة .

ولم يكتف بهذه الأدلة العقلية التى أفحمت الخصوم وألزمت كل من يشكك فى بيان العرب وفصاحتهم الحجة الدامغة ، بل يسوق الكثير من الأدلة النقلية من القرآن الكريم . «فالله - سبحانه وتعالى - ذكر لنبيه - عليه السلام - حال قريش فى بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وذكر العرب ومافيها من الدهاء والنكراء

---

(٢٥) البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٢٦) المرجع السابق ٤/٥٥ ، ٥٦ .

والمكر ، ومن بلاغة الألسنة ، واللدد عند الخصومة ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ (٢٧) ، وقال : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (٢٨) ، وقال : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (٢٩) ، وقال : ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (٣٠) ، ثم ذكر خلابة ألسنتهم ، واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم ، فقال : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (٣١) ، ثم قال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣٢) ، مع قوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ (٣٣) .

ولعل الجاحظ أراد بذكر هذه الأدلة القرآنية على بلاغة العرب وبيانهم أن يجد هؤلاء الشعوبيون وازعاً من دينهم الذى اعتنقوه وآمنوا به وصدقوا كتابه ما يردهم إلى صوابهم ، ويكشف وجه الحق أمامهم فى هذه القضية .

وقد كان للجاحظ ما أراد ، فقد استطاع أن يصل إلى هدفه فى تأكيد البيان العربى ، وأنه فى قومه ، مقصور عليهم ، وأن يحكم على الأمم الأخرى فى إنصاف وعدل ، دون جور أو ظلم ، وأن يوضح أن البلاغة والبيان والبديع منحة خص الله بها العرب دون غيرهم .

* * *

(٢٧) الأحزاب . ى : ١٩ .
(٢٨) مريم . ى : ٩٧ .
(٢٩) البقرة . ى : ٢٠٤ .
(٣٠) الزخرف ، ى : ٥٨ .
(٣١) المنافقون . ى : ٤ .
(٣٢) البقرة . ى : ٢٠٤ .
(٣٣) البقرة . ى : ٢٠٥ .

المبحث الرابع
البيان صناعة تقوم على أصول وضوابط

البيان عند الجاحظ – كما هو واضح مما سبق – ملكة يهبها الله تعالى – لمن يشاء من عباده فيستطيع أن يصدع بحجته فى المقامات والأحوال التى تقتضى الإبانة والإفصاح ، ويذكر – أيضاً – فى هذا قول صحار العبدى لمعاوية ، عندما سأله: «ماهذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : «شئ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا»[1] .

وعلى الرغم من هذا فإن الجاحظ يدرك تماماً أن البيان صناعة من الصناعات التى تحتاج إلى تعلم ورياضة ، وأن لها أدوات وآلات ينبغى طلبها ، فإذا فقدت هذه الأدوات والآلات لايستطيع فاقدها أن يدعى أنه صاحب بيان ؛ لأن البيان – كما قال – «يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ماتستمال به القلوب ، وتثنى به الأعناق ، وتزين به المعانى» [2] .

فالبيان – عنده – صناعة تقوم على أصول وضوابط لها آثارها البعيدة فى خلود الأدب ، وفى سهولة حفظه ، وجريه على ألسنة الناس ، ولولا هذه الضوابط التى تقوم عليها هذه الصناعة لاندثر الأدب فى كل العصور ، كما يندثر سائر الكلام المنثور ، فلم يحفظ ويروى إلا ماقام على أساس من الصنعة .

ويروى الجاحظ فى ذلك أنه قيل لعبد الصمد بن عيسى الرقاشى : «لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، وبقلة التفلت، وماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولاضاع من الموزون عشره» [3] .

---

(١) البيان والتبيين ٩٦/١ .
(٢) المرجع السابق ١٤/١ .
(٣) البيان والتبيين ٢٨٧/١ .

وصناعة البيان - عنده - ليست كسائر الصناعات ، بل إن هذه الصناعة ينبغى الحذق فيها والإلمام بأطرافها ، ولايجدى معرفة بعض أدواتها والجهل بالبعض الآخر ، فهى - عنده - أشبه بصناعة الطب التى يجب على من تكلفها أن يكون من الحذاق فيها أو يتركها تركاً تاماً .

فنراه يقول : «إن أصلح الأمور لمن تكلف علم الطب ألا يحسن منه شيئاً ، أو يكون من حذاق المتطببين ، فإنه إن أحسن منه شيئاً ولم يبلغ فيه المبالغ هلك وأهلك أهله ، وكذلك العلم بصناعة الكلام ، وليس كذلك سائر الصناعات ، فليس يضر من أحسن باب الفاعل والمفعول به . وباب الإضافة وباب المعرفة والنكرة أن يكون جاهلاً بسائر أبواب النحو ، وكذلك من نظر فى علم الفرائض ، فليس يضر من أحكم باب الصلب أن يجهل باب الجد ، وكذلك الحساب . وهذا كثير» (٤) .

وكلامه هذا يعطينا دلالة واضحة على أن البيان صناعة يجب على من يتعرض لها أن يلم بها إلماماً تاماً من جميع أطرافها ، وأن يكون حاذقاً فى فهمه لهذه الصناعة .

وإذا كنا نراه يربط بين البيان والطب ، فيعقد بينهما شبهاً فى أن كلاً منهما ينبغى إما الإجادة فيه وحذقه حذقاً تاماً أو تركه جملة ، وإذا كنا نعلم أن الطب صناعة تقوم على قوانين ونظريات علمية وأصول مضبوطة ، فإن البيان - عند الجاحظ - علم له قوانينه وضوابطه وأصوله ومقاييسه التى يجب الحذق فيها حذقاً كاملاً أو الانصراف عنها انصرافاً تاماً .

ويؤكد رأيه فى أن البيان صناعة ، فيذكر أن «من الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين .. وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة» (٥) .

وقد سبقت الإشارة إلى أنه يعنى بالبديع وسائل تصنيع الأدب والأسس والضوابط التى تقوم عليها هذه الصناعة . ولهذا زيادة إيضاح ستأتى قريباً .

والجاحظ - بهذا - يعد صاحب مذهب فى صناعة الأدب والبيان ، اعتنقه

---

(٤) المرجع السابق ٤/٤٠ .
(٥) المرجع السابق ١/٥١ .

ودعا إليه ، فهو فى الواقع بحث فى الوسائل التى يقوم عليها البيان وتقوم عليها صناعة الأدب ، ويتفاضل بها الأدباء ، وليست تلك الوسائل إلا المهارة فى التعبير عن معانيهم ، وإبراز قدراتهم فى الصياغة ، وحوك الأساليب الرفيعة .

وإذا كنا نجده قد قدم فى كتابه هذا البحث المستفيض فى وسائل تصنيع البيان، فهو أيضاً بحث فى فنية الأدب ، ووسائل هذه الفنية ،والبحث فى الفنية هو بحث فى الابتكار ، وفى الاستعداد الموصل إليه ، وفى الوسائل التى تتخذ للوصول إلى شئ مبتكر قد يكون موجوداً ، وقد يكون غير موجود ؛ لأن الفنية موجودة فى نفس مبتكرها ، لا فى طبيعة الأشياء المتحدث عنها ، والفنان يستطيع أن يبتكر جمالاً من شئ لاجمال فيه ، وأن يضفى جمالاً على شيء ليس جميلاً فى ذاته ، وليس موضعاً للجمال ، فإذا وصفنا الأشياء وصفاً مادياً كما هى فى الواقع وفى الطبيعة ، كأن نقول : السماء زرقاء ، والشمس حارة أو مضيئة ، فليس هناك فن ، وليس هناك استعداد فنى ؛ لأنه لابتكار ، وثم لافنية ، وليست هناك فنية فى الأشياء الموجودة بالضرورة ، ولافى الأشياء اللازمة لزوماً عقلياً ؛ لأن مثل هذه الأشياء لها عناصرها فى الطبيعة ، ومازدنا على الطبيعة شيئاً[٦] .

وإذا كان البيان – عند الجاحظ – صناعة لها وسائلها ومقاييسها التى تقوم عليها ، فقد أخذ يعرض فى كتابه الكثير من ضوابط البيان ومقاييسه ، وأصول البلاغة وحدودها ، مما نراه واضحاً – إن شاء الله – فيما سنعرض له من الفصول التالية من هذا الباب .

* * *

---

(٦) مقدمة كتاب الخطابة ، ص٢٨ .

الفصل الثاني

الفصاحة والبلاغة

إن المطلع على كتب البلاغة عند المتأخرين يجد أن المصطلحات البلاغية – وبخاصة مدلولات المصطلحات العامة كالفصاحة والبلاغة – يجدها محددة ومضبوطة ، فلكل منها تعريف ومقياس جامع له ومانع من دخول غيره فيه .

فالفصاحة – عند المتأخرين – ثلاثة أقسام : فصاحة المفرد ، وفصاحة الكلام، وفصاحة المتكلم ، ولكل منها تعريف خاص .

ففصاحة المفرد هى : خلوصه من عيوب ثلاثة : تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .

وفصاحة الكلام هى : خلوصه من عيوب ثلاثة : تنافر الكلمات ، وضعف التأليف ، والتعقيد اللفظى والمعنوى ، مع فصاحة كلماته المفردة .

ولكل عيب من هذه العيوب – سواء مايتعلق بفصاحة المفرد أو فصاحة الكلام – حد ، وضابط لايخرج عنه عندهم .

وفصاحة المتكلم هى : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح .

أما البلاغة ، فهى – عندهم – قسمان : بلاغة الكلام ، وهى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وفصاحة أجزائه .

وبلاغة المتكلم هى : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ [١] .

وإذا كانت هذه ضوابط المتأخرين ، حسبما اقتضته ثقافتهم وطبيعة عصرهم فى البحث والتفكير ، فظلم للجاحظ أن نطلب منه أن يقدم لنا ضوابطه البلاغية ، وتحديده لهذه المصطلحات على نحو ماقدمها البلاغيون من بعد [٢] ، فعقليته الواسعة ، وثقافته المتنوعة ، وطبيعة عصره لابد لكل هذا أن يجعل له طابعه الخاص فى عرضه لمقاييس البلاغة وضوابطها والتى لاتتلاءم مع هذا التحديد والتقسيم .

وعلى الرغم من هذا فإن من يمعن النظر فيما ساقه الجاحظ من مدلولات هذه

---

(١) انظر هذه الضوابط فى الإيضاح ١٢/١ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) أى المتأخرون من علماء البلاغة .

الألفاظ يجد أن أصول هذه الضوابط التى حددها البلاغيون – بعد – كانت من وحيه، حتى تقسيماتهم لهذه المصطلحات كانت بإلهام منه .

وإن من يمعن النظر – أيضاً – فى مدلولات هذه الألفاظ – عنده – لايجد خلطاً بين أقسامها أو تعريفاتها المتعددة التى عرض لها فى كتابه .

وقد تهافت كثير من الباحثين والكاتبين فى تاريخ البلاغة ورجالها ، فعدوا الجاحظ مضطرباً ومختلطاً فى تحديد هذه المفاهيم والمدلولات .

فيذكر بعض الكاتبين أن «مصطلح البلاغة أورد له الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» عدداً وفيراً من التعريفات التى لايكاد تعريف منها يلتقى بآخر ، والتى لاتكاد فى مجملها تلتقى بالتعريف الذى حدده البلاغيون لهذا المصطلح» (٣) .

كما يذكر أن الجاحظ يخلط بين مصطلح «البلاغة» وغيره من المصطلحات ، كمصطلح «الفصاحة» (٤) .

ويذكر كاتب آخر أن «الجاحظ فى كل ماذكر لايضع بين «البلاغة» و «الفصاحة» حداً فاصلاً ، فكثيراً ما تأتيان مترادفين ، وهما عنده : البيان ، بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون» (٥) .

والواقع أن هذا ظلم كبير للرجل وجهده البلاغى ، فعلى الرغم من أن مفاهيم هذه المصطلحات لم تكن قد أخذت طابع التحديد والتقسيم ، إلا أننا نرى أن الجاحظ فرق فى نظرته بين هذين اللفظين – أعنى الفصاحة والبلاغة – بل إن الفرق – عنده – واضح بين مدلولات كل من «البيان والفصاحة والبلاغة» .

وقد سبق أن بسطنا القول فى معنى البيان عنده – فى مبحث خاص – وعرفنا أن له مفهوماً واضحاً ومعنى محدداً لالبس فيه ولاغموض . وبالنظر – أيضاً – فيما سبق عرضه نجد أن هذا المعنى الذى حدده للبيان يختلف عن معنى كل من الفصاحة والبلاغة .

فإذا كانت غاية البيان – عنده – هى الفهم والإفهام مع حسن الاختصار وجودة العبارة ، فإن غاية البلاغة هى : الأدب والتعبير . وهو – أيضاً – فى البلاغة يبحث فى العبارة ، أو يبحث فى الأسلوب بخاصة . ويكفى دليلاً على التفرقة بينهما

---

(٣) انظر البلاغة العربية ص : ٣٨ .
(٤) المرجع السابق ص : ٤٠ .
(٥) مصطلحات بلاغية ص : ٤٤ .

أنه عقد لكل منهما باباً مستقلاً ، فقد عقد فى كتابه باباً نعته «باب البيان» ، ثم أردفه بباب آخر نعته «باب البلاغة» (٦) .

وهو حين يعرض للفصاحة فإنما يعنى براءة الكلام من العيوب التى تخرجه عن دائرة الكلام الحسن ، ولانكاد نجده يذكر البلاغة مقترنة بالألفاظ المفردة ، بينما نجده يدير حديثه عن الفصاحة فى حديثه عن الكلمات المفردة ، أو الألفاظ المجردة ، حسبما سنوضح ذلك إن شاء الله .

وعلى أساس من هذه التفرقة بين مدلول هذه الألفاظ يمضى الجاحظ فى عرض مقاييس الفصاحة والبلاغة ، وماينطوى تحتهما من تفاصيل وجزئيات وعيوب فى الكلمة أو الكلام ، ينبغى لمن يتعرض لصناعة الكلام ، أن يتجنبها ، ويبرئ كلامه منها .

وعلى هدى من تعريفاته وتقسيماته – التى لم يفصح عن بعضها صراحة وإنما أشار إليها – وجد المتأخرون أصول ضوابطهم وتقسيماتهم لهذين المدلولين .

ونبدأ مباحث هذا الفصل بعرض مقاييسه المتعلقة بالفصاحة ، سواء مايتعلق منها باللفظ المفرد ، أو بالكلام المركب ، أو بالمتكلم والأديب .

* * *

(٦) البيان والتبيين ٢٠٣/١ .

المبحث الأول
فصاحة المفرد

إن الأديب أو المتكلم ينبغى لكل منهما أن ينظر فى الكلمة قبل دخولها فى التأليف والنظم . فيختار منها ماكان حسناً رائقاً ، لاعيب فيه ، ويطرح ماكان به عيب من العيوب التى تخل بفصاحته ، ويفسد بسببه الكلام .

وقد كانت عناية الجاحظ بهذه القضية عناية فائقة ، فاللفظ المفرد – عنده – يعد بمثابة اللبنة التى يقام منها البناء ، وعلى قدر مافيها من حسن يكون البناء حسناً رائقاً «وإذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر مافيها من الحسن» (١) .

وعلى الأديب أن يختار كلماته سليمة من العيوب ، محببة إلى النفوس . «ومتى كان اللفظ كريماً فى نفسه ، متميزاً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسنة الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره وعظم فى الناس خطره» (٢) .

وإذا كانت الخطابة أحد فنون الأدب العربى التى شغل بها الجاحظ فى كتابه ، دافع عنها ضد الشعوبيين – كما أشرنا من قبل – فإنا نجده ينبه الخطباء إلى اختيار ألفاظهم وانتقائها . «فرأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الأعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ» (٣) .

وقد أفاض الجاحظ فى كتابه الحديث عن اللفظ المفرد ، ومايطرأ عليه من عيوب تخل بفصاحته ويجدر بالأديب أن يطرحه من أدبه ، وهذه هى العيوب التى نبّه إليها :

أولاً : غرابة الكلمة :

من أهم العيوب التى تلحق اللفظ المفرد ، ونبّه إليها الجاحظ فى كتابه «الغرابة» ، وهى : كون الكلمة وحشية غريبة ، لايعرف معناها إلا بالشرح والبحث

(١) البيان والتبيين ٢٠٣/١ .
(٢) المرجع السابق ٨/٢ .
(٣) المرجع السابق ٤٤/١ .

والتفسير ، على مايفهم من كلامه ، ويدل عليه دلالة واضحة .

فنراه ينبه – فيما نقله عن بشر بن المعتمر – إلى هذا العيب ، محذراً من الوقوع فيه . فقد جاء فى هذه الصحيفة : «إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد» (٤) ، ثم يعلق على هذه العبارة بقوله : «أما أنا فلم أر – قط – أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً» (٥) .

وإذا كان الجاحظ يعبر عن اللفظ الغريب بأنه متوعر ، فإنه يصور استعماله بصورة من يركب طريقاً وعراً خشناً ، لايصل فيه السالك إلى مراده بسهولة ويسر ، فاستعمال اللفظة الغريبة ومافيها من تعمية وإبهام على السامع بحاجة إلى إيضاح ، حيث كان فهم المراد منها ليس سهلاً ميسوراً .

وتسميته وحشياً لأن النفوس تنفر منه كما تنفر من الوحش النافر ؛ أو لأن اللفظ نفسه ينفر من الكلام كالوحش النافر الذى لايستقر فى مكان .

ثم يروى الجاحظ طائفة من الكلام حولت ألفاظاً غريبة ، جعلت هذا الكلام ساقطاً وخارجاً عن دائرة الفصاحة . فمما يرويه من ذلك : «أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مراراً ، فقال له يحيى بن يعمر : أإن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها» (٦) .

وقبل أن يعلق على هذا النص بما يعبر عن استهجانه واستقباحه لهذا الغريب واستعماله ، يرى أن القارئ بحاجة إلى تفسير لهذا الغريب ، فيفسر له هذه الألفاظ ، حتى لايكد خاطره ، ويعيى ذهنه . «فالضهل : التقليل ، والشكر : الفرج ، والشبر : النكاح ، وتطلها : تذهب بحقها ، يقال : دم مطلول ، ويقال : بر ضهول : أى قليلة الماء» (٧) .

وبعد تفسير هذه المفردات يعلق بقوله : «فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب ، فألفاظ من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك ، ولو خاطب بقوله : «أإن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها» الأصمعى لظننت أنه سيجهل

---

(٤) البيان والتبيين ١٣٦/١ .
(٥) المرجع السابق ١٣٧/١ .
(٦) المرجع السابق ٣٧٨/١ .
(٧) المرجع السابق – الموضع السابق .

بعض ذلك ، وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم» (٨) .

وفى هذا التعليق ندرك إلى أى مدى وصل عمق فهمه لهذا العيب ، ومايحدثه من أثر سئ على فصاحة الألفاظ المفردة ، فهو يؤكد أن اللفظ الغريب بعيد كل البعد عن صفة الفصاحة ؛ ولذا فإن الكتاب يتحاشون هذه الألفاظ ، فهى ليست من أخلاقهم ولا من آدابهم .

ومما يرويه عن أبى الحسن فى قبح الغريب واستهجانه أنه «كان غلام يتقعر فى كلامه ، فأتى أبا الأسود الدؤلى يلتمس بعض ماعنده ، فقال له أبو الأسود : مافعل أبوك ؟ قال : أخذته الحمى ، فطبخته طبخاً ، وفنخته فنخاً ، وفضخته فضخاً ، فتركته فرخاً . فنفخته أضعفته ، والفنيخ : الرخو الضعيف ، وفضخته : دقته . فقال أبو الأسود : «فما فعلت امرأته التى كانت تهاره وتشاره وتجاره وتزاره ؟ قال : طلقها فتزوجت غيره ، فرضيت ، وحظيت وبظيت ، قال أبوالأسود : قد عرفنا رضيت وحظيت ، فما بظيت ؟ قال : حرف من الغريب لم يبغلك . قال أبوالأسود : يابنى ، كل كلمة لايعرفها عمك فاسترها ، كما تستر السنور خرءها» . تزاره : تعاضه ، والزر: المعض ، وحظيت : من الحظوة ، وبظيت : اتباع لحظيت» (٩) .

وهو بذلك يعبر عن قبح هذا العيب ؛ حيث صرح أن مثل هذه الألفاظ ينغلق معناها حتى على عالم ، كأبى الأسود أو الأصمعى ، وأن فى قول أبى الأسود للغلام (كل كلمة لايعرفها عمك فاسترها) يريد أن كل كلمة لايعرفها عمك فهى داخلة فى هذا المتوعر الوحشى . ولم يفت الجاحظ توضيح معانى تلك الألفاظ الغريبة ، ففسرها وأزال إبهامها .

ولايكتفى الجاحظ بإعلان سخطه على هذا المسلك حتى يفسر تلك الألفاظ الغريبة ؛ تأكيداً لاستقباح هذا المسلك ، وتخفيفاً على السامع من عناء التفتيش والتنقيب .

ويضرب المثل لاستعمال الغريب وقبحه فى الكلام بأبى علقمة – وهو نحوى كان يتقعر فى كلامه ويتشادق بالغريب – فيروى : «أن أبا علقمة هذا مر ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم منهم ، فأقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون له فى أذنه ، فأفلت منهم ، فقال : «ما لكم تتكأكئون على كما تكأكئون على ذى جنة ، افرنقعوا عنى ، قال : دعوه ، فإن شيطانه يتكلم بالهندية .. وهاج بأبى علقمة الدم

---

(٨) البيان والتبيين ١/٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٩) المرجع السابق ١/٣٧٩ .

فأتوه بحجام ، فقال للحجام : اشدد قصب الملازم ، وارهف ظباط المشارط ، واسرع الوضع وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولاتكرهن أبيا ، ولاتردن أتيا ، فوضع الحجام محاجمه فى جونته ثم مضى . فحديث أبى علقمة فيه غريب ، وفيه أنه لو كان حجاماً مرة مازاد على ماقال» (١٠) .

وقد أكثر الجاحظ من الأمثلة فى هذا المجال ، ويبدو أن إكثاره من الشواهد ، ومقته لهذا العيب جعله لايعلق على الكثير منها ولايوضح مافيها من غريب ، كشأنه فى بعض النصوص .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجاحظ لم يفته أن يعلل لقبح هذا العيب ، مما يدل على إدراكه الناضج لما يخل بفصاحة الألفاظ المفردة فيقرر أن «اللفظ الغريب والمستكره الذى يأتى عن تكلف وتشدد ، يكون أعلق باللسان ، وآلف للسمع ، وأشد التحاماً بالقلب من اللفظ النبيه الشريف (١١) .

وهو بهذا يفطن إلى دقيقة لم نجدها فى كتب المتأخرين من علماء البلاغة ، وهو التعليل لقبح هذا العيب وهجنته ورداءته بأن اللسان يتعلق به اللفظ القبيح ، ويكون من الصعب تخلصه منه ، كما أن الأذن تعيه ، والقلب يحفظه أكثر من اللفظ السليم البرئ من هذا العيب .

ومما يتصل بهذا العيب مقياس «الطبع والتكلف» سواء عند الشعراء أو الأدباء عامة ، وإذا كان كثير من نقاد الأدب وعلماء العربية قد أفاضوا الحديث فى هذا المقياس ، فإن الجاحظ قد أعطى هذه القضية حقها بما لايدع مجالاً لشبهة أو غموض .

مقياس الطبع والتكلف :

إن هذا المقياس من أهم المقاييس التى أطال نقاد العرب الحديث فيها ، وأكثروا من ترديده ، وقياس الأدب على أساسه ، ولكنك فى حاجة إلى الصبر والموازنة بين الأقوال حتى تصل إلى نتيجة أقرب ماتكون إلى الحق (١٢) .

---

(١٠) توضيح الغريب فى كلام أبى علقمة : تتكاكئون : تجتمعون ، الجنة : الجنون ، افرنقعوا : تفرقوا ، الملازم : جمع ملزم – بالكسر – وهو خشبتان مشدود أوساطهما بحديد ، تجعل فى طرفها قناة ، فتلزم مافيها لزوماً شديداً ، الجونة – بالضم – : سليلة مستديرة مغشاه أدما . وانظر البيان والتبيين ١/٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(١١) البيان والتبيين ١/٧٦ .

(١٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ص : ٤٨٣ .

وعلى الرغم من هذا فإن الجاحظ وضع فى هذه القضية أساساً متيناً ، وقال فيها القول الفصل ، الذى لايشوبه لبس أو التواء .

فهو فى نبذه للغريب وتحذيره منه نراه يحذر من التكلف – بصفة عامة – فى صناعة الأدب ، فيجب أن يكون الأديب مطبوعاً فى أدبه ، وأن يكون أدبه خالياً من التشدق والتقعير والتعقيب والاستكراه .

«فالأصمعى كان يفضل النابغة الجعدى من أجل ذلك ، وكان يقول : الحطيئة عبد لشعره ، فقد عاب شعره حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه» (١٣) .

وإذا كان العى مذموماً وقبيحاً ، فإن التشادق والتقعير – أيضاً – من العيوب التى تخل بالفصاحة ويجب تجنبها ، و«إن كان صاحب التشديق والتقعير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عيى يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة» (١٤) .

ويستشهد على ذم التكلف ، والميل مع الطبع والسهولة بما ورد عن الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – فى هذا المعنى «فما نشك أن النبى – عليه السلام – قد نهى عن المراء وعن التزيد وعن التكلف ، فقد قال – ﷺ – «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» ، وقال أيضاً «إياى والتشادق» (١٥) .

ويوضح الجاحظ معنى التشادق فيما رواه عن الرسول الكريم مبيناً العلة فى النهى عنه ، فيقول : «إنما عاب النبى – ﷺ – المتشادقين والثرثارين ، والذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها ، والأعرابى المتشادق ، وهو الذى يصنع بفكيه وبشدقيه مالايستجيزه أهل الأدب ، من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منكم – يعنى الكتاب – فهو أعيب ، والذم له ألزم» (١٦) .

وعند حديثه عن فصاحته – ﷺ – يذكر الجاحظ أنه – صلوات الله وسلامه عليه – إذا كان قد نهى عن التكلف وحث على الطبع والسهولة ، فإن كلامه كان

---

(١٣) البيان والتبيين ٢٠٦/١ .
(١٤) المرجع السابق ١٣/١ .
(١٥) المرجع السابق ٢٧٣/١ ، ٢١/٢ .
(١٦) المرجع السابق ٢٧١/١ .

تطبيقاً عملياً لذلك «فهو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله - تبارك وتعالى - : قل يامحمد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (١٧) ، فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعيب(١٨) ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولازلت به قدم ، ولابارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولاأفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولايلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولايحتج إلا بالصدق ، ولايطلب الفلج (١٩) إلا بالحق ، ولايستعين بالخلابة ، ولايستعمل المواربة ، ولايهمز ولايلمز (٢٠) ، ولايبطئ ولايعجل، ولايسهب، ولايحصر (٢١) ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولاأكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ولا أبين فحوى من كلامه - ﷺ - كثيراً» (٢٢) .

فالرسول - ﷺ - لم تمل نفسه للغريب ، ولم تألفه ، والأحاديث الواردة فى ذلك أكثر من أن تحصى ، فقد نزهه الله - سبحانه وتعالى - عن هذه الصفة ، وبرأ كلامه منها ، فكان يجرى مع الطبع الذى لاتكلف فيه ولا استكراه .

فاللفظ لايقع موقعه من الحسن ، ولايأخذ مكانه من القلب إلا إذا كان بعيداً عن التكلف ، موافقاً لطبيعة الشاعر . وينبه الجاحظ إلى ذلك بقوله : «ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمى عرضه من اعتراض العائبين ، وألا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة» (٢٣) .

---

(١٧) ص . ى : ٨٦ .
(١٨) التقعيب ، كالتقعير : أن يتكلم بأقصى قعر فمه .
(١٩) الفلج - بالفتح - الفوز والظفر .
(٢٠) الهمز : العيب فى الغيبة ، واللمز : العيب فى الحضرة .
(٢١) حصر فى كلامه : عيى فى كلامه .
(٢٢) البيان والتبيين ١٦/٢ ، ١٧ ، ١٨ .
(٢٣) المرجع السابق ٧/٢ ، ٨ .

وإذا كان الجاحظ صاحب مذهب فى الصنعة وتثقيف الأدب – كما أشرنا من قبل – فإن الصنعة – عنده – شئ غير التكلف والسماجة ، وإنما هى تهذيب وتحبير للأدب بعد طول التفكير وترديد النظر ، وهو شيء نادى به ، ودعا إليه وأشاد به . فيصرح بأن «من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوله الله – تعالى من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيداً ، وشاعراً مفلقاً» (٢٤).

ولذا فإن هؤلاء الأعراب الأقحاح – مع تجويدهم لشعرهم وتنقيحهم له – كانوا يميلون مع الطبع ، فجاء شعرهم لا استكراه فيه ولاتكلف ؛ بل جرى مع طبعهم وسجيتهم ، بينما نجد التكلف شأن المولدين ، فيقرر الجاحظ أنه «لم يجد فى خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ولامعانى مدخولة ، ولاطبعاً رديئاً ، ولا قولاً مستكرهاً ، وأكثر ما نجد ذلك فى خطب المولدين ، وفى خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال ، والاقتضاب ، أم كان من نتاج التحبير والتفكير» (٢٥) .

فالشعراء القدماء كانوا يهتمون بصناعة الأدب ويتفننون فى اختيار ألفاظهم ومعانيهم ، وينقحون كلامهم ، ويعيدون فيه النظرة ، طلباً للكمال ، وحرصاً على جودة الصناعة ، وليس هذا معناه التكلف أو الاستكراه ، وإنما هو تحبير وتثقيف بعد تقدير وطول نظر ، وربما صدر من هؤلاء بعض الألفاظ التى يستغلق معناها ، فليس معنى ذلك أنهم متشادقون أو متكلفون ؛ لأنهم يستعملون ألفاظهم التى تجرى مع سجيتهم وطبعهم .

ولذا فإن الجاحظ يفرق بين البدوى والحضرى فى استعمال الغريب ، واستخدام كل منهما له .

استعمال الغريب بين البدوى والحضرى :

وهو إذ ينادى بنبذ الغريب وهجر الوحشى ، فإنه يفرق بين البدوى فى استعماله للألفاظ الغريبة وبين الحضرى ، فنراه – بميله إلى الطبع والبعد عن التشادق والتكلف – يرى أن استخدام البدوى للغريب ليس فيه سماجة أو تكلف ، وإنما هو ميل مع طبعه

---

(٢٤) المرجع السابق ٢/٩ .

(٢٥) البيان والتبيين ٢/٨ ، ٩ .

وبيئته ، فلا قبح فيه ، ولامؤاخذة عليه ، أما الحضرى فإن استخدامه للغريب لايكون موافقاً لطبعه ، وإنما يكون عن تكلف واستكراه ، واستجلاب للشئ من غير معدنه .

فنراه فى معرض حديثه عن اللفظ الغريب يقول : «وكما لاينبغى أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لاينبغى أن يكون غريباً وحشياً ، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات»(٢٦) .

وإذا كان استخدام الغريب دليلاً على عجز صاحبه وبلادة فكره وحسه إلا أن ذلك مغتفر لأهل البادية والأعراب الخلص «فتخليص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض» (٢٧) .

والجاحظ – بهذا – يفطن إلى مذهب طالما تحدث عنه نقاد الأدب وصيارفة الكلام ، وهو أثر البيئة فى صناعة الأدب شعره ونثره ، فقد تنبه إلى أن البدوى عندما يستعمل الألفاظ الغريبة فإنه لايكلف نفسه شيئاً ، ولايخرج عن طبعه وسجيته ، وإنما هى ألفاظه التى لايعرف غيرها ، فقد أملتها عليه بيئته وطبيعته ، أما ساكن الحضر والقرويون فلهم ألفاظهم السهلة التى يفهمونها ، ويفهمها عنهم غيرهم ، فإذا ماتركوا هذه الألفاظ وتكلفوا ألفاظاً أخرى التقطوها من بطون الكتب أو من أفواه الأعراب كان ذلك خروجاً عن مقتضيات بيئتهم وسجيتهم ، وكان ذلك عيباً يخل بكلامهم ويخرجه عن دائرة الفصاحة .

وقد أرسى الجاحظ – بهذا – أصول مذهب أكثر البلاغيون حديثهم فيه ، حتى أننا لنجد كاتباً كابن الأثير لم يخرج – عند حديثه فى هذا الموضوع – عمّا قاله الجاحظ وقرره فى هذا الرأى .

فابن الأثير بعد أن ينعى على هؤلاء المتكلفين تقعرهم وتشدقهم واستخدامهم الغريب ، وإكثارهم منه فى كلامهم ويضرب الأمثلة العديدة على ذلك يقول : «وإذا كان هذا قول ساكن فى الفلاة ، لايرى إلا شيحة أو قيصومة ، ولايأكل إلا ضباً أو يربوعاً ، فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشى الألفاظ ، وشظف العبارات ، ولايخلد إلى ذلك إلا إما جاهل بأسرار الفصاحة ، وإما عاجز عن سلوك طريقها ، فإن كل أحد ممن شدا شيئاً من علم الأدب يمكنه أن يأتى بالوحشى

(٢٦) المرجع السابق ١/١٤٤ .
(٢٧) المرجع السابق ١/٤٤ .

من الكلام ، وذلك أن يلتقطه من كتب اللغة ، أو يتلقفه من أربابها ، وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحة فإنه لايقدر عليه ، ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه» (٢٨) .

ومن الخير أن نشير إلى أن لجوء القدماء – شعراء أو خطباء – إلى هذا الغريب هو أنهم كانوا أعراباً غلبت عليهم العجرفية ، ومن كان يأتي منهم بالوحشي الغريب لم يكن يأتي به على جهة التكلف له والتطلب لما يستعمله منه ، لكن لعادته وسجيته ، ومن هنا لاننكر أثر البيئة في عقلية الشاعر أو الأديب ، ومايصدر عنها من الأمور المادية أو المعنوية ، ومنها ألفاظه التي يستخدمها ، فتلك الألفاظ الوحشية الوعرة أثر من آثار البداوة وحياة الصحراء ، وفيها من شظف العيش وخشونة الحياة مالايحتمله المترفون من سكان الحواضر ، فلاتستسيغها أذواقهم ، ولم تألفها أسماعهم ؛ ولذلك تأبت عليهم ، وعلى ألسنتهم وأفهامهم وعدوها غريبة .

وهؤلاء المترفون هم أهل الرقة في الشعر الصادر عنهم ، إلا جماعة من المتكلفين لم يتركوا أدبهم يجري على سجيته وطبعه ، فقلدوا الجاهلين وغيرهم من الذين لم يحيوا حياتهم ، ولم يعيشوا في بيئاتهم ، فكدروا صفو الأدب بهذا الوحشي ، الذي تنفر منه الأسماع ، وتنكره الطباع مما سبق التمثيل له .

ثانياً : تنافر الحروف :

ومن العيوب التي تطرأ على الكلمة المفردة ، فتخرجها عن دائرة الفصاحة «تنافر الحروف» ، وهو كون الكلمة صعبة النطق على اللسان . حتى يكاد أن يتعثر بها، غير خفيفة على الآذان ، فتكد لسان الناطق ، وتنفر منها أذن السامع .

وقد تنبه الجاحظ إلى هذا العيب ، وأشار إليه ، وإن لم يصرح بهذا الاسم – أي تنافر الحروف – وذلك في معرض حديثه عن هذا العيب ، إلا أنه عطفه وقرنه بتنافر الكلمات – كما سيأتي بعد قليل – ، فأوضح أن اللفظ ينبغي «أن يكون خفيفاً على اللسان سهلاً» (٢٩) .

وقد نقل عن بشر بن المعتمر – في صحيفته – أن المنازل التي يجب أن ينزلها الأدباء والكتاب ثلاث منازل ، وأولى هذه المنازل أن يكون اللفظ رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً (٣٠) .

---

(٢٨) المثل السائر ٢٤٨/١ .

(٢٩) البيان والتبيين ١٣٦/١ .

(٣٠) المرجع السابق – الموضع السابق .

وإذا كان اقتران الألفاظ بعضها ببعض ينبغي أن يكون على نسق خاص ، وبتأليف منسجم فإن اقتران الحروف في الكلمة ينبغي – أيضاً – أن يكون مما يؤدى إلى انسجام فى الكلمة ، بحيث تبدو حروفها متآلفة متآخية ، ليس بينها تنافر ، فلايليق أن تؤلف الكلمة من حروف متقاربة المخرج فيؤدى ذلك إلى تنافرها ، وثقلها على اللسان وتعسره عند أدائها .

وقد أوضح ذلك صريحاً فى قوله: «فأما اقتران الحروف فإن الجيم لاتقارن الظاء، ولا القاف ولا الطاء والغين ، بتقديم ولابتأخير ، والزاى لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولابتأخير ، وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل، حتى يستدل به على الغاية التى إليها يجرى» (٣١) .

وقد كان الجاحظ – بهذا التنبيه – صاحب رأى أصيل أذاعه الكثيرون ممن جاءوا بعده ، كابن سنان الخفاجى ؛ حيث ذهب إلى أن قرب مخارج الحروف فى الكلمة مؤد إلى تنافرها وثقلها واشترط أن تتألف الكلمة من حروف متباعدة المخارج ، وعلل ذلك بأن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر.

ولاشك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، وقد قال الشاعر فى هذا المعنى :

فالوجه مثل الصبح مبيض ... والفرع مثل الليل مسود

ضدان لما استجمعا حسنا ... والضد يظهر حسنه الضد (٣٢)

ثالثاً : مخالفة القياس اللغوى :

ومن العيوب التى تخل بفصاحة الفرد ، مخالفة القياس اللغوى ، وهو : كون الكلمة مخالفة للاستعمال الوارد عن العرب ، والذى ضبطه علم الصرف .

وقد فطن الجاحظ إلى هذا العيب ، ونبّه إليه ، وعد الكلمة إذا جاءت مخالفة لما ورد عن العرب عدت ساقطة بسبب هذه المخالفة ، وخرجت عن الفصاحة ، ودخلت فى دائرة العيب .

فمما يرويه عن المدائنى أنه «قعد قدام زياد رجل ضائعى – من قرية باليمن يقال لها، ضياع – وزياد يبنى داره ، فقال له : أيها الأمير ، لو كنت عملت باب مشرقها قبل مغربها ، وباب مغربها قبل مشرقها ! فقال : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال:

(٣١) المرجع السابق ١/٦٩ .

(٣٢) سر الفصاحة ص : ٦٦ .

أنها ليست من كتاب ولاحساب ، ولكنها من (ذكاوة) العقل . فقال : ويلك ، الثانى شر» [٣٣] .

فكلمة «ذكاوة» التى جاءت فى كلام الضائعى لم يرد بها استعمال عربى يصححها ، وإنما الوارد «ذكاء» ، وقد ضبط القانون الصرفى ذلك بقاعدة وهى : إذا وقعت الواو أو الياء متطرفة بعد ألف زائدة قلبت همزة ، نحو : كساء ، وسماء ، وأيضاً ذكاء [٣٤] .

فمخالفة هذه الكلمة – أعنى ذكاوة – للاستعمال الوارد عن العرب ، والمضبوط بعلم الصرف جعلها تخرج عن دائرة الفصاحة ، وتكون شراً ، وقد تنبه الجاحظ إلى ذلك ونبه إليه .

ومن خلال هذا العرض لفصاحة الكلمة المفردة عند الجاحظ نجده قد لفت أنظار الكاتبين والباحثين من علماء البلاغة المتأخرين إلى العيوب التى تخل بفصاحتها ، وأن المتأخرين وجدوا أصول ضوابطهم فى هذا الباب عنده ، بل إن الضابط الذى وضعه المتأخرون لايزيد عن الضابط الذى وجدناه عند الجاحظ ، وهو أن فصاحة المفرد عبارة عن خلوه من عيوب ثلاثة : الغرابة والاستكره ، وعدم التئام حروفه وثقله ، ومخالفته للاستعمال الوارد عن العرب .

* * *

(٣٣) البيان والتبيين ١/٢٤٠ .
(٣٤) أوضح المسالك ٢/٣٩٠ .

المبحث الثانى
فصاحة الكلام

ذكرنا – من قبل – أن الجاحظ عرض لمعنى كل من «البيان» و «الفصاحة» و «البلاغة» ، وجرى حديثه عنها محاولاً وضع ضوابط ومعايير لمدلولات هذه الألفاظ، سواء ما اهتدى إليه منها بفهمه وذوقه وتقديره ، أو مانقله عن غيره من العلماء والرواة .

وقد كان فى حديثه عن هذه المدلولات يهتم بدلالتيها : اللغوية والأدبية معاً ، وهما دلالتان كان الجاحظ يجيدهما إجادة تامة بثقافته ومعرفته من ناحية ، وبذوقه الرفيع وحسه المرهف من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من عنايته الفائقة بوضع حدود لهذه الألفاظ حسبما أملاه عليه فكره ، أو بحسب مانقله عن علماء اللغة والأدب من العرب والعجم على حد سواء ، حتى تستبين أمام الدارس معالمها ورسومها فإنه لم يكن متوقعاً منه – بثقافته وطبيعة عصره – أن يعرضها بصورة خاضعة للتقسيم والتحديد وضبط المسائل كما هو الحال عند المتأخرين من علماء البلاغة .

وحسب الجاحظ أن يشير إلى هذه المعالم والحدود إشارات سريعة تنبئ عن مقصوده ، وتكشف عن مراده ، وتكون نبراساً لمن يأتى بعده من العلماء فيهتدى بضوئها .

وهو فى عرضه لمعنى «فصاحة الكلام» نراه يربطه – دائماً – بتبرئة الكلام مما يعيبه ، ويخل به ، ويجعله ساقط الدرجة .

وإذا كانت فصاحة الكلام عند المتأخرين تعنى خلوصه من عيوب معينة هى : تنافر الكلمات وضعف التأليف ، والتعقيد اللفظى والمعنوى ، فإنهم لم يضيفوا إلى مانثره الجاحظ فى كتابه شيئاً ذا بال ، اللهم إلا التقسيم والتقعيد اللذين أسرف فيهما بعض المتأخرين ، مما أفقد البلاغة هدفها وأفسدها وأخرجها عن حقلها الأدبى الرفيع .

وفصاحة الكلام عنده تعنى خلوصه من كل مايعيبه ، وسلامته من كل مايخرجه عن دائرة الحسن أو يدخله فى دائرة القبيح المعيب .

ونثر الجاحظ أحاديثه فى الكتاب حول العيوب التى تخل بفصاحة الكلام ، وتجعله معدوداً فى الكلام الساقط المعيب . وإليك توضيح هذه العيوب :

أولاً : تنافر الكلمات :

من العيوب التى تخل بفصاحة الكلام : تنافر الكلمات ، الذى عرفه البلاغيون بأن : تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة [1] .

وقد أفصح الجاحظ عن رأيه فى هذا العيب ، شارحاً له ، محدداً إياه بما فيه دليل على عمقه وإدراكه لهذا العيب ، كما يدل دلالة قاطعة على وضوح الضوابط البلاغية فى عقله ، وعلى استناد هذه الضوابط على أساس متين من الحس المرهف والذوق العربى الأصيل .

فيوضح ذلك فى قوله : «إذا كان الشعر مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر مابين أولات العلات ، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة» [2] .

ففى هذا التحديد الواضح يبدو وكأنه يشرح فى كتابه ماسيقوله المتأخرون بعده، فى هذا العيب .

فتنافر الألفاظ يجعل الكلام ثقيلاً عسراً يكد لسان الناطق ، وتنفر منه أذن السامع ، وتبدو الكلمات ، وكأن ليس بينها تشابه أو نسب أو رابطة ، كأولاد العلات ، الذين لاتصفو نفوسهم ويتربص كل منهم العداوة لأخيه .

ويوضح هذا التشبيه – أعنى تشبيه الكلمات المتنافرة بأولاد العلات – بقول الشاعر :

وبعض قريض القوم أولاد علة   يكد لسان الناطق المتحفظ [3]

كما يشبه الكلمات المتنافرة ببعر الكبش ، الذى فرق بينها الشاعر الدخيل على صناعة الكلام وقرض الشعر ، فيروى فى ذلك قول الشاعر :

(١) الإيضاح ١/١٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/٦٦ ، ٦٧ .
(٣) المرجع السابق ١/٦٦ .

وشعر كبعر الكبش فــرق بينه   لسان دعى فى القريض دخيل [٤]

ويقف مع هذا البيت الأخير ليكشف – بوضوح أكثر – عن حقيقة هذا العيب ، ومايحدثه من أثر فى صناعة الكلام ، وكيف أن الكلام يخرج بسببه عن دائرة الفصاحة ، ويدخل فى دائرة العيب ، فيقول : «أما قوله (كبعر الكبش) ، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً ، غير مؤتلف ولامتجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساً ، ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد [٥] » .

وهذا التوضيح الذى نجده فى كلام الجاحظ لانكاد نجده فى تعريف المتأخرين، وضبطهم لهذا العيب .

ولايكتفى بهذا التحديد والتوضيح ، بل يسوق الشاهد والمثل بمجموعة من الشعر لم تسلم من هذا العيب ، فعدت ساقطة ، غير فصيحة فى أنظار السامعين ، وأصحاب الذوق ، وأكتفى بذكر مثالين – فقط – مما عرضه الجاحظ .

فيذكر أن «من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لاعلم له أن أحدا لايستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات فى نسق واحد ، فلايتتعتع ، ولايتلجلج ، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك» [٦] .

ومن ذلك – أيضاً – قول ابن يسيرفى أحمد بن يوسف حين استبطأه :

هل معين على البكاء والعويل   أم معز على المصاب الجليل

ثم قال :

(٤) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٥) المرجع السابق ١/٦٧ .
(٦) البيان والتبيين ١/٦٥ .

لم يضرها والحـمـد لله شـيء وانثنت نحو عزف نفسى ذهول

قال الجاحظ : «فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض» (٧) .

والمتأمل فى هذين المثالين ، وماعرض له من شواهد وأمثلة أخرى فى هذا الباب يجده ينبه إلى أهم الأسباب التى تؤدى إلى تنافر الكلمات ، ويكاد يحصرها فى سببين رئيسيين .

الأول : تكرار بعض الحروف فى كلمات متتالية ، كما فى البيت :

وقبـر حـرب بمـكان قـفـر وليس قـرب قـبـر حـرب قـبـر

فتكرير حروف الباء والراء والقاف فى كلمات متتالية أدى إلى تنافرها .

الثانى : تتابع الإضافات ، كما فى البيت :

وانثنت نحو عزف نفسى ذهول

قال الإمام عبدالقاهر : «ومن شأن هذا الضرب أن يدخله الاستكراه ، قال الصاحب : إياك والإضافات المتداخلة ، فإن ذلك لايحسن ، وذلك أنه يستعمل فى الهجاء ، كقول القائل :

ياعلى بن حـمـزة بن عـمـارة أنت والله ثلجة فى خيارة (٨)

ثم يضع الجاحظ أمامنا صورة للشعر الذى تلاحمت أجزاؤه وسلم من هذا العيب ، بعد أن أطلعنا على شواهد من الشعر المتنافر .

فيروى أنه قيل لهم : أنشدونا بعض مالاتتباين ألفاظه ، ولاتتنافر أجزاؤه ، فقالوا قال الثقفى :

من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الذليل الذى ليست له عضد
تنبو يداه إذا ما قل ناصره ويأنف الضيم إن أثرى له عدد (٩)

---

(٧) المرجع السابق ١/٦٥ ، ٦٦ .
(٨) دلائل الإعجاز ص : ٨٠ .
(٩) البيان والتبيين ١/٦٧ .

ثانياً : ضعف التأليف :

لم يصرح الجاحظ بهذا العيب ، وإنما نبه إليه فى معرض حديثه عن اللحن ، ومايحدثه من أثر على فصاحة الكلام .

وإذا كان اللحن فى الكلام هو عدم سيره على وفق سنن العرب فى كلامهم ، بألا يجئ الكلام مطابقاً وموافقاً لطريقتهم فى تركيب الجمل ، وبناء العبارت ، حسبما ضبطه علم النحو ، فإن حديث الجاحظ فى هذا العيب كان مرتبطاً إلى حد كبير بهذا المعنى .

والبلاغيون عندما يحدون ضعف التأليف بأن يكون الكلام على خلاف المشهور من قواعد النحو وقوانينه (١٠) ، فإنهم لم يخرجوا – أيضاً – عن هذا المعنى الذى أدار الجاحظ حديثه حوله .

فنراه يفصح عن مراده فى هذا العيب بقوله : «زعم أصحابنا البصريون عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، وكان لايبرئهما من العيب واللحن» (١١) .

فارتباط الفصاحة بخلو الكلام من اللحن واضح فى كلامه ، فالحسن والحجاج أفصح القرويين ، ومع هذا فإن كلا منهما لم يبرأ من هذا العيب الذى يخرج الكلام عن الفصاحة وهو «اللحن» .

ومما يرويه فى الباب الذى نعته «باب اللحن» أنه «قال يوسف بن خالد السمتى لعمرو بن عبيد : ماتقول فى دجاجة ذبحت من قفائها ؟ قال له عمرو : أحسن ، قال : من قفاؤها . قال : أحسن ، قال من قفاءها ، قال عمرو : ماعناك بهذا ؟ قل : من قفاها واسترح» (١٢) .

ويؤكد الجاحظ أن الإخلال بالضوابط النحوية يفسد الكلام ، ويخل بالبيان ، فيصرح بأن : «أصحاب هذه اللغة لايفقهون قول القائل منّا : (مكره أخاك لابطل) و (إذا عز أخاك فهن) ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبوزيد ، ورأيت أبى عمرو ، ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ، ولم يسمعوا منه ؛ لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان» (١٣) .

(١٠) بغية الإيضاح ١٨/١ .
(١١) البيان والتبيين ١٦٣/١ .
(١٢) المرجع السابق ٢١٢/٢ .
(١٣) المرجع السابق ١٦٢/١ ، ١٦٣ .

ثالثاً : التعقيد :

التعقيد فى الكلام الذى أراده الجاحظ ، وأدار أحاديث كثيرة عنه فى كتابه ، هو ماعناه البلاغيون بعده ورددوه ، وحدوه بأن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المراد منه ؛ لخلل واقع فى لفظه أو معناه [١٤] .

ويوضح الجاحظ مقصوده بهذا العيب فيما رواه عن معاوية «أن قال – يوماً – لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات [١٥] ، وتيامنوا عن عنعنة تميم [١٦] ، وتياسروا عن كسكسة بكر [١٧] ، ليس فيهم غمغمة قضاعة [١٨] ، ولاطمطانية حمير [١٩] ، قال : من هم ؟ قال : قريش ، قال : ممن أنت؟ قال : من جرم ، قال : اجلس» [٢٠] .

فلخلخانية الفرات ، وغمغمة قضاعة وطمطانية حمير عجمة وإبهام فى الكلام تجعله غير مبين ، وغير مفصح عن معناه ، مما يغلق معنى الكلام على السامعين ، ويجعله غير واضح المراد .

وفى هذا إشارة إلى التعقيد الذى ينغلق بسببه الكلام ، ولايكون ظاهر الدلالة على المراد منه .

ولايكتفى بهذه اللمحة الدالة والإشارة الخاطفة ، فينص صراحة على هذا العيب ويتبرأ منه ويحذر من الوقوع فيه بقوله فيما رواه عن بشر: «إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف» [٢١] .

وواضح مما ساقه الجاحظ ورواه أنه يدرك هذا العيب ، وأن له ضابطاً عنده ، وهو يدور حول انبهام الكلام وانغلاقه بأى سبب من الأسباب ، سواء منها مايرجع إلى اللفظ ، أو مايرجع إلى المعنى .

(١٤) الإيضاح ١٩/١ ، ٢٠ .
(١٥) اللخلخانية : العجمة فى المنطق .
(١٦) عنعنة تميم : قولهم فى موضع أن : عن .
(١٧) الكسكسة : أن يجعل بعد كاف المذكر أو مكانها سيناً .
(١٨) الغمغمة : كلام غير مبين .
(١٩) الطمطانية : العجمة .
(٢٠) البيان والتبيين ٢١٢/٣ ، ٢١٣ .
(٢١) المرجع السابق ١٣٦/١ .

ويتضح من خلال هذا العرض أن فصاحة الكلام – عنده – ترتبط ارتباطاً وثيقاً بخلو الكلام من العيوب التى أشرنا إليها ، وهى : تنافر الكلمات ، واللحن أو ضعف التأليف ، والتعقيد وهو معنى فصاحة الكلام عند المتأخرين .

* * *

المبحث الثالث
فصـــاحة المتكـــلم

إذا استطاع الإنسان أن يعبر تعبيراً صحيحاً ، واضح المعنى ، سهل اللفظ ، بريئاً من العيوب – التى سبق ذكرها – عن كل مايجول بخاطره ، أو يجيش بصدره من الأغراض والمعانى فهو فصيح .

وهذا هو معنى «فصاحة المتكلم» عند المتأخرين ، من علماء البلاغة ، فقد عرفوها بأنها : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح (١) .

فالمدار على أن تكون فيه القدرة على التعبير ، يستخدمها متى شاء ، وفى أى ضرب من ضروب الكلام ، وفى أى فن من فنونه فهو فصيح ، وإن لم ينطق متى وجد فيه هذا الاستعداد وهذه القدرة على صوغ الفصيح فى أى معنى أراد .

وهذا المعنى – بعينه – هو الذى أدار الجاحظ حوله حديثه ، فيما رواه الأصمعى وابن الأعرابى عن رجالهما أن رسول الله – ﷺ – قال : «إنا معشر الأنبياء بكاء» ، فقال ناس : البكء : القلة ، وأصل ذلك من اللبن ، فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام ، ولم يجعله من إيثار الصمت ومن التحصيل وقلة الفضول» (٢) .

ويوضح الجاحظ معنى هذا الحديث ، بما يكشف عن مراده لمعنى فصاحة المتكلم ، ويرد على أصحاب هذا الرأى بأن الأنبياء – وإن لم يتكلموا – فهم فصحاء ؛ لأنهم يملكون آلة البيان ، فعندهم القدرة على التعبير متى شاؤوا ، وفى أى وقت أرادوا، وقد فصل القول فى هذا تفصيلاً وافياً ومبيناً .

وذلك فى قوله : «ليس فى ظاهر هذا الكلام دليل على أن القلة من عجز فى الخلقة ، وقد يحتمل ظاهر الكلام الوجهين جميعاً ، وقد يكون القليل من اللفظ يأتى على الكثير من المعانى ، والقلة تكون من وجهين ، أحدهما من جهة التحصيل والإشفاق من التكلف ، وعلى تصديق قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٣) ، وعلى البعد من الصنعة ، ومن شدة المحاسبة وحصر النفس ، حتى

---

(١) الإيضاح ١/٢٥ .
(٢) البيان والتبيين ٤/٢٧ .
(٣) ص . ى : ٨٦ .

يصير بالتمرين والتوطين إلى عادة تناسب الطبيعة ، وتكون من جهة العجز ونقصان الآلة ، وقلة الخاطر ، وسوء الاهتداء إلى جياد المعانى ، والجهل بمحاسن الألفاظ .

ألا ترى أن الله قد استجاب لموسى – عليه السلام – حين قال: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ (٤) .

فلو كانت تلك القلة من عجز كان النبى – ﷺ – أحق بمسألة إطلاق تلك العقدة من موسى ؛ لأن العرب أشدد افتخاراً ببيانها وطول ألسنتها ، وتصريف كلامها، وشدة اقتدارها، وعلى حسب ذلك كانت زرايتها على كل من قصر عن ذاك التمام، ونقص من ذلك الكمال.

وقد شاهدوا النبى – ﷺ – وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، ولم يطل التماساً للطول ، ولارغبة فى القدرة على الكثير ، ولكن المعانى إذا كثرت ، والوجوه إذا افتنت كثر عدد اللفظ ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف .

ولم يكن الله ليعطى موسى لتمام إبلاغه شيئاً لايعطيه محمداً ، والذين بعث فيهم أكثر مايعتمدون عليه البيان واللسن . وإنما قلنا هذا لنحسم جميع وجوه الشغب ، لا لأن أحداً من أعدائه شاهد هناك طرفاً من العجز ، ولو كان ذلك مرئياً ومسموعاً لاحتجوا به فى الملا ، ولتناجوا به فى الخلا ، ولتكلم به خطيبهم ، ولقال فيه شاعرهم، فقد عرف الناس كثرة خطبائهم وتسرع شعرائهم (٥) .

أترى بياناً أوضح وأنصع من هذا الكلام فى توضيح معنى الفصاحة عند المتكلم ، فهو يفرق بين الصمت مع القدرة على الكلام ، وبين الصمت عن عجز وحصر بأن الأول يتصف صاحبه بالفصاحة ، والثانى لايتصف صاحبه بها ، ويدلل على فصاحة النبى – ﷺ – والأنبياء جميعاً – عليهم الصلاة والسلام – سواء تكلموا ، أو آثروا الصمت ، فصمتهم ليس عجزاً عن البيان والتعبير حتى يتهموا بخلل فى فصاحتهم ، وإنما صمتهم عن حكمة .

فموسى – عليه السلام – لما رأى – فى لسانه حبسة ، دعا الله – تعالى – ففك هذه الحبسة وأزال عنه العقدة ، حرصاً على فصاحته ، واستكمالاً لآلات البيان عنده ،

(٤) طه . الآيات : ٢٧ – ٣٧ .
(٥) البيان والتبيين ٢٧/٤ ، ٢٨ .

ولو أن محمداً – ﷺ – رأى فى نفسه شيئاً من ذلك لدعا ربه ، ولكان أولى بالاستجابة من موسى – عليه السلام – إذ أن يواجه قومه ، وهم أشد مايكونون فخراً ببيانهم ، وطول ألسنتهم وتصريف كلامهم .

وعلى الرغم من هذا فإن أحداً لم ير الرسول الكريم فى موقف عجز من المواقف التى تستدعى الكلام والإبانة والإطالة .

وهذا التوضيح الذى قدمه الجاحظ فى فصاحة المتكلم ، والمفهوم الذى تدور حوله كشاف فى بيان المراد منها ، بل إننا نجزم أن فيما ذكره من الوضوح ، وضرب الأمثلة والشواهد مالانجده عند المتأخرين وحدودهم .

* * *

المبحث الرابع
معنى البلاغة

ذكرنا – من قبل – أن الجاحظ ظلم أيما ظلم عندما اتهم بأنه لم يفرق بين معانى كل من «البيان» ، و «الفصاحة» و «البلاغة» وأنه خلط بين مدلولات هذه الألفاظ .

وقد عرفنا – مما سبق – أن لكل من «البيان» و «الفصاحة» – عنده – مدلولاً واضحاً ، ومعنى محدداً .

و «البلاغة» إذا كان معناها يقوم – عند المتأخرين – على عنصرين مهمين ، هما : المطابقة لمقتضى الحال ، والفصاحة ، فإن هذين العنصرين كانا واضحين وضوحاً تاماً – عند الجاحظ – فى ارتباطهما بمعنى «البلاغة» ؛ بل إننا نعتقد أن حديثه عن هذين العنصرين ، وربط كل منهما بالآخر ؛ لتحقيق معنى البلاغة فى الكلام كان أصلاً مهماً أخذه عنه المتأخرون ، وبنوا عليه حدودهم ، وضوابطهم ، وكلامهم فى هذا الباب .

وإذا كان بعض الكاتبين قد أخذ عليه أنه أورد كثيراً من التعريفات والمفاهيم لمعنى البلاغة ، وأن كل هذه التعريفات لايلتقى واحد منها بالآخر ، ولاتلتقى فى مجموعها بالتعريف الذى حدده البلاغيون لهذا المصطلح (١) .

فإن هذا الرأى أغفل أمرين مهمين :

الأول : عدم التفرقة بين رأى الجاحظ فى معنى «البلاغة» ، وبين الآراء والتصورات التى رواها عن الأمم غير العربية ، وعن علماء العرب وأدبائهم وحكمائهم(٢) .

الثانى : لم يلتمس هذا الرأى ولم يفطن إلى قوة الرابطة بين مانثره الجاحظ فى كتابه تعبيراً عن رأيه هو فى هذا المعنى ، وبين ما أورده من آراء وتصورات نقلها عن غيره .

---

(١) انظر البلاغة العربية ص : ٣٨ .

(٢) انظر هذه الآراء والتصورات فى البيان والتبيين ٨٨/١ ومابعدها .

والواقع أن مفهوم «البلاغة» – عند الجاحظ يدور حول المطابقة والفصاحة ، أعنى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وحسن سبكه وجودة رصفه .

وهذان العنصران – أعنى المطابقة والفصاحة – هما جناحا «البلاغة» فى أحاديثه عن معناها ، وقد ارتبطا – عنده – ارتباطاً وثيقاً بهذا المعنى .

فالعنصر الأول – وهو المطابقة – نراه يفصح عن ارتباطه بمعنى البلاغة فى قوله : «لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئل : ما البلاغة ؟ قال : البلاغة: اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الإشارة ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جواباً ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها مايكون شعراً ، ومنها مايكون سجعاً وخطباً ، ومنها مايكون رسائل .. وإذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلاتهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لايرضيهما شئ ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شئ لاتناله ، وقد كان يقال : «رضا الناس شئ لاينال» [٣] .

فإعطاء كل مقام حقه ، ووضع الكلام موضعه ، ومراعاة الأحوال والمناسبات أمر مهم تقوم عليه البلاغة ، ولاتتحقق بدونه ، وهذا ماعناه بقوله مفصحاً عن رأيه : «لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه إلى قلبك» [٤] .

ومعلوم أن الكلام لايتسابق لفظه ومعناه إلى القلب حتى يقع موقعه ، ويصادف الحال التى تناسبه .

فالمطابقة – عنده – عنصر مهم تقوم عليه بلاغة الكلام ، وينبغى للأديب أو المتكلم أن يراعيها حتى يقع كلامه موقع الحسن والقبول ، ويحقق معنى البلاغة فى كلامه .

ويؤكد الجاحظ معنى المطابقة ، وارتباط البلاغة بها فى قوله : «ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام فإياك وأن تستعمل فيها الإغراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً ،

---

(٣) البيان والتبيين ١/١١٥ ، ١١٦ .
(٤) المرجع السابق ١/١١٥ .

أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها» [٥] .

ولم يغفل الجاحظ العنصر الآخر فى معنى البلاغة ، وهو «الفصاحة» ، فيذكر تعريف العتابى للبلاغة فى قوله: «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولاحبسة ولااستعانة فهو بليغ» [٦] .

ثم يوضح معنى كلام العتابى مفصحاً عن رأيه فى وجوب أن يراعى فى الكلام المطابق لمقتضى الحال والمقام أن يكون فصيحاً خالياً من العيوب التى نبه إليها فيما سبق الحديث عنه .

فيقرر أن «العتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه» [٧] .

فليس كل كلام – عنده – أدى المعنى وأفهم المراد وطابق الحال محكوماً له بالبلاغة ، بل لابد أن يكون الكلام صحيحاً ، سليماً من العيوب خالياً من اللحن ، فيصرح بأن «من زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء وكله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذى فينا .. وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء» [٨] .

ويفهم من كلام الجاحظ أنه يدرك تماماً أن معنى الفصاحة داخل فى معنى البلاغة ، وأن البلاغة لاتتحقق إلا بتحقق الفصاحة أولاً ، بخلو الكلام من التنافر والإغلاق واللحن ، وغير ذلك من العيوب التى نص عليها فى كتابه .

ونرى هذا الربط بين العنصرين واضحاً فيما رواه عن عمرو بن عبيد «فقد قيل له : ما البلاغة ؟ قال : كأنك تريد تخير اللفظ فى حسن الإفهام ، قال : نعم ، إنك إن أوتيت حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك

---

(٥) المرجع السابق ١/١٤٥ ، ١٤٦ .
(٦) المرجع السابق ١/١١٣ .
(٧) البيان والتبيين ١/١٦١ .
(٨) المرجع السابق ١/١٦٢ .

المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب» (٩) .

فالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان تخفف المؤونة على المستمعين ، وتدعو إلى سرعة استجابتهم ، وتجب مراعاتهما فى الكلام ليتحقق فيه معنى البلاغة .

وإذا كان ماعبر به عن رأيه يفصح عن تلاقى معنى المطابقة والفصاحة لتحقيق معنى بلاغة الكلام فإنه فيما رواه عن الأمم والعلماء والأدباء وتصوراتهم للبلاغة أراه يدلل على هذا المعنى عنده .

فنراه فى كل مانقله ورواه من تصورات الأمم والعلماء والأدباء لمعنى البلاغة ينقل مايدور فى فلك هذين العنصرين ، أعنى : المطابقة لمقتضى الحال والفصاحة .

فقد نقل «عن الفارسى أنه قيل له : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام ، وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر» (١٠) .

ثم يعلق على مانقله عن بعض أهل الهند بقوله : «ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، أن تدع الإفصاح بها إلى الكتابة عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر» (١١) . فيفصح بذلك عن معنى المطابقة المعتبر فى البلاغة ، فالبصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة يعنى عنده المطابقة .

ثم يقول – فى الموضع نفسه – «وزين ذلك كله وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية» (١٢) ، فيكشف بذلك عن

(٩) المرجع السابق ١١٤/١ .
(١٠) البيان والتبيين ٨٨/١ .
(١١) المرجع السابق – الموضع السابق .
(١٢) المرجع السابق ٨٩/١ .

معنى الفصاحة ، ووجوب مراعاتها فى معنى البلاغة فيما نقله .

وإذا عدنا إلى مانقله ورواه نجد أن معرفة الفصل من الوصل عند الفارسى . على معنى البصر بمواضع كل منهما ومعرفة مواقعهما تدور حول المطابقة ، وكذا عند الرومى نجده فيما نقله عنه يفصح أن للاقتضاب والإيجاز موضعه ، وللإطالة موضعها ، ولايصح هذا فى موضع ذاك . فالمعنى – أيضاً – يدور حول المطابقة ومايجب لكل مقام من المقال .

وفيما نقله عن اليونانى والهندى من أن البلاغة : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام عند الأول ، ووضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة عند الثانى يفصح عن العنصر الثانى ، وهو الفصاحة فحسن اختيار الكلام ووضوح دلالته على معناه من الأوصاف التى ترتبط بالفصاحة ارتباط الجزء بالكل .

وفيما رواه عن بعض أهل الهند نجد التحام العنصرين معاً ، ووضوحهما ، فالبصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة وساعات القول إنما هو لتحقيق معنى المطابقة بين الحال والكلام ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر ، مما يرتبط بفصاحة الكلمات وفصاحة الكلام .

ونجد – أيضاً – وضوح العنصرين – المطابقة والفصاحة – فيما نقله عن الأشعث مما وجد مكتوباً فى صحيفة الهند ، فقد جاء فيها : «أول اجتماع آلة البلاغة أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة ، ولايدقق المعانى كل التدقيق ، ولاينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولايصفيها كل التصفية ، ولايهذبها غاية التهذيب ، ولايفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً .. ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولامفضولاً ، ولامقصراً ولامشتركاً ولامضمناً ، ويكون – مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً» (١٣) .

فالجاحظ – فى هذه الرواية – كأنه يسوق مايبرز معنى البلاغة فى نفسه ، فعند التأمل نجد أن البلاغة فى هذه الصحيفة تعنى المطابقة ، فلايكلم الأديب سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، كما يدخل فى معناها معنى الفصاحة ، فلايكون اللفظ فاضلاً ، ولامفضولاً ، ولامقصراً مشتركاً ولامضمناً .

---

(١٣) البيان والتبيين ١/٩٢ ، ٩٣ .

وإذا كان الجاحظ - فى بعض مانقله - يقصر البلاغة على بعض مباحثها ، كالإيجاز فإنه لم يعن إلا قصرها على أهم موضوعاتها فى نظر هؤلاء الذين نقل عنهم، ولم يغفل - فيما نقله - أن يلفت النظر إلى قصده ، كقوله فيما نقله عن معاوية، فقد قال لصحار بن عياش العبدى : «ماتعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، قال له معاوية ، وما الإيجاز ، قال صحار : أن تجيب فلاتبطئ ، وتقول فلاتخطئ ، فقال له معاوية ، أو كذلك تقول ياصحار ؟ قال صحار : أقلنى يا أمير المؤمنين ، ألاتبطئ ولاتخطئ» (١٤) .

وينقل عن ابن الأعرابى قوله : «قال لى المفضل بن محمد الضبى ، قلت لأعرابى منا : ما البلاغة ؟ قال لى : الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل، قال ابن الأعرابى : فقلت للمفضل : ما الإيجاز عندك ، قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد» (١٥) .

والجاحظ - فى هاتين الروايتين - يعمد إلى التنبيه إلى معنى البلاغة ، وهى المطابقة لمقتضى الحال والفصاحة ، وإن كان معناها مقصوراً على الإيجاز - كما هو واضح من الرواية الثانية - فإن معنى الإيجاز فى هذه الرواية يدور حول المطابقة والفصاحة .

فالإيجاز فى غير عجز ، والإطناب فى غير خطل مع التحقق من مواضعهما ، ووضع كل منهما موضعه اللائق به هو معنى المطابقة ، وحذف الفضول ، على معنى أن يكون الكلام خالياً من الحشو الذى يفسده ويعلق المعنى فى أذهان السامعين، وتقريب البعيد من المعانى عن طريق الألفاظ القريبة السهلة مما يتصل بمعنى الفصاحة .

وإذا كان هذا رأى الجاحظ فى معنى البلاغة ، فيما صرح به ورواه ، فإنه لايصح لقائل أن يدعى أنه كان ينقل- فقط - آراء السابقين من الأمم وغيرهم ، وليس له رأى واضح ، فهو - كما رأينا - يفرق بين معناها ومعنى كل من البيان والفصاحة.

بل إنه يفرق بين دلالتى الكلمة اللغوية والأدبية - كما أشرنا من قبل - فنجده عند قوله تعالى : ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ (١٦) يدرك الفرق بين معنى البلاغة فى الآية الكريمة وبين معناها فى بيئة الأدب وفى مجال صناعة الكلام ،

(١٤) المرجع السابق ٩٦/١ .
(١٥) المرجع السابق ٩٧/١ .
(١٦) النساء . ى : ٦٣ .

فيقول : «ليس يريد بلاغة اللسان ، وإن كان اللسان لايبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة»(١٧) .

ومن خلال ماذكرنا نلمس بوضوح أن الجاحظ فى تعرضه لهذا المصطلح كان يدرك معناه إدراكاً تاماً ، وأن هذا المعنى الذى دار كلامه حوله لم يخرج عن المطابقة لمقتضى الحال والفصاحة سواء فيما أورده بفكره وحسه ، أو مانقله ورواه عن الآخرين.

ويؤكد هذا التحديد والتقنين – عنده – لهذا المعنى مانقله عن الأصمعى من قوله : «البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر» (١٨) ، فتطبيق المفصل ، ومعرفة المحز وإصابة المقدار هو مرادف لمعنى المطابقة ، والاستغناء عن المفسر يعنى الوضوح فى الألفاظ وفى تركيب الكلام بحيث يفصح الكلام عن المقصود دون شرح أو تفسير هو إشارة إلى أهم عناصر الفصاحة سواء مايتعلق منها بالمفرد أو مايتعلق بالكلام المركب .

ومن يقارن بين حديث الجاحظ عن البلاغة ، وبين ماقاله المتأخرون فى تحديد معناها ، يجد أن المتأخرين من علماء البلاغة ترسموا خطاه ، واقتبسوا من نوره وهديه ، فهو بهذا التحليل والشرح ، والنقل للكثير من التصورات والتعريفات كأنه يشرح هذا الضابط الذى وضعه المتأخرون ، وهو أن البلاغة : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وفصاحة أجزائه .

وإذا كنا قد بسطنا القول فى أحد العنصرين اللذين تقوم عليهما البلاغة ، وهو : الفصاحة فى مباحث سابقة ، فمن الواجب بأن نقف مع العنصر الثانى ، وهو : المطابقة فى مبحث خاص .

* * *

---

(١٧) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .
(١٨) المرجع السابق ١٠٦/١ .

المبحث الخامس
مطابقة الكلام لمقتضى الحال

من المعلوم أن الحال هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ، كالتقديم أو التأخير أو الحذف أو الإيجاز أو ما إلى ذلك من الخصوصيات المعتبرة فى الكلام ، وأن تلك الخصوصية هى مقتضى الحال ، واشتمال الكلام على تلك الخصوصية التى تناسب الحال هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال (١) .

ومن المعلوم – أيضاً – أن هذه المطابقة هى علة التأثير وتحقيق غاية الأدب ، وهذه الغاية لاتتحقق إلا إذا كان الأديب يصوغ كلامه ، بحيث يفهمه السامعون ليتدبروه ويتأثروا به ، ويشاركوا صاحبه فيما عبر به من فكر أو عاطفة أو انفعال .

وقد كان بشر بن المعتمر من أوائل الذين تنبهوا إلى هذا الأثر الذى تحدثه المطابقة فى الكلام ، وكتبوا فى وجوب رعايتها فى صناعة الكلام «فالمعنى ليس يشرف – عنده – بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، ومايجب لكل مقام من المقال» (٢) .

«والمتكلم ينبغى أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن وبها أشغف» (٣) .

وقد كان بشر من رؤوس المعتزلة – كما أشرنا من قبل – وكان سابقاً للجاحظ

---

(١) انظر الإيضاح ٢٦/١ .
(٢) البيان والتبيين ١٣٦/١ .
(٣) المرجع السابق ١٣٨/١ ، ١٣٩ .

بنحو خمسين عاماً ، وواضح أن كلامه عن المطابقة يدل على عقل واع وفكر رشيد ، كما يدل على ملكة صافية ، وذوق مرهف بمرامى الكلام ، وكيف يأخذ المتكلم بألباب مستمعيه ، فإذا عرف المتكلم حال مخاطبه وحدد قدره ، وأخرج كلامه على قدره استطاع أن ينفذ إلى صدره ، وأن يبلغ منه مايريد .

وقد نقل الجاحظ حديث بشر عن المطابقة ضمن صحيفته المشهورة التى رواها فى كتابه ، مضيفاً إلى مانقله ورواه من فكره وثقافته وعقله . فكلام الناس - عنده - فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . فإن زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولابينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العى والبكئ والحصر والمفحم ، والخطل والمسهب [٤] ، والمتشدق والمتفيهق والمهمار والمكثار والهمار [٥] ، ولم ذكروا الهجر والهذر ، والهذيان والتخليط» [٦] .

وإذا كان كلام الناس فى طبقات ، وكان الكلام منه الجزل والسخيف والمليح والحسن ، فإن من شروط البلاغة ، عند الخطيب - كما أفصح الجاحظ - «أن لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة ، ولايدقق المعنى كل التدقيق ، ولاينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولايصفيها كل التصفية ، ولايهذبها غاية التهذيب ، ولايفعل ذلك حتى يصادف حكيماً ، أو فيلسوفاً عليماً» [٧] .

فالخطيب عليه أن ينظر فى حال كل طبقة ممن يتحدث إليهم ، وأن يراعى مايجب لكل طبقة من المقال ، فإذا نقح ألفاظه ودقق معانيه ، وكان يخاطب العامة من الناس خرج كلامه عن دائرة البلاغة ؛ لخلوه من المطابقة لمقتضى الحال ومايجب لكل مقام من المقال .

وإذا كان الجاحظ - فيما أسلفنا - قد أشاد بتفسير ابن المقفع للبلاغة ، حتى قال إنه «لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط» [٨] فإنه يبرز قوله فى وجوب المطابقة لمقتضى الحال ، ومايجب لكل مقام من المقال ؛ لتحقيق صفة البلاغة فى الكلام .

---

(٤) الخطل : ذو الخطل ، وهو الكلام الفاسد الكثير ، والمسهب : الكثير الكلام .
(٥) الهمار والمهمار : مكثار الكلام .
(٦) البيان والتبيين ١/١٤٤ .
(٧) المرجع السابق ١/٩٢ .
(٨) المرجع السابق ١/١١٥ .

وذلك قوله : «إذا أعطيت لكل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلاتهتم لما فاتك ، من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لايرضيهما شئ ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شئ لاتناله ، وقد كان يقال : «رضا الناس شئ لاينال» (٩) .

ويفصح الجاحظ عن رأيه فى أثر المطابقة على نفوس السامعين ، وكيف تطيب قلوبهم بها . فيذكر أنه : «رب قليل يغنى عن كثير ، بل رب كلمة تغنى عن خطبة .. ومتى شاكل اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين ، وألا تزال القلوب فيه معمورة والصدور مأهولة»(١٠) . فمدار الأمر – عنده – على المطابقة ، وماتحدثه من أثر فى النفوس والصدور .

وإذا كانت مقامات الكلام متفاوتة ، وتتفاوت بتفاوتها المقتضيات ، فإن الجاحظ يتعرض لبعض هذه المقتضيات التى تستدعى أحوالاً خاصة ، مما يلفت الأذهان وينبه العقول إلى إدراكه الفرق بين الأحوال ومقتضياتها ، وإلى وجوب مراعاة المطابقة بينهما .

فيقرر أن «ذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه ، والموجز والكناية والوحى باللحظ ودلالة الإشارة» (١١) من العمد التى يقوم عليها فن الخطابة ، ويروى فى ذلك قول أبى داوود الإيادى فى صفة خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وذكر أن هذا – يعنى البيت – مما مدحوا به الإيجاز والكلام ، الذى هو كالوحى والإشارة «فمدح – كما ترى – الإطالة فى موضعها والحذف فى موضعه»(١٢) .

وفى حديثه عن الترداد – وهو نوع من الإطناب كما سيأتى – يذكر أن جملة القول فيه أنه ليس له حد ينتهى إليه ، ولايؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر

---

(٩) المرجع السابق ١/١١٦ .
(١٠) البيان والتبيين ٢/ ٧ ، ٨ .
(١١) المرجع السابق ١/٤٤ .
(١٢) المرجع السابق ١/١٥٥ .

المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص» [١٣] .

فالتكرار لايحسن – عنده – حتى يقع موقعه ويصيب موضعه ، حسب المناسبات والأحوال وعلى حسب أقدار السامعين ومايناسبهم ، فإذا وقع موقعه فقد روعيت المطابقة ، وحسن بسببها الكلام ، وإلا فقد خرج الكلام عن دائرة المطابقة ، وخرج بذلك عن دائرة الكلام البليغ .

والقرآن الكريم – عنده – خير شاهد على رعاية هذه المطابقة ، وأن وقوع التكرار فيه موقعه وإصابته محزة من الأسرار التى كان بها القرآن فى أعلى درجات البلاغة ، وهى درجة الإعجاز . فيقول : «فقد رأينا الله – عز وجل – ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد ، وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأموراً كثيرة ؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبى غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب» [١٤] .

ويذهب بعض الكاتبين المعاصرين إلى أن دائرة المطابقة لمقتضى الحال أوسع بكثير من الدائرة التى حددها البلاغيون لمجالات المطابقة ، وحصروها فى أبواب علم المعانى ، فيقول : «لقد كان جوهر البلاغة عند علماء العرب ونقادها وبلاغييها هو البحث عن مجالات مطابقة الكلام لمقتضى الحال بعد الوقوف على عناصر الأدب وأشكاله وأهدافه ، وهى الغاية التى يعرفها المحدثون من غير العرب ، غير أن هذا المعنى لايتوقف عند حدود المباحث البيانية التى ينتظمها أحد علوم البلاغة ، وهو العلم الذى يسمى «علم المعانى» الذى حدده البلاغيون ، وقالوا فى تعريفه إنه : «العلم الذى يبحث فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهو تحديد سقيم .. والواقع أن دائرة المطابقة لمقتضى الحال أوسع من هذه الدائرة بكثير ، ولاتقف عند المباحث الثمانية التى ذكروها فى علم المعانى [١٥] ، فإن

(١٣) المرجع السابق ١/١٠٥ .

(١٤) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

(١٥) هذه المباحث هى :

١- أحوال الإسناد الخبرى .
٢- أحوال المسند إليه .
٣- أحوال المسند .
٤- أحوال متعلقات الفعل .
٥- القصر .
٦- الإنشاء .
٧- الفصل والوصل .
٨- الإيجاز والإطناب والمساواة .

مجالات هذه المطابقة كثيرة» (١٦) .

والواقع أن هذا الرأى ليس بجديد فى ميدان الفكر البلاغى – كما ذهب الكاتب – فالجاحظ فضلاً عن تنبهه إلى الكثير من المباحث التى ذكرها العلماء فى علم المعانى – كما سنوضح ذلك إن شاء الله – فإنا نجده قد تنبه إلى مجالات للمطابقة أوسع من هذه المباحث التى حددت فى علم المعانى ، نذكر منها :

(١) **مطابقة اللفظ لمعناه** ، فاللفظ هو أساس العبارة ، وهو الوحدة التى يتكون منها الأدب ، والأديب أعلم الناس باللغة التى يعبر بها ، وأقدرهم على استعمال ألفاظها، واختيار اللفظ المطابق لمعناه من بين الألفاظ الكثيرة التى يتوهم فيها الاشتراك أو الترادف ، ومايكون بين هذه الألفاظ من الفروق الدقيقة فى تأدية هذه المعانى مما لايدركه إلا الأديب الحاذق الخبير باللغة والأدب ؛ لأنه صاحب المعرفة والذوق اللذين يمكنانه من المفاضلة وحسن الاختيار .

ويكشف الجاحظ عن هذا المجال بقوله : «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولامفضولاً ، ولامقصراً ولامشتركاً ولامضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً، ولهول تلك المقامات معاوداً» (١٧) .

(٢) **مطابقة اللفظ لموضوعه وماجاوره** ، وللغرض الذى يعالجه المتكلم ، فالعمل الأدبى بناء متكامل ، متسق الأجزاء تتحقق فيه الوحدة الفنية بين أجزاء العمل الأدبى، فاللفظ الذى يصلح فى غرض من الأغراض قد لايصلح فى غرض آخر.

فيقول فى ذلك : «قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألاترى أن الله – تبارك وتعالى – لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لايذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر ، وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذى نزل عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لايجمع الأرض أرضين ،

---

(١٦) البيان العربى ص٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(١٧) البيان والتبيين ٩٢/١ ، ٩٣ .

ولا السمع أسماعا ، والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقدون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال» (١٨) .

فاللفظة ينبغى أن تطابق الغرض الذى سبق من أجله الكلام ، ولذا فإنه ينقل عن بشر بن المعتمر أنه يعيب الألفاظ الخاصة بمصطلحات علم الكلام إلا فى مواضع خاصة ، فيقول : «إن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه أن عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لخير خلف ، وقدوة لكل تابع» (١٩) .

فألفاظ المتكلمين على الرغم من أنها ألفاظ عالية الدرجة إلا أنها تسقط إذا استعملت فى غير موضعها .

وهو فى حديثه عن المطابقة لم يغفل أن يعرض لطائفة من الكلام خرجت عن دائرة المطابقة فعدت ساقطة فى أنظار المتذوقين ، وخرجت عن دائرة البلاغة .

فمن ذلك المذهب الذى ذهب إليه الكميت بن زيد فى مدح النبى ﷺ حيث يقول :

فاعتتب الشوق من فؤادى ... والشعر إلى من إليه معتتب

إلى السراج المنير أحمد لا ... تعدلنى رغبة ولارهب

عنه إلى غيره ولو رفع النا ... س إلى العيون وارتقبوا

وقيل أفرطت ، بل قصدت ولو ... عنفنى القائلون أو ثلبوا

إلى يا خير من تضمنت الأر ... ض ولو عاب قوى العيب

لج بتفضيلك اللسان ولو ... أكثر فيك اللجاج واللجب

---

(١٨) البيان والتبيين ٢٠/١ .

(١٩) المرجع السابق ١٣٩/١ .

فمن رأى شاعراً مدح النبى ﷺ فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس، حتى يزعم هو أن ناسا يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه ؟ ولقد مدح النبى ﷺ فما زاد على قوله :

وبورك قبر أنت فيه وبوركت ... به ولو أهل بذلك يثرب

يعنى قبر النبى ﷺ ، ويثرب المدينة .

لقد غيبوا براً وحزماً ونائلاً ... عشية وأراه الصفيح المنصب

وهذا شعر يصلح فى عامة الناس» [٢٠] .

فهذا الشعر الذى رواه لاتصلح معانيه ولا ألفاظه فى مقام مدح النبى ﷺ وهو على الرغم من صلاحيته فى مواضع أخرى ، كأن يقال فى عامة الناس ، يعد شعراً ساقطاً لعدم مطابقته للمقام والحال ، وللغرض الذى قيل فيه هذا الشعر .

وعلى الرغم من أن حديثه عن المطابقة وتطوافه بآفاقها وفطنته إلى الكثير من مجالاتها كان واضحاً ومبسوطاً ، فقد كان مسلكه فى تأليف الكتاب درساً عملياً واعياً لهذه المطابقة ، ودليلاً على وضوح معناها فى عقله ، وعلى ماتحدثه من أثر فى نفوس السامعين أو القارئين .

«فالبيان والتبيين» كتاب تعليمى ، وهو يدرك أن تلميذه لايجلس أمامه يتتلمذ على كتابه بقراءته أمامه أو إملائه عليه ، وإنما يتتلمذ عليه بقراءته بعيداً عن مؤلفه ، فيراعى الجاحظ هذا فى تأليفه ، وهو أن يجئ على صورة لاتمل القارئ ، فيكرر عليه بعض ما أورده من معلوماته وثقافات ، ويستطرد أحياناً ، ويفاجئ القارئ بين الحين والآخر بالكثير من النوادر والملح ، وبعضها فى باب الهزل والفكاهة .

ولم يفته أن يصرح بهذا ، فيقول : «قد ذكرنا – أكرمك الله – فى صدر هذا الكتاب من الجزء الأول ، وفى بعض الجزء الثانى كلاما من كلام العقلاء البلغاء ، ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء ، وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمحرمين من الأعراب [٢١] ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين ، وأهل المرة من الموسويين[٢٢]، ومن كلام أهل الغفلة من النوكى ، وأصحاب التكلف ، فجعلنا بعضها فى باب الاتعاظ

---

(٢٠) البيان والتبيين ٢/٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٢١) المحرم : الذى لم يروض ولم يذلل .

(٢٢) أهل المرة من الموسويين : يعنى بهم أهل الاختلاط .

والاعتبار ، وبعضها فى باب الهزل والفكاهة ، ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ، ولابد لمن استكده الجد [٢٣] من الاستراحة إلى بعض الهزل» [٢٤] .

فكلام الصبيان والمجانين والموسويين تردد كثيراً فى الكتاب فى أبواب مختلفة، غير أنها جاءت مطابقة لمواضعها من الكتاب ، وللغرض الذى قصده فى كل موضع.

ويستدل الجاحظ على وجوب رعاية المطابقة بكلامه - ﷺ - حيث كان صلوات الله وسلامه عليه يراعيها فى كلامه «فقد شاهدوا النبى - ﷺ - وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، ولم يطل التماساً للطول ، ولارغبة فى القدرة على الكثير ، ولكن المعانى إذا كثرت ، والوجوه إذا افتنت كثر عدد اللفظ ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف» [٢٥] .

وهكذا طوف الجاحظ وأحاط بمعنى المطابقة ، وهو : أن يأتى الكلام وفقاً لأحوال السامعين بمراعاة الخصوصيات واللطائف والأسرار من بسط أو إيجاز أو حذف أو تكرار حسب المعانى والأغراض التى يصاغ لها الكلام .

وإذا كانت المطابقة لمقتضى الحال ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظم الكلام وتأليفه ، حتى إن الإمام عبدالقاهر الجرجانى يعتبر أن المطابقة هى العنصر الأساسى فى قضية النظم التى شغل نفسه بها ، وذلك فى قوله : «النظم هو : تآخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام» [٢٦] فمن الخير أن نقف - فى مبحث خاص - مع هذه المسألة - أعنى مسألة النظم ، وكيف عرض لها الجاحظ فى كتابه .

* * *

---

(٢٣) استكده : أتعبه وأجهده .
(٢٤) البيان والتبيين ٢/٢٢٢ .
(٢٥) المرجع السابق ٢٨/٤ .
(٢٦) دلائل الإعجاز ص : ٦٤ .

المبحث السادس
النظم

إن كلمة «النظم» كثر تداولها على ألسنة المتكلمين وأقلامهم فى قضية «الإعجاز القرآنى» حين برزت هذه القضية ، وجند العلماء أنفسهم للدفاع عن القرآن الكريم ضد الملاحدة والمشككين من الشعوبيين ، الذين ظهرت حركتهم أقوى ماتكون فى أوائل العصر العباسى ، حين احتضنت الدولة العباسية الفرس ، وأنزلتهم منها أكرم منزل ، فظهر من هؤلاء الكثيرون من الطاعنين فى القرآن وإعجازه من أمثال ابن المقفع ، وصالح بن عبدالقدوس وأبان بن عبدالحميد وغيرهم ، ولم ينس هؤلاء وأضرابهم عقيدتهم المجوسية .

وهذا الطعن فى القرآن الكريم ، ودفاع العلماء وذويهم عن إعجازه أظهر فى البيئة الإسلامية تلك القضية التى شغلت الفكر الإسلامى منذ القرن الثانى الهجرى ، أعنى قضية الإعجاز القرآنى .

ومنذ ذلك العصر تعددت الآراء حول الإعجاز القرآنى ، فذهب النظام المعتزلى – شيخ الجاحظ – إلى أن إعجاز القرآن بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته مع قدرتهم الذاتية عليه ، وذلك «لتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ماقصده من إيجاب الحجة ؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية أو السورة» (١) .

ولسنا بصدد مناقشة هذا الرأى ، ومدى مجانبته للصواب والتوفيق ، ولكن نقرر أن هذا الرأى لم يدفع حجة المعاندين ولم يبطل كيدهم ، بل إنه أشعل القضية وأجج نارها وجعلها تشغل بال الكثيرين من العلماء على اختلاف مذاهبهم وثقافتهم .

وكان الجاحظ من أوائل الذين تصدوا لرأى أستاذه – النظام – ولم يعجبه القول بالصرفة ، فذهب إلى أن إعجاز القرآن فى نظمه ، وألف كتابه «نظم القرآن» الذى يعد ضمن النفائس المفقودة من تراثنا العلمى ، والذى يقول عنه أبوالحسين الخياط – أحد أعلام المعتزلة – «لايعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص٤٠ ، ٤١ .

حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ» [٢] ، وإن كنا نجد عالماً ، كالباقلانى يقلل من شأن هذا الكتاب ، فيقول: «صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى» [٣] .

وإذا كان فقد الكتاب لم ييسر لنا قراءته ، فإننا لم نعرف ماذا يعنى بكلمة «النظم» فى هذا الكتاب الذى يستدل به على أن إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه .

وإذا كان هذا الكتاب لم يصل إلينا فإننا نستطيع أن نحدد رأيه فى النظم من خلال كتبه الأخرى . فنراه فى رسائله ، يقول : «إن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم ، وبلغائهم سورة واحدة – طويلة أو قصيرة – لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها : أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ، ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ فى طباعهم ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله ، وإنا لله ، وعلى الله توكلنا ، وربنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وهذا كله فى القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة ، طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان ...» [٤] .

فنظم القرآن – عنده – ليس فى أنه جاء على ألفاظ وكلمات لم تعهدها العرب ، فإن ألفاظ القرآن ألفاظ عربية يعرفها العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، ولكن نظمه فى ضم كلماته بعضها إلى بعض على نسق خاص ، وبطريقة مخصوصة ، لايقدر عليها البشر أجمعين .

ورأيه هذا نجده متناثراً فى «البيان والتبيين» ، فكثير من نصوص الكتاب يشير إلى هذا المفهوم ، بل وتفصح عن معنى النظم عنده .

فنراه يصرح أن القرآن الكريم مخالف فى نظمه لسائر الكلام ، منظومه ومنثوره ، فيما وعد به القارئ أنه سيذكر أقسام تأليف الكلام ، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج» [٥] .

(٢) الانتصار ١/١٥٤ ، ١٥٥ .
(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص٦ .
(٤) أدب الجاحظ ورسائله ٢/١٢٠ ، ١٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٨٣ .

ولم نجد له فى كتابه حديثاً فى نظم القرآن إلا هذه العبارة ، ولعله لم يبسط القول فى هذه القضية اكتفاء بشرحها فى كتابه «نظم القرآن» .

ولكنه حين يتكلم عن نظم الشعر وتأليفه يقرر أن «أجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان (٦)» .

فتلاحم أجزاء الشعر ، بحيث تكون كل لفظة فى موضعها غير نابية عن مكانها، حتى يجرى على اللسان كما يجرى الدهان مما يقوم عليه النظم والتأليف .

ويؤكد الجاحظ هذا المعنى بما رواه عن بشر بن المعتمر من أنك «تجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ، نافرة من موضعها ، فلاتكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول على غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد» (٧) .

فالكلمة إذا وقعت فى غير موقعها ، وحلت غير مكانها أخلت بنظم الكلام ، وصارت قلقة فى مكانها ، غير مستقرة فى موضعها .

وضم الكلمة إلى الكلمة ، والتأليف بين الألفاظ فى نسق واحد وفى نظم مترابط مما يتطلب مقدرة خاصة واستعداداً لايتهيأ لجميع الناس .

ويؤيد الجاحظ ذلك بما رواه عن الكسائى ، فقد قال الكسائى : «لقيت أعرابياً فجعلت أسأله عن الحرف بعد الحرف ، والشئ بعد الشئ أقرنه بغيره ، فقال : تالله ما رأيت رجلاً أقدر على كلمة إلى جنب كلمة أشبه شئ بها وأبعد شئ منها منك» (٨) .

فليس النظم مما يقدر عليه كل الناس ، ولعله أومأ بهذا إلى المحور الذى دار حوله فى نظم القرآن ، وهو أن العرب ، وإن كان عندهم القدرة على النظم والتأليف ، والألفاظ ألفاظهم ، واللغة لغتهم ، فإنهم لم يرقوا إلى نظم هذا الكلام الذى أعجزهم ، على الرغم من أنه جاء بألفاظهم ، وعلى سنن كلامهم ، وطرائقهم فى التعبير .

وإذا كان تأليف الكلام ونظمه يقتضى وضع كل كلمة موضعها الصحيح ،

---

(٦) المرجع السابق ٦٧/١ .
(٧) المرجع السابق ١٣٨/١ .
(٨) البيان والتبيين ٢٩٧/٢ .

بحيث تأخذ مكانها فى النظم ، فإن اللفظة تحسن فى موضع وتقبح فى موضع آخر ، بل إن اللفظ القبيح إذا وضع موضعه ، وصار إلى مكانه فى النظم والتأليف حسن .

ويفصح الجاحظ عن هذا بقوله : «قد يحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعانى ، كما أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً» (٩) .

فالمدار – عنده – على التلاؤم والانسجام بين أجزاء الكلام ، وأن تقر الكلمات والألفاظ قرارها وتوضع موضعها .

ومن المعلوم أن الإمام عبدالقاهر الجرجانى هو الذى حدد مفهوم هذه القضية ، ووضع الإطار الدقيق لها وبسطها بسطاً وافياً فى كتابه «دلائل الإعجاز» ، فقد وضع ضابطها فى قوله : «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلاتزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلاتخل بشئ منها» (١٠) .

ثم يشرح الإمام عبدالقاهر هذه القضية فيما ساقه من فصول ومسائل مدللاً عليها ، ومستشهداً لها بما ورد فى القرآن الكريم ، وروائع الأدب شعره ونثره ؛ ليثبت من خلال ذلك أن مرجع الإعجاز القرآنى هو النظم ليس إلا .

وإذا كان من الكاتبين من يرجع أصول هذه القضية عند عبدالقاهر إلى أرسطو فيزعم أن «مجهود ابن سينا – يعنى شرحه لكتابى الشعر والخطابة لأرسطو فى كتابه «الشفاء» – لم يذهب هباء ، ولم يكن ليذهب عبثاً ، فقد عرب كتاب «الخطابة» إذا صح هذا التعبير وجعله فى متناول الفكر العربى ، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين – يعنى العربى واليونانى – اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا . وقد تحقق هذا التوفيق فى القرن الخامس على يد عبدالقاهر الجرجانى ، فقد صنف كتابين يعتبران – بحق – أنفس ماكتب فى البيان العربى ، هما أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» (١١) .

فإننا إذ نوافق الكاتب على أن كتابى عبدالقاهر من النفاسة بحيث يعدان من أهم كتب التراث البلاغى ، إلا أننا نختلف معه فى الأصل الذى استقى منه فكره البلاغى ، وبنى عليه نظريته فى النظم ، وفى ربطها بالمعانى النحوية .

(٩) المرجع السابق ١/١٤٥ .
(١٠) دلائل الإعجاز ص : ٦٤ .
(١١) مقدمة نقد النثر ص : ٢٨ ومابعدها .

ومن يتتبع عبدالقاهر فى كتابيه ويدرك مدى تأثره بالجاحظ ، ثم يقف على مانثره الجاحظ فى كتابه من جوانب متصلة بالنظم لأدرك أن الجاحظ لم يغفل الجانب النحوى فى التأليف والنظم ، وأن الإمام عبدالقاهر وجد كثيراً من أصول نظريته عند الجاحظ ، كما سنوضح ذلك فى الباب الرابع .

فالجاحظ يصرح فى أكثر من موضع أن النحو أساس فى صناعة الكلام ، وأن التأليف إذا لم تراع فيه هذه المعانى النحوية ، والفروق الدقيقة بينها سقط الكلام وأصبح مبهرجاً قليل الغناء .

فيقرر أن أصحاب هذه اللغة – يعنى العجم – لايفقهون قول القائل منا «مكره أخاك لابطل» و «إذا عز أخاك فهن» (١٢) ، ومن لم يفهم هذا الفهم لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبوزيد ، ورأيت أبى عمرو (١٣) ، ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه ؛ لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة وتنقص البيان ؛ لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة ، ولفقد الخطأ من جميع الأمم» (١٤) .

فالنحو وتوخى قواعده ومعانيه أساس عنده فى النظم ، فالأعرابى الذى فسدت لغته بالاختلاط بالأعاجم ، فلم يفرق بين صحيح الكلام وفاسده ، ولايعتد بكلامه ، فكلامه ساقط الدرجة لعدم مراعاته للضوابط النحوية التى جاءت لغة العرب على أصولها .

وإذا كان الجاحظ يعول على النظم والتأليف ، فإنه لم يعن به القواعد النحوية ، والقوالب الجافة دون نظر إلى ماتنطوى عليه هذه القواعد من معان وأسرار ، وإنما يعنى تلك المعانى النحوية التى هى مدار المفاضلة وموضع الإمتاع والمؤانسة ، والتى سماها عبدالقاهر الجرجانى «معانى النحو» .

فنراه يذكر «أن رجلاً من قريش مر بفتى من ولد عتاب بن أسيد ، وهو يقرأ كتاب سيبويه ، فقال : أف لكم ، علم المؤدبين وهمة المحتاجين ، وقال ابن عتاب : يكون الرجل نحوياً عروضياً ، وقساماً فرضياً ، وحسن الكتاب ، جيد الحساب ، حافظاً للقرآن ، راوية للشعر ، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم ؛ لأن

(١٢) هذا المثل والذى قبله جاء على لغة من يلزم الأب والأخ الألف .
(١٣) يعنى لم يتبين وجه الخطأ فى المثالين .
(١٤) البيان والتبيين ١٦٢/١ ، ١٦٣ .

النحوى الذى ليس عنده إمتاع كالنجار الذى يدعى ليعلق باباً ، وهو أحذق الناس ، ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب ، فيقال له : انصرف ، وصاحب الإمتاع يراد فى الحالات كلها» (١٥) .

وإذا تأملنا كلامه هذا نجده يفرق بين أمرين فى تأليف الكلام ونظمه :

الأول : النحو بمعنى القواعد والقوالب الجافة ، وهذا ليس فيه شئ من الإمتاع والمؤانسة ، ولعل هذا ماعناه بقوله: «مر الشعبى بناس من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده» (١٦) .

الثانى : المعانى النحوية ، وهى اللطائف والأسرار التى يتوخاها الأديب ، وتجب مراعاتها فى نظمه ، وهذه المعانى هى محور الإمتاع والمؤانسة ، وعلى أساسها يتفاضل الأدباء ، ويفوق بعضهم بعضا ، وعلى قدر مراعاتها يكتب للأدب الزوال والاندثار أو الخلود والبقاء .

وهكذا نجد أن الجاحظ قد طوف بجوانب هذه النظرية ، وأفصح عن رأيه فيها، دون أن يجعلها قضية أو أساساً لكتابه كما فعل عبدالقاهر ، ولكن فى الحق فإن الجاحظ قد تعرض لكثير من جوانبها المهمة ، حتى إن الإمام عبدالقاهر بنى كثيراً من أصول نظريته على ما أثاره الجاحظ فى كتابه .

* * *

---

(١٥) البيان والتبيين ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ .

(١٦) المرجع السابق ٦٩/٢ .

المبحث السابع
اللفــظ والمعـــنى

إن قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا التى تشغل بال الكثيرين من الكاتبين والمؤلفين على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم ، فنقاد الأدب والبلاغيون ، وفلاسفة الجمال وعلماء النفس ، كل هؤلاء يهتمون بهذه القضية اهتماماً كبيراً ، حتى الأقدمون شغلوا بها قبل أن يعالجها العرب ، وهؤلاء وأولئك تحدثوا عن المعايير الجمالية الموضوعية التى تعد من أسس الحكم على العمل الأدبى من الناحية الفنية ، وبحثوا عن العناصر الأساسية والخصائص التى تتميز بها الأعمال الأدبية ، ولاتزال هذه المشكلة تشغل بال المعاصرين من نقاد العرب ، مع أن نقاد العرب وبلاغييهم قتلوها بحثاً فى تلك العصور البعيدة .

واهتمام البلاغيين بهذه القضية وعنايتهم بها ترجع إلى أمرين :

الأول : ارتباط هذه القضية بقضية النظم ، فإن قضية النظم كما نبتت جذورها الأولى فى بحوث كتاب الإعجاز – كما أشرنا من قبل – كذلك كان الصراع الذى نشأ فى البيئة الأدبية والنقدية بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى له أثره الكبير فى نشأة نظرية النظم ، كما تمخضت عن الكثير من المباحث التى أثرت الدرس البلاغى .

قضية اللفظ والمعنى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى البلاغة ، فإذا كانت البلاغة هى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وفصاحة أجزائه ، فإن هذا المعنى اختلف فى مرجعه ، هل هو صفة ترجع إلى اللفظ والشكل والصياغة دون المعنى ، أم أنه صفة ترجع إلى المعنى بغض النظر عن الصورة والشكل ؟

وقد انقسم نقاد العرب وبلاغيوهم – منذ العهود المتقدمة – فى هذه القضية إلى طوائف ، فمنهم من ينظر إلى أن مقومات العمل الأدبى ترجع إلى جانب المعنى ، مفضلاً شأن اللفظ والصياغة ، وآخرون أرجعوها إلى اللفظ ، مهملين شأن المعانى ، ومنهم من سوى بين اللفظ والمعنى ، وفريق منهم ينظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها فى نظم الكلام .

ولسنا بصدد شرح هذه الآراء توجيهها ، أو ترجيح بعضها على بعض ، ولكن

مايعنينا هنا هو توضيح موقف الجاحظ ، وما أثاره فى كتابه حول هذه القضية .

فقد كانت قضية اللفظ والمعنى من أهم المسائل التى أثارها ، وقد أثارها للمرة الأولى فى حياة التفكير الأدبى عند العرب ، فقد فطن إلى هذه الفكرة ، وأخذها عنه المشتغلون بالأدب والمهتمون بأركانه ، على اختلافهم فى الفهم وأسلوب النظر إلى الأدب ، والاتجاه به اتجاهاً فنياً ، أو اتجاهاً عقلياً .

وقد نظر كثير من الباحثين – سواء من القدماء أو المعاصرين – إلى الجاحظ على أنه من أنصار اللفظ الذين يقدمون العناية بالشكل والصورة ، ويطرحون المعانى ولاينظرون إليها ؛ بل يسوون فيها بين الخاصة والعامة ، وأنه يتزعم – بهذا – طائفة اللفظين .

فمن القدماء الإمام عبدالقاهر الجرجانى ، فقد صرّح فى كتابه «دلائل الإعجاز» بقوله : «إذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك – يعنى فى إهمال جانب المعانى والاهتمام بالصياغة والألفاظ – كل مبلغ ، ويتشدد غاية التشدد ، وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركاً ، وسوى فيه بين الخاصة والعامة» ، ثم قال : «وذهب الشيخ إلى استحسان المعانى ، وأنها مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة ، وضرب من التصوير . فقد تراه كيف أسقط أمر المعانى . وأبى أن يجب لها فضل ، فقال : «وهى مطروحة فى الطريق ، فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه ، لابمعناه ، وأنه إذا عدم الحسن فى لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة» [1] .

فالإمام عبدالقاهر يدافع عن المعانى ، ناظراً إلى الجاحظ على أنه يفرط فى أمرها ، وينتصر للألفاظ ويعتد بها ، وهذا الدفاع من عبدالقاهر جعل كثيراً من الكاتبين ينظرون إليه على أنه من أنصار المعنى ، وأنه يتزعم فريق المعنويين .

كما نجد من الكتاب المعاصرين من يذكر أن الجاحظ من أنصار اللفظ ، وأنه يهمل جانب المعانى ، فيصرح بأن أبا عمرو الشيبانى كان من أنصار المعنى ، فلايحفل إلا به ، غير معتد بالصياغة واللفظ ، ثم يقوم فى وجهه آخرون على رأسهم الجاحظ ، فيرون أن الصياغة هى المقوم الحق فى الأدب ، ثم يورد فى كلامه رد الجاحظ على أبى عمرو الشيبانى والذى سبق فى كلام عبدالقاهر [2] .

(١) دلائل الإعجاز ص١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) انظر النقد الأدبى الحديث ص: ٢٤٦ .

فالجاحظ عند طائفة من المعاصرين ، على رأس طائفة اللفظيين الذين يقفون وجهاً لوجه أمام المعنويين الذين على رأسهم عبدالقاهر الجرجانى ، فيقلل هؤلاء من شأن اللفظ ، وأولئك من شأن المعنى .

ولعل هذه العبارة التى رد بها الجاحظ على أبى عمرو هى التى جعلت هؤلاء الكاتبين – وبخاصة المعاصرون منهم – ينظرون إلى الجاحظ هذه النظرة . يقول صاحب النقد الأدبى الحديث : «وقد عددنا الجاحظ على رأس القائلين بقصر الحسن على اللفظ ، دون المعنى ، فهو يصرح بأن شأن الكلام شأن التصوير والصياغة» (٣) .

والواقع أن الجاحظ إذا كان قد اهتم بجانب اللفظ إلا أنه لم يهمل جانب المعنى، فاللفظ – عنده – له شأنه فى تقويم الأدب ، وللمعنى – أيضاً – أثره الذى لايجحد على روعة هذا الأدب وجماله ، ولعل الذى جعله يصرح بهذا الكلام الذى جعل الكاتبين ينظرون إليه على أنه من أنصار اللفظ هو مارآه فى عصره من العناية الزائدة والاهتمام بالكثير من المحسنات البديعية والإكثار منها ، وجرى كثير من الشعراء والكتاب وراءها ، تاركين العبارة الفخمة واللفظ المعبر ، والأسلوب المطبوع الرصين ، وطغيان ذلك على الأدب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ما رآه من الكثيرين من نقاد الأدب والمشتغلين به من اهتمامهم بالمعانى – على إطلاقها – والإشادة بها ، دون نظر إلى الألفاظ ، وإهمالهم لها إهمالاً كلياً ، فأراد أن يبين أن الألفاظ والصياغة لها شأنها ، ولابد من مراعاتها والاهتمام بها ، كما يهتم بجانب المعانى ، وأن يكون هذا الاهتمام بحيث لايطغى على الصياغة اللفظية التى يفسد طغيانها على اللفظ والمعنى جميعاً ، ويهوى بالأدب إلى الحضيض .

وفضلاً عن هذه العبارة التى أوقعت الجاحظ فى هذا الاتهام فى نظر هؤلاء ، فقد وردت عبارات أخرى قد يفهم منها – مع عدم التأمل – انتصاره للألفاظ وإطراح المعانى كلية .

فقد افتتح باب البيان بذكر الألفاظ ، وأبان عن فضلها فى تأدية المعنى ، فنقل عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى أن «المعانى القائمة فى صدور الناس المتصورة فى أذهانهم .. مستورة خفية ، وبعيدة وحشية .. لايعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولاحاجة أخيه وخليطه .. وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل» (٤) .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٣ .
(٤) البيان والتبيين ١/٧٥ .

وقد يظن البعض – من هذه العبارة – أنه يجعل المعانى القائمة فى صدور الناس لاقيمة لها دون أن تلبس ثوبها عن طريق الألفاظ ، فهى التى تخرجها من الصدور وتجليها للعقل ، «وبالكلام أرسل الله أنبياءه ، لا بالصمت» [٥] .

ويقول– أيضاً – فى باب البيان : «اعلم – حفظك الله – أن حكم الألفاظ خلاف حكم المعانى ؛ لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى – يعنى الألفاظ – مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة» [٦] .

فبعض الناظرين يمكن أن يفهم من ظاهر هذا الكلام أن المعانى كثيرة ، يغترف منها من أراد من الخاصة والعامة ، أما أسماؤها ، وهى الألفاظ فهى ميدان السباق ؛ لأنها لاتتأتى لكل طالب .

وقد عاب الجاحظ على أبى عمرو الشيبانى استجادته لبيتين من أشعار المولدين – وقد سبقت الإشارة إلى هذا – وهما :

لاتحسبن الموت موت البلى ... وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ، ولكن ذا ... أشد من ذاك على كل حال

حيث كلف رجلاً أحضر قرطاساً ودواة وكتبهما [٧] . وكان إعجاب أبى عمرو بهذين البيتين لما اشتملا عليه من جليل المعنى ، دون نظر إلى لفظهما .

يقول الجاحظ – معلقاً على صنيع أبى عمرو الشيبانى – : «ولقد رأيت أبا عمرو يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ، ليدخلها فى باب التحفظ والتذاكر ، وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لايستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً ، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيابا ، ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك فى هذا الكتاب بعض ماسمعت من أبى عبيدة ، ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة» [٨] .

والعبارة توحى – لبعض الأفهام – أن الجاحظ يقف فى وجه أبى عمرو ؛ وبخاصة أن أبا عمرو عرف عنه انتصاره للمعانى ، وإطراحه للألفاظ أياً كانت .

كما أنه يعقد طائفة من الموازنات بين شعراء وقائلين اتحدت معانيهم ، واختلفت ألفاظهم ؛ ليطلع القارئ على ماتعطيه الألفاظ للكلام من جلال وسمو ورفعة.

---

(٥) المرجع السابق ٢٧٢/١ .
(٦) المرجع السابق ٧٦/١ .
(٧) انظر دلائل الإعجاز ص١٧٦ .
(٨) البيان والتبيين ٢٤/٤ .

ففي معنى الصبر على الفقر وانتظار الفرج يروى قول على بن أبى طالب - رضى الله عنه - :

«من أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج» وقول الشاعر :

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا فأضيق الأمر أدناه من الفرج

وقول أعرابى :

تبصرنى بالعيش عرسى كأنما تبصرنى الأمر الذى أنا جاهله
يعيش الفتى بالفقر يوما وبالغنى وكل كأن لم يلق حين يزايله (٩)

فالمعنى واحد فى هذه الأقوال ، ولكنها تفاضلت من جهة تأدية هذا المعنى بالألفاظ ، التى جاء بعضها منتخباً رائقاً ، وبعضها أقل فى باب الحسن والجودة .

ومثل هذه الموازنات كثيرة فى كتابه ، وهو وإن لم يعلق عليها إلا أن بعضهم قد يفهم منها أنه يدلل على أن المعانى لاقيمة لها ، ولو كان لها قيمة لما اختلفت مقادير هذا الكلام ، حيث المعنى واحد ، والتفاوت إنما كان لتفاوت الألفاظ ، والتعبير عن ذلك المعنى .

ومثل هذه العبارات والموازنات هى التى جعلت هؤلاء وغيرهم يعدون الجاحظ من أنصار اللفظ ، وأنه على رأس فريق اللفظيين .

وإذا كان للجاحظ هذه العبارات التى أوحت بهذا الفهم ، فإن الواقع - الذى لامراء فيه - أنه لم يهمل جانب المعنى كلية ، ولكنه تعرض كثيراً للمعانى ، وأبرز فضلها ، وأهميتها فى تقويم الأدب ، بل إنه عقد كثيراً من الموازنات بين المعانى وتفاضلها ، وذكر أن منها الشريف الكريم ، ومنها البديع العجيب ، وفى كل تنازع الشعراء والأدباء ، وادعى أنه مبدعها ومخترعها .

فنراه يقرر أن «أحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله - عزّ وجل - قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع فى

(٩) المرجع السابق ٢/٣٥٠ .

القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة» (١٠) .

فهو يسوى بين اللفظ والمعنى فى التأثير على قلوب السامعين ، بل أكثر من هذا يجعل المعنى هو الأصل وصاحب الحق ، واللفظ خادم له ، فيقول: «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لافاضلاً ولامفضولاً ، ولامقصراً ولامشتركاً ولامضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده» (١١) .

فالمعنى يأتى أولاً ثم يطلب له اللفظ الذى يناسبه ويؤديه ، وأيضاً فإن المعانى – عنده – بحر لايستطيع الوصول إلى أعماقه إلا السباح الماهر ، فيذكر أن «أحمد بن المعذل بن غيلان كان يذهب مذهب مالك – رحمه الله – وكان ذا بيان وتبحر فى المعانى وتصرف فى الألفاظ» (١٢) .

والأدب – عند الجاحظ – لايبلغ الجودة ، ولايصيب المحز بلفظه فقط ، فإذا كان الأديب لفظه حسناً ومعناه رديئاً فلاقيمة له عنده .

فيذكر من صفات ثمامة بن أشرس أن «لفظه كان فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك» (١٣) .

فالكلام – كما صرح بذلك . «لايكون يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلايكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» (١٤) .

ومن الثابت أن اللفظ والمعنى كلاهما ركنا الأدب ، وهما – معاً – مناط التأثير فى النفوس والقلوب ، وتتبعنا للجاحظ فى كتابه يجعلنا نؤكد أن كلامه فى النهاية يؤول إلى هذه الفكرة .

فهو لم يفرق بين اللفظ والمعنى فى التأثير على النفوس ، سواء كان هذا التأثير حسناً أو سيئاً ، فنراه لايغفل ماتحدثه الألفاظ أو المعانى – على حد سواء – من أثر سيئ فى القلوب ، إذا جاءت المعانى سخيفة أو الألفاظ قبيحة .

فيقرر أن «سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يحتاج إلى السخيف

---

(١٠) البيان والتبيين ١/٨٣ .
(١١) المرجع السابق ١/٩٢ ، ٩٣ .
(١٢) المرجع السابق ١/١٠٣ .
(١٣) المرجع السابق ١/١١١ .
(١٤) المرجع السابق ١/١١٥ .

فى بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعانى» [١٥] .

فنراه يعدد من صفات المعانى : الشريف والكريم والنبيه ، وسرعة الدخول فى القلب ، وغيرها من الصفات التى تدل على أنه يفرق بين المعانى ، وليست كلها على درجة واحدة يشترك فيها الخاصة والعامة ، ولو كانت كذلك لم تكن هناك فائدة لهذه الصفات .

وإذا كانت الألفاظ صوراً وأشكالاً وأثواباً ، فالمعانى عنده جواهر ، وجوارٍ ، تطلب وتقبل النفس عليها .

فينقل عن بعض الربانيين من الأدباء أن «المعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها بقدر مازينت ، وحسب مازخرفت ، فقد صارت الألفاظ فى معانى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى ، والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى» [١٦] .

فإقبال النفس على المعانى أشد ، وهى تطلب لذاتها ، والألفاظ ثوب يجليها ، وإذا كانت الجوارى فيهن الحسان فمن المعانى الغرائب والعجائب .

فنراه ينصح الكاتب بقوله : «لاتجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ» [١٧] .

وهناك غير ذلك الكثير من النصوص التى تناثرت فى كتابه ، والتى تدل – صراحة – على أنه لايفرق بين اللفظ والمعنى فى ذلك الأثر الفنى الذى يحدثه المعنى» بل إن بعض هذه النصوص تشيد بالمعنى ، وتبرز أثره» [١٨] .

وإذا كان – فيما سبق من النصوص – يبدو متناقضاً ، فمرة مع اللفظ وأخرى مع المعنى ، فإن هذا التناقض يتلاشى إذا عرفنا وتذكرنا مذهبه فى تصنيع الأدب ، باختيار ألفاظه ، وإحكام مبانيه ، وجودة رصفه .

فصنعة الأدب – عنده – لها أثرها البعيد فى خلود الأدب ، وفى سهولة حفظه، وجريه على ألسنة الناس والرواة جيلاً بعد جيل . ولولا هذه الصنعة لاندثر الأدب ،

---

(١٥) البيان والتبيين ١/١٤٥ .
(١٦) المرجع السابق ١/٢٥٤ .
(١٧) المرجع السابق ١/٢٥٥ .
(١٨) انظر البيان والتبيين ١/١٨ ، ٣/٢٢٦ ، ٣٣٣ ، ٤/٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ .

كما اندثر كثير من سائر الكلام المنثور ، فلم يحفظ ولم يؤثر إلا ماكسته الصنعة .

ويروى الجاحظ – مصداقاً لذلك – أنه «قيل لعبد الصمد بن عيسى الرقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولاضاع من الموزون عشره» (١٩) ، وقد أوضحنا ذلك تفصيلاً فى فصل سابق .

وهو إذ يهتم بتصنيعه الأدب ، وتجويده ، فإنه ينبّه – صراحة – إلى الدقة فى اختيار المعانى ، والتدقيق فيها .

بل إنه ينبه إلى غاية هذا التصنيع ، وهى تحقيق المتعة الفنية فى الأدب بما يحويه من الأسرار واللطائف ، والمعانى التى هى فوق الألفاظ والمعانى جميعاً . فلاعبرة – عنده – باللفظ مالم يحمل هذه الخصائص والأسرار .

ومن ثم فقد نعى على علماء النحو اهتمامهم بالإعراب ، وعلى علماء اللغة اهتمامهم بالغريب دون نظر إلى هذه الدقائق والأسرار .

ويفصح عن ذلك بقوله «لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم – فقد طالت مشاهدتى لهم – لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور مرتها ، وأصلحتها من الفساد القديم . وفتحت اللسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى ، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر» (٢٠) .

وهذا هو ما اطمئن إليه فى التوفيق بين كلامه حول اللفظ والمعنى ، وماعسى أن يفهمه البعض من التناقض فى هذا الكلام .

---

(١٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

(٢٠) المرجع السابق ٤/٢٤ .

الفصل الثالث

مسائل فى علم المعانى

علم المعانى هو : العلم الذى يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال ، ومن المعلوم أن أبواب هذا العلم ومسائله حصرها البلاغيون وحدودها فى ثمانية أبواب هى : الإسناد الخبرى ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، والإنشاء ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة [1] .

وقد تعرض الجاحظ فى كتابه لكثير من المسائل التى أدرجها البلاغيون تحت هذا العلم ، مكتفياً بالحديث عن بعضها الآخر فى كتبه ومؤلفاته الأخرى ، كالحيوان الذى أدار فيه بحوثاً كاملة تمخضت للدرس البلاغى وتدخل فى هذا العلم .

فهو فى منهجه – كما أشرنا من قبل – يشعر قارئه أن كتبه الكثيرة كلها كأنها كتاب واحد ، هى ثمرة فكره وعقله ، فجميع مؤلفاته ميدان واحد له أن يصول ويجول فى أى موضع منها ؛ ولذا فهو يضع المسائل والمباحث فى أى مكان من هذه الكتب ، بغض النظر عن مكان هذا الموضع أو اسم ذلك الكتاب . ولذا فإننا عندما قصرنا الجهد على «البيان والتبيين» لنستخرج منه جهود الجاحظ البلاغية لم نعمد إلى تجميع كل آرائه البلاغية المتناثرة فى كل ما ألفه ، وإنما قصدنا إلى وضع هذا الكتاب الوضع اللائق به فى حلقات التاريخ البلاغى . فآراء الجاحظ البلاغية مبعثرة ومبثوثة فى كل كتبه ومصنفاته ، «ومن يحاول الاهتداء إلى هذه الآراء كلها عليه أن يستوعب تلك الكتب من أولها إلى آخرها ، وسيجد حتماً كثيراً من العنت حتى يوفق إلى مايريده ، ويستطيع أن يجمع تلك الأفكار المشتتة ، ويضم الألف منها إلى ألفه ، حتى تتضح له الفكرة المبثوثة فى مواضع متفرقة ، وحينئذ – وبعد هذا العناء – يستطيع أن يقف على آراء الجاحظ وجهوده البلاغية» [2] .

وحديث الجاحظ عن المسائل التى تعرض لها فى كتابه مما يتصل بالمعانى يدل على وضوح هذه المسائل عنده ، فعلى الرغم من إشاراته السريعة فى بعض ماتعرض له إلا أن هذه الإشارات تدل على تمكن هذه المسائل فى عقله ، وتدل –

---

(١) انظر الإيضاح ١/٣٥ ، ٣٧ .

(٢) دراسات فى نقد الأدب العربى ص١٨٠ بتصرف .

أيضاً - على أن هذا العلم كانت مسائله ناضجة فى هذا العصر ، بل كانت قاسماً مشتركاً بين علماء عصره .

ونقف فى هذا الفصل مع ما أثاره الجاحظ من المسائل والمباحث ، التى أقام عليها البلاغيون بعد ماسمى بـ«علم المعانى» .

المبحث الأول
الحـــــــذف

الحذف من المسالك اللطيفة التى لايهتدى إليها إلا الخاصة من أرباب البيان ، وصناعة الكلام فقد عبر عنه الإمام عبدالقاهر الجرجانى بقوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بياناً إذا لم تبن ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر» (٣) .

والجاحظ فى حديثه عن الحذف لم يغفل فضل هذا الباب ، ودقة مسلكه ، وما له من الملاحة والطرافة ، وعظيم الأثر فى نفوس السامعين ، فينبه إلى ذلك بقوله : «كان يزيد بن هبيرة يقول : احذفوا الحديث كما يحذفه سلم بن قتيبة ، ويزعمون أنهم لم يروا محدثاً قط صاحب آثار كان أجود حذفاً وأحسن اختصاراً للحديث من سفيان ابن عيينة» (٤) .

فالحذف غرض يقصد إليه الأدباء وأرباب الكلام ، على اختلاف صناعتهم ، وقد كان من الأدباء سلم بن قتيبة يضرب به المثل فى ذلك ، كما ضرب المثل بسفيان ابن عيينة من جماعة المحدثين .

وقد خصص الجاحظ للحذف بابين عقدهما فى كتابه ، جعل الأول بعنوان : «باب ماقالوا من الحديث الحسن الموجز المحذوف ، وسمى الثانى «باب من الكلام المحذوف» .

وفى الباب الأول يعرض لجملة من أشعار المتقدمين ، تضمنت حذف المبتدأ ، كقول بشار :

أنس غرائر ماهممن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من أنس الحديث زوانيا ... ويصدهن عن الخنا الإسلام

(٣) دلائل الإعجاز ص : ١٠٤ .
(٤) البيان والتبيين ١/١٧٤ ، ١٧٥ .

أى : هن أوانس ، فحذف المبتدأ .

ومنه قول الأخطل :

شمس إذا خطل الحديث أوانس	يرقبن كل مجذر تنبال
أنف كأن حديثهن تنادم	بالكأس كل عقيلة مكسال

أى : هن شمس ، وهن أنف ، على حذف المبتدأ .

وقال الراجز يصف عيون الظباء بالسحر ، وذكر قوسا فقال :

صفراء فرع خطموها بوتر	لأم ممر مثل حلقوم النغر
حور العيون بابليات النظر	يحسبها الناظر من وحش البشر [٥]

أى : هى صفراء ، وهى حور العين ، بحذف المبتدأ .

وفى الباب الثانى يعرض الجاحظ لمجموعة من الكلام المنثور والموزون ، تضمن بعضها حذف الخبر ، وتضمن الآخر حذف جملة بأكملها ، أو أكثر من جملة .

فمن حذف الخبر ماروى عن الحسن أن المهاجرين قالوا : «يارسول الله ، إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا ، قال النبى – عليه السلام – : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن ذاك» [٦] .

ويعلق الجاحظ على هذا الحديث بما يبرز أن المحذوف هو الخبر ، فيقول : «ليس فى الحديث غير هذا ، يريد : أن ذاك شكر ومكافأة» [٧] .

ومن حذف الخبر – أيضاً – مارواه «أن رجلاً كلم عمر بن عبدالعزيز فى حاجة ، وجعل يمت بقرابة ، فقال عمر : فإن ذاك ، ثم ذكر حاجته ، فقال : لعل ذاك» ، لم يزده على أن قال : فإن ذاك ، ولعل ذاك ، أى : أن لك كما قلت ، ولعل حاجتك تقضى» [٨] .

ومن حذف الجملة بأكملها ماروى أنه لما كتب أبوعبيدة إلى عمر – رضى الله عنه – جواب كتابه فى أمر الطاعون ، فقرأ عمر الكتاب ، واسترجع ، فقال له

---

(٥) المرجع السابق ٢٧٦/١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ .
(٦) البيان والتبيين ٢٧٨/٢ .
(٧) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٨) المرجع السابق – الموضع السابق .

المسلمون : مات أبوعبيدة ؟ قال : لا ، وكأن قد» (٩) . يعنى وكأن قد مات ، بحذف جملة من الفعل وفاعله ، ومنه قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

أى : وكأن قد زالت ، فحذفت الجملة .

ومما تضمن حذف جملة وخبر قول ابن الأعرابى :

إذا قيل أعمى ، قلت : إن وربما ... أكون ، وأنى من فتى لبصير (١٠)

يعنى : أن قولكم صحيح ، فحذف جملة من المبتدأ والخبر ، وأراد بقوله: «ربما أكون» أى : ربما أكون بصيراً ، فحذف خبر أكن .

ومن حذف أكثر من جملة ماروى «أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : إنى لأستعين بالرجل الذى ليس فيه ، ليس فى الحديث غير هذا ، ثم ابتداء الكلام فقال : ثم أكون على قفائه إذا كان أقوى من المؤمن الضعيف وأرد ، وهو قول الأسدى:

سويد فيه فابغونا سواه ... أبيناه وأن بهاه تاج

ولم يقل فيه كذا ، وفيه كذا» (١١) .

وهذا التوضيح من الجاحظ – أعنى قوله : لم يقل فيه كذا وفيه كذا – بيان للمحذوف من الكلام وأنه ليس جزءاً من جملة واحدة ، وإنما المحذوف جمل توالت وكثرت .

والشواهد التى ساقها الجاحظ فى بابى الحذف كثيرة ومتعددة ، غير أنه – مما سبق – يتضح أنه تعرض لحذف المبتدأ وحذف الخبر ، وهما ركنا الجملة وأهم أجزائها ، كما تعرض لحذف الجملة بأسرها ، وأيضاً إذا كان المحذوف أكثر من جملة .

والجاحظ بحديثه المستفيض عن الحذف وبيان فضله ، وإشاراته الواضحة إلى أقسامه أوحى للبلاغيين بعده حديثهم عن الحذف وأهميته ، وبيان أقسامه ، فقسموه

(٩) المرجع السابق ٢/٢٧٩ .
(١٠) المرجع السابق ٢/٢٨٠ .
(١١) المرجع السابق ٢/٢٨٠ ، ٢٨١ .

إلى ثلاثة أقسام : حذف جزء الجملة ، وحذف جملة بأكملها ، وحذف أكثر من جملة[١٢] .

ولم يضيفوا إلى ماقاله الجاحظ إلا ماتعرضوا له فى حذف بعض أجزاء الجملة، من حذف الفاعل والمفعول ، وسائر متعلقات الفعل وغيرها من أجزاء الجملة . واكتفى الجاحظ بالإشارة إلى أهم جزئين فى الجملة هما : المبتدأ والخبر .

وعلى الرغم من أن الجاحظ عقد للحذف بابين إلا أنه يجرى حديثه فى الباب الثانى على أنهما باب واحد وكلام متصل ، فيصدر كلامه فى الباب الثانى بقوله : «ثم نرجع بعد ذلك إلى الكلام الأول» [١٣] مما يجعلنا نؤكد أنه كان ينثر معلوماته ومعارفه فى أى موضع من كتبه على أنها كتاب واحد ، ولاسيما البحوث والمسائل البلاغية .

* * *

(١٢) الإيضاح ١٢٢/٢ .
(١٣) البيان والتبيين ٢٧٨/٢ .

المبحث الثانى
من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

عرفنا من قبل الحال ، وقلنا إنه هو : الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ، كالذكر والحذف والتقديم والتأخير ، وما إلى ذلك من الخصوصيات المعتبرة فى الكلام .

ونذكر هنا أن الحال قسمان : **ظاهر** : هو مايبدو من ظاهر حال المخاطب ، أو المناسبة التى يساق لها الكلام ، دون اعتبار أمر آخر ، كتوكيد الخبر فى قوله تعالى ، على لسان رسله لقومهم : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ (١٤) ، فظاهر حال هؤلاء القوم الإنكار ، فاستدعى الكلام التوكيد ، لإزالة هذا الإنكار عند المخاطبين ، ومجئ الكلام مؤكداً مراعاة لظاهر حال المخاطب هو تخريج للكلام على مقتضى ظاهر الحال .
وخلاف الظاهر : ويكون باعتبار أمر آخر غير مايبدو من ظاهر حال المخاطب أو المقام ، كتنزيل غير المنكر منزلة المنكر لسبب من الأسباب التى تدعو إلى ذلك ، كما فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (١٥) ، فالموت حقيقة واقعة لاينكرها أحد، ولكن المخاطبين – لغفلتهم ولهوهم وإعراضهم – نزلوا منزلة من يدعى الخلود وينكر الموت ؛ فلهذا الاعتبار خوطبوا خطاب المنكرين ، وجاء الكلام مؤكداً كما يؤكد للمنكر، وإخراج الكلام على هذا النحو إخراج له على خلاف مقتضى ظاهر الحال .

وقد عرض الجاحظ – فى كتابه – لكثير من الصور التى جاء الكلام فيها مخالفاً لمقتضى ظاهر الحال ، وهاك بيانها :

(١) الكلام الذى يذهب السامع منه إلى قصد صاحبه :

يعنى الجاحظ بهذا النوع : الكلام الذى يأتى به المتكلم وفقاً لفهم السامع ومجراه فى كلامه ، وإن خالف مقتضى الظاهر . وهذا النوع – من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر – لم يتعرض له البلاغيون .

---
(١٤) يس . ى : ١٤ .
(١٥) المؤمنون . ى : ١٥ .

وقد مثل له الجاحظ بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ (١٦) وقـوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾(١٧) وقـوله : ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(١٨) ، وذكر أن المفسر سئل عن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١٩) فقال : ليس فيها بكرة ولاعشيى ، وقوله تعالى لنبيه – ﷺ – ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ (٢٠) ، قالوا : لم يشك ولم يسل (٢١) .

ففى هذه الأساليب جاء الكلام مخالفاً لمقتضى ظاهر الحال والمقام ، فليس فى يوم القيامة سكر حتى يعبر عنهم «بسكارى» ، والحمل على الاستعارة أو التشبيه بعيد ، لقوله: «وماهم بسكارى» ، كما أنه ليس فى جهنم موت ولاحياة ، والموت لايأتيه لأنه ليس بميت ، وكذا باقى الآيات ، وإنما جاء الكلام مخالفاً لهذا الظاهر جرياً مع مايفهمه السامع وتقريباً لفهمه .

وقد أدرج الجاحظ تحت هذا النوع أمثلة لما أسماه البلاغيون بعده «الأسلوب الحكيم» ، وحدوه بأنه «تلقى المخاطب بغير مايترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير مايتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله ، والمهم له » (٢٢) .

فيذكر من هذه الأمثلة «أن رجلاً سأل بلالاً ، مولى أبى بكر – رحمه الله – وقد أقبل من جهة الحلبة ، فقال له : من سبق ؟ قال : سبق المقربون . قال : إنما أسألك عن الخيل ، قال : وأنا أجيبك عن الخير» فنزل بلال جواب لفظه إلى خبر هو نفع له (٢٣) .

فهذا المثال ينطبق عليه تعريف المتأخرين للأسلوب الحكيم ، حيث أجاب بلال السائل بغير مايتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره ؛ تنبيهاً على أن هذا هو الأولى بالسؤال والاستفسار .

(١٦) الحج . ى : ٢ .
(١٧) طه . ى : ٧٤ .
(١٨) إبراهيم . ى : ١٧ .
(١٩) مريم . ى : ٦٢ .
(٢٠) يونس . ى : ٩٤ .
(٢١) البيان والتبيين ٢/٢٨١ .
(٢٢) الإيضاح ١/١٦٠ .
(٢٣) البيان والتبيين ٢/٢٨٢ .

وذكر الجاحظ – أيضاً – من الأمثلة أن عمر بن الخطاب لما أقدم عمرو بن العاص عليه من مصر قال له عمر: «لقد سرت سير عاشق . قال عمرو : إنى – والله – ماتأطبتنى الإماء ، ولاحملتنى البغايا فى غبرات المآلى [٢٤] . قال له عمر : والله ماهذا بجواب الكلام الذى سألتك عنه ، وإن الدجاجة لتفحص فى الرماد ، فتضع لغير الفحل ، والبيضة منسوبة إلى طرقها . وقام عمر فدخل ، وقام عمرو فقال : لقد أفحش أمير المؤمنين علينا [٢٥] .

فهذا – أيضاً – يمكن إدخاله فى الأسلوب الحكيم ، فقد حمل عمرو بن العاص كلام عمر بن الخطاب على خلاف مقصوده ؛ تنبيهاً على أن هذا ماكان ينبغى أن يقصد ، ولذا رد عليه عمر بقوله : والله ماهذا بجواب الكلام الذى سألتك عنه .

وبهذه الأمثلة التى عرض لها ، وتلك الإشارة التى أشار إليها فى هذا الباب مهد للبلاغيين حديثهم عن «الأسلوب الحكيم» فأفردوا له مبحثاً مستقلاً من مباحث «علم المعانى» وعدوه ضمن صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ووضعوا له تعريفاً وتحديداً .

(٢) اللغز فى الجواب :

هذا النوع – عند الجاحظ – أعم مما عرف بالأسلوب الحكيم ، فالمقصود به – عنده – هو : تلقى المخاطب أو السائل بغير قصده ، سواء كان لقصد التنبيه إلى ماهو أولى ، أم كان لقصد الألغاز فى الرد على المخاطب أو السائل .

وقد عقد له باباً مستقلاً ، وساق فى هذا الباب الكثير من الأمثلة والشواهد لهذا النوع ، مثل قولهم : «كان الحطيئة يرعى غنماً ، وفى يده عصا ، فمر به رجل فقال : ياراعى الغنم ماعندك ؟ قال عجراء من سلم [٢٦] . يعنى عصاه . قال : إنى ضيف . قال : للضيفان أعددتها» [٢٧] .

فتلقى السائل هنا بغير مايطلب أعم من أن يكون المقصود تنبيهه على أنه الأولى بالسؤال ، فليس هنا مايدعو إلى السؤال عن العصا ، حتى يكون هو الأولى .

ومن الأمثلة التى ذكرها فى هذا الباب مارواه أن «أزهر بن عبدالحارث أتاه رجل من بنى يربوع فقال : ألا أدخل ؟ قال : وراءك أوسع لك . قال : قد أحرقت

---

(٢٤) البغايا : الزوانى ، غبرات المآلى : بقايا خرق الحائض .

(٢٥) البيان والتبيين ٢/٢٨٣ .

(٢٦) العجراء : كثيرة العقد . السلم : شجر .

(٢٧) البيان والتبيين ٢/١٤٧ .

الشمس رجلى ، بل عليهما تبردا . فقال : يا آل يربوع ، قال : ذليلاً دعوت ، يابنى دريص ، أطعمتكم عاما أول جلة فأكلتم جلتكم ، وأغرتم على جلة الضيفان» (٢٨) .

ففيه مايعم تلقى المخاطب والسائل – كليهما – بغير طلبهما ، وليس فيه تنبيه إلى شئ آخر ، ولكن المقصود هو الألغاز فى جواب المخاطب أو السائل .

وليس المقصود بالألغاز – فى هذا الباب – هو التعمية والإبهام ، ولكن المقصود هو الجنوح بكلام المخاطب أو السائل عن غير قصده ، وصرف كلامه إلى معنى آخر لغرض من الأغراض التى يحددها المقام والسياق ، كاحتقار السائل وعدم الاهتمام به فى قول الحطيئة ، والأعراض عن المخاطب وتسفيهه فى كلام أزهر .

وقد عرض الجاحظ فى هذا الباب لطائفة من الشواهد والنصوص التى تدخل – أيضاً – تحت ماسمى بالأسلوب الحكيم ، مما جعلنا نقرر أن هذا النوع – عنده – أعم من تلقى المخاطب بغير مايترقب أو السائل بغير مايطلب ؛ تنبيهاً لهما على الأولى بالقصد .

فمن ذلك مارواه ، «أن الحجاج قال لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال: أمتفرقاً كان فأجمعه ! قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه ، قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه ! قال : ماتقول فى أمير المؤمنين عبدالملك ؟ قال : لعنه الله ولعنك معه . قال : إنك مقتول ، فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقى الله بعملى وتلقاه بدمى» (٢٩) .

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التى أدخلها البلاغيون فى الأسلوب الحكيم ، وتراه – كما هو واضح – قد وزع أمثلة الأسلوب الحكيم بين هذا النوع والذى قبله .

وعلى الرغم من أنه عقد باباً خاصاً للغز فى الجواب – كما أشرنا – إلا أنه نثر كثيراً من أمثلته فى مواضع أخرى من كتابه .

ففى موضع من الكتاب يروى «أن عيسى بن موسى سئل عن رجل ، فقال : إن له شرفاً وبيتاً وقدماً . فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة ، فقيل له فى ذلك فقال : ماكذبت ، شرفه : أذناه ، وقدمه التى يمشى عليها ، ولابد من أن يكون له بيت يأوى إليه» (٣٠) .

---

(٢٨) الجلة – بالضم – وعاء من خوص يوضع فيه التمر ويحفظ ، وانظر البيان والتبيين ١٤٨/٢ .
(٢٩) المرجع السابق ١٤٨/٢ ، ١٤٩ .
(٣٠) المرجع السابق ٣٣٧/١ .

فهذا المثال – كما هو واضح – ينطبق عليه ماعناه باللغز فى الجواب ، ومع هذا فقد ذكره بعيداً عن بابه .

(٣) القلب :

وهو فى اصطلاح البلاغيين جعل جزء من الكلام مكان جزء آخر على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر ، كقول العرب : عرضت الناقة على الحوض [٣١] .

وقد تعرض الجاحظ فى كتابه لهذا النوع ، ونص عليه صراحة فى باب نعته «بباب تأديب من تأديب العلماء» .

فيروى أن سعيد بن عثمان بن عفان – رحمه الله – قال لطويس المغنى : أينا أسن ، أنا أم أنت ياطاووس ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب» [٣٢] .

ويعلق على هذه الرواية بما ينبئ عن وضوح معنى القلب عنده ، فيقول : «فانظر إلى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام ، كيف لم يقل : زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك . وهكذا كان وجه الكلام ، فقلب المعنى» [٣٣] .

وهذا النوع من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . وقد رده قوم مطلقاً ورفضوه لأنه عكس المطلوب ، ونقيض المقصود ، وقبله قوم مطلقاً ؛ لأن قلب الكلام مما يحوج إلى التنبيه على الأصل ، وذلك مما يورث الكلام ملاحة ولطفاً .

ويبدو من كلام الجاحظ أنه لايقبل القلب على إطلاقه ، ولايرفضه على إطلاقه، ولكنه مقبول – عنده – إذا تضمن اعتباراً لطيفاً ، كما فى هذا الشاهد الذى ذكرناه آنفاً ، فالقلب هنا لتكون البركة فى جانب الأم والطيبة فى جانب الأب ، فتثبت لهما البركة والطيبة معاً .

وقد هيأ الجاحظ – بهذه الإشارة – للبلاغيين بعده حديثهم عن القلب فعرفوه ، والتمسوا له الكثير من الشواهد والأمثلة ، وجعلوا له بحثاً مستقلاً ، وعدوه ضمن الصور التى يخرج بها الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال .

* * *

---

(٣١) انظر بغية الإيضاح ١٦٣/١ .

(٣٢) البيان والتبيين ٢٦٣/١ .

(٣٣) المرجع السابق ٢٦٣/١ ، ٢٦٤ .

المبحث الثالث
الفصل والوصل

الفصل والوصل من أهم أبواب علم المعانى ، وقد عرف البلاغيون الوصل : بأنه عطف الجمل التى لامحل لها من الإعراب بعضها على بعض بالواو خاصة ، والفصل ترك ذلك العطف (٣٤) .

واستطرد كثير من البلاغيين فى هذا الباب ، فتحدثوا عن العطف بين المفردات ، والجمل التى لها محل من الإعراب ، كما تعرضوا للعطف بغير الواو ، كالفاء وثم وغيرهما .

وعلة اقتصارهم على الجمل التى لامحل لها من الإعراب ، دون المفردات أو الجمل التى لها محل من الإعراب هو أن المفردات أو الجمل التى لها محل من الإعراب لها حكم إعرابى يراد التشريك فيه أو عدم التشريك ، فالأمر فيها ظاهر ، أما الجمل التى لامحل لها من الإعراب فليس لها حكم إعرابى يراد تشريك الجملتين فيه أو عدم تشريكهما ، فعظم الأمر وغمض ، واقتضى البحث عن الأسرار التى تدعو إلى هذا العطف أو تركه ، أما اقتصارهم على الواو خاصة فلأن حروف العطف – عدا الواو – لها معان خاصة ، كالترتيب والتعقيب فى الفاء ، والترتيب مع التراخى فى ثم وهكذا . فإذا أريد التعبير عن معنى من هذه المعانى جئ بالحرف الدال عليه ، فهان الخطب . أما الواو فإنها لاتفيد غير مطلق التشريك ، فاقتضى الأمر أن ينظر إلى معان أخرى غير التشريك يراد جمع الجملتين عليها أو تركه .

وقد كان حديث الجاحظ فى مسائل هذا الباب جارياً مع هذا التعميم ، وإن لم يكن مبسوطاً ومسهباً ، فقد كان حديثه عن الفصل والوصل فى كتابه حديثاً مقتضباً اكتفى فيه بالتلميح دون التصريح ، وبالتمثيل دون الشرح والإطالة .

فيتعرض للعطف مشيراً إلى أن كل حرف من حروف العطف له موضعه من الكلام حسب مقتضيات الأحوال ، فقد يكون الموضع لثمَّ فلا تليق الواو أو العكس ، فيروى «أن رجلاً من مجاشع قال : جاء الحسن فى دم كان فينا ، فخطب ، فأجابه

---

(٣٤) بغية الإيضاح ٢/٦٢ .

رجل فقال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لاتقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله» (٣٥) .

وواضح من هذه الرواية أنه لايقصر جمال الوصل على الواو خاصة ؛ بل قد يكون غيرها من حروف العطف أوقع منها ، بل أدخل منها فى البلاغة ، كما نلمس – أيضاً – أنه لايخص كلامه فى الوصل بالجمل التى لامحل لها من الإعراب ، بل يعممه ليشمل الجملة وغيرها ، فالعطف فى كلام الحسن لشبه جملة على شبه جملة .

وتعرض الجاحظ لصورة من صور الوصل ، وهى : كمال الانقطاع مع الإيهام، حيث تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً ، فكان الموضع يقتضى الفصل ، ولكن إيهام خلاف المقصود جعل الموضع للوصل ، دون الفصل .

وقد أشار إلى ذلك فيما رواه أن «رجلاً مر بأبى بكر ومعه ثوب ، فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبوبكر – رضى الله عنه – : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لاوعافاك الله» (٣٦) .

فهو يدرك أن الموضع للوصل ، حيث المقصود الدعاء له ، وليس الفصل حيث يكون دعاءً عليه ، وقد أدرك أبوبكر هذا ، وفطن إلى مقصود القائل ، وأن العبارة لم تؤد هذا المقصود ، فوجهه إلى صحة العبارة .

أما إذا أريد العكس فالموضع للفصل دون الوصل ، فيروى الجاحظ «أن مسلمة ابن عبدالملك قال لنصيب الشاعر : ويحك يا أبا الحجناء ، أما تحسن الهجاء ؟ قال : أما ترانى أحسن مكان : عافاك الله ، لا عافاك الله» (٣٧) .

ومواضع الفصل والوصل بين الجمل من المسائل التى لايهتدى إليها إلا من لهم قدم راسخة فى البيان وصناعة الكلام ، فقد قدم الإمام عبدالقاهر الجرجانى حديثه عن الفصل والوصل بقوله : «اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها ، والمجئ بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لايأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، وإلا أقوام طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم به أفراد ، وقد بلغ الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل

---

(٣٥) البيان والتبيين ٢٦١/١ .
(٣٦) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٣٧) البيان والتبيين ٢٠٧/١ .

عنها فقال : هى معرفة الفصل من الوصل ، ذاك لغموضه ، ودقة مسلكه ، وأنه لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة» (٣٨) .

وإذا كان للفصل والوصل هذه الدرجة من اهتمام البلاغيين فإن الجاحظ لم يغفل هذا الاهتمام فأشار إلى ذلك حين جعل المعرفة بمواضع كل منهما من أهم مسائل البلاغة ؛ بل هو أهم عناصرها ومباحثها ، فقد قصر البلاغة عليهما فى قوله : «سئل الفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل» (٣٩) وقد ألمح عبدالقاهر – فى كلامه – إلى هذه الإشارة .

وقد فتحت هذه الإشارة أمام البلاغيين الطريق ، ونبهتهم إلى أهمية هذا الباب، وعمق أثره فى تأدية المعانى ، وفى نظم الكلام على حد سواء ، بل إن هذه اللمحات التى ألمح إليها الجاحظ كانت قبساً لمن جاء بعده ، فاهتدى بضوئها وزاد فى مسائلها.

ولعلى بعد هذا العرض الموجز لحديث الجاحظ عن الفصل والوصل لا أذهب إلى ماذهب إليه بعض الباحثين من «أن الجاحظ تحدث عن الفصل والوصل ، عندما سئل الفارسى عن البلاغة ، فقال : هى معرفة الفصل من الوصل ، ووقف عند هذا الحد ، ولم يبين مواضع الفصل ، ولا مواضع الوصل ، بل لم يزد على هذه الجملة التى رواها» (٤٠) .

فحديث الجاحظ – كما هو واضح مما سبق – لم يقتصر على هذا الموضع الذى ذكره الباحث ؛ بل كانت له – غير ذلك – تلك الومضات التى هيأت للبلاغيين بعده حديثهم فى هذا الباب .

* * *

(٣٨) دلائل الإعجاز ص : ١٥٤ .
(٣٩) البيان والتبيين ٨٨/١ .
(٤٠) عبدالقاهر الجرجانى وجهوده البلاغية ص٢٥٨ .

المبحث الرابع
الإيجاز والإطناب

أفاض الجاحظ فى حديثه عن الإيجاز والإطناب ، مما يقتضى التعرض لكل منهما بحديث مستقل .

أولاً : الإطناب :

وهو – عنده – التعبير عن المعانى بما كثر من الألفاظ ، وزاد عن حاجة هذه المعانى .

وقد كان أول ماذكره فى كتابه عن الإطناب «أن العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقى بالشر من حقوق القرى ، ومن تمام الإكرام به ، وقالوا : من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المواكلة ، وقال شاعرهم :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته ولـم يلهنى عنه غـزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع[41]

فالإطناب وكثرة الحديث ، وإطالة الكلام مع الضيفان من النزل الذى يقدم له، وله مدخل فى بلاغة الكلام .

ثم يعود فيقرر «أنهم وإن كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب ، والإكثار ، لما فى ذلك من التزيد والمباهاة ، واتباع الهوى والمنافسة فى الغلو ، وكانوا يكرهون الفضول فى البلاغة؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة والسلطة تدعو إلى البذاء ، وكل مراء فى الأرض فإنما هو من نتاج الفضول»[42].

كما يذكر «أنا ناسا قالوا لابن عمر : ادع الله بدعوات ، فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا . فقالوا : لو زدتنا يا أبا عبدالرحمن ، قال : نعوذ بالله من الإسهاب»[43].

---

(٤١) البيان والتبيين ١٠/١ .
(٤٢) المرجع السابق ١٩١/١ .
(٤٣) البيان والتبيين ١٩٥/١ ، ١٩٦ .

فيصرح بأن الإكثار وإطالة الكلام فيها من التزيد والمباهاة ماجعلهم يكرهونها.

وربما يفهم البعض تناقضاً بين هذا الكلام وذاك ، ولكن هذا التناقض يزول إذا عرفنا أن الإطناب – عند الجاحظ – يدور حول معنى البلاغة وجوهرها ، وهو المطابقة لمقتضى الحال والمقام ، فالإطناب محمود ومطلوب إذا كان لأنس الضيفان ، بل هو مما لاتتم بلاغة الكلام مع الضيف إلا به ، أما إذا كان المقام ليس بحاجة إلى الإكثار فى الكلام ، وإنما القصد إلى المباهاة والتزيد فى القول ، والفضول فى البلاغة فهو مذموم ومرفوض .

ويؤكد ذلك بقوله : «جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه» [٤٤].

ويروى فى ذلك قول أبى داوود الإيادى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحى الملاحظ خيفة الرقباء

ثم يعلق على البيت بقوله : «فمدح – كما ترى – الإطالة فى موضعها ، والحذف فى موضعه» [٤٥] .

فالمدار عنده على المطابقة ، فإذا كان الموضع للإطناب حسن الإكثار والإسهاب ، وهذا هو الإطناب الذى كانوا يتهيأون له بحمل العصا والمخصرة «فحمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة ، والتهيؤ للإطناب ، والإطالة ، وذلك شئ خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ، ومنسوب إليهم» [٤٦] .

والرسول – ﷺ – أفصح العرب وأبلغ بلغائهم كانت له خطبه الطوال ، إلا أنه كان يضع كلامه حيث يقتضيه المقام ، فلم يطنب إلا فى مواضع الإطناب .

ويقرر الجاحظ ذلك فى قوله : «وقد شاهدوا النبى – ﷺ – وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، ولم يطل التماساً للطول ، ولارغبة فى القدرة على الكثير ، ولكن المعانى إذا كثرت والوجوه إذا افتنت كثر عدد اللفظ ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف» [٤٧] .

---

(٤٤) المرجع السابق ٧/٢ .
(٤٥) المرجع السابق ١٥٥/١ .
(٤٦) المرجع السابق ١١٧/٣ .
(٤٧) المرجع السابق ٢٨/٤ .

ومن هنا كان إطنابه – ﷺ – فى قوة إيجازه ، واختصاره فى أحاديثه لاسيما جوامع كلمه ﷺ .

أما إذا خرج الإطناب عن دائرة المطابقة لمقتضى الحال ، وجاء مخلاً بالغرض المطلوب ، وفيه من الإفراط والإسهاب مايجعل الأذواق تمجه ، والأسماع تلفظه ، فإنه يخل ببلاغة الكلام ، ويجعله ساقط الدرجة «فرب كثير لايتعلق به صاحب القليل»(٤٨) .

ويصرح الجاحظ بذلك فى قوله : «فأما ماذكرتم من الإسهاب والتكلف ، والخطل والتزيد فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلف ، وإلى الخطل المتزيد» (٤٩) .

وقد نبّه الجاحظ إلى نوعين من أنواع الإطناب :

النوع الأول : التكرار ، الذى سماه «ترداداً» ، ويعنى به : ماتكرر من أجزاء الكلام أو القصة ، وقد نبه إلى ماكان منه معيباً ، فيروى فى ذلك أنه جاء فى التوراة «لايعاد الحديث مرتين» ، وعن الزهرى قال : «إعادة الحديث أشد من نقل الصخر»(٥٠) .

ويذكر أن ابن السمّاك جعل يوماً يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه ، لولا أنك تكثر ترداده . قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لايفهمه قد مله من فهمه» (٥١) .

فالتكرار معيب على كل حال ؛ لأنه يخل بتسلسل الحديث وارتباطه ، ويجعل السامع يمل وإصغاءه للحديث يقل ، مع مافى التكرار من التزيد والفضول والإسهاب البغيض .

ولكن هذا العيب ليس على إطلاقه ، فالترداد ليس له حد ينتهى إليه ، وقد وقع التكرار فى القرآن الكريم ، وفى مواعظ الوعاظ ، وجاء حسناً رائقاً ؛ بل إن وقوعه فى القرآن الكريم كان على أعلى درجات البلاغة والإعجاز ، فهو – عنده – يدور حول المناسبة والغرض الذى سيق الكلام من أجله .

«وجملة القول فى الترداد – كما صرح بذلك – أنه ليس له حد ينتهى إليه

---

(٤٨) البيان والتبيين ٢/٧ .
(٤٩) المرجع السابق ١/٢٠١ .
(٥٠) المرجع السابق ١/١٠٤ .
(٥١) المرجع السابق – الموضع السابق .

ولايؤتى على وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل - ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة ؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبى غافل ، أو معاند مشغول الفكر، ساهى القلب ، وأما أحاديث القصص والرقة فإنى لم أر أحداً يعيب ذلك ، وماسمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ ، وترداد المعانى عياً إلا ماكان من النخار بن أوس العذرى ، فإنه كان إذا تكلم فى الحمالات وفى الصفح والاحتمال ، وصلاح ذات البين ، وتخويف الفريقين من التفانى والبوار كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف ، وربما حمى فنخر» (٥٢) .

فالتكرار جاء فى القرآن الكريم لأنه خاطب جميع الأمم على اختلاف عقولهم وأفهامهم ، فاقتضى المقام ذكر ذلك الأمر فى أكثر من موضع ، كما ورد التكرار فى كلام الوعاظ ، وفى خطب الخطباء ، ولم يخرج منه عن البلاغة إلا ماخرج عن دائرة المطابقة لمقتضى الحال .

ويقتضينا المقام أن نقف مع بعض الأسرار واللطائف التى دعت إلى ورود التكرار فى القرآن الكريم ، فمن ذلك :

(١) تعدد المتعلق ، كما فى قوله تعالى فى سورة الرحمن: «فبأى آلاء ربكما تكذبان». فإنه - سبحانه - عدد فى هذه السورة نعماً مفصلة ، واحدة بعد أخرى ، وعقب كل نعمة بهذه العبارة «فبأى آلاء ربكما تكذبان» . فكل عبارة تتعلق بما قبلها ، والعبارة المكررة تساؤل عما يستطيع أن ينكره الجن والإنس مما أولاهما الله من النعم. وهذا السؤال - بتكرره - يثير فى نفس سامعيه - من الثقلين - اليقين بأن نكران نعم توالت يجافى الحق ، ويجانب الصواب ؛ ولذا فإن الجن كانت تردد عقب كل سؤال قولهم : «ولابشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» كما ورد به الحديث الصحيح.

ومثل سورة الرحمن سورة المرسلات ، فقد تكرر قوله تعالى : «ويل يومئذ للمكذبين» لتعدد متعلقها فى السورة الكريمة ، وفيها إلى جانب ذلك التخويف والإنذار.

(٢) التفخيم والتهويل من شأن المكرر ، كما فى قوله تعالى : «القارعة . ما القارعة .

---

(٥٢) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

وما أدراك ما القارعة» (٥٣) ، وقوله : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (٥٤) .

(٣) أن يطول الفصل بين متلازمين ، فيعاد الأول لتقريب الفهم على السامع ، وربط آخر الكلام بأوله ربطاً وثيقاً ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (٥٥) . فقد أعيد قوله : «فلما جاءهم» لطول الفصل بين فعل الشرط وجوابه ، كما هو واضح .

(٤) تأكيد الإنذار والتخويف . كما فى قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٥٦) . فإن كلمة «كلا» تفيد الردع والزجر عن التشاغل بالدنيا عن الآخرة ، و «سوف تعلمون» تهديد وإنذار للمخاطبين لما هم فيه من بعد عن الهداية إذ أنهم تكاثروا فى الأموال ، وتلهوا بها عن عبادة الله ، فزجرهم الله – سبحانه وتعالى – بقوله «كلا» وأنذرهم – متوعداً – بقوله: «سوف تعلمون» أى مغبة ما أنتم فيه إذا شاهدتم هول يوم القيامة ، ثم أكد هذا الزجر والإنذار بقوله : «ثم كلا سوف تعلمون» .

إلى غير ذلك من الأغراض والدواعى الكثيرة ، التى جاء كل تكرار فيها مطابقاً لمقتضى الحال ، وفى أرقى درجات الفصاحة والبلاغة .

النوع الثانى : إصابة المقدار . وعنى به : أن يأتى المتكلم بكلام على قدر معناه؛ بحيث إذا أراد أن يخرج منه شيئاً أتى من الألفاظ بما يخرجه .

وقد خص الجاحظ هذا النوع بباب مستقل صدره بقوله : «ويذكرون الكلام الموزون ، ويمدحون به ، ويفضلون إصابة المقادير ، ويذمون الخروج من التعديل»(٥٧) ، ومثل له بقول الشاعر :

إذا حسرت عنه العمامة راعها ... جميل الحقوف أغفلته الدواهن

---

(٥٣) القارعة . الآيات : ١-٣ .
(٥٤) الانفطار . ى : ١٧ ، ١٨ .
(٥٥) البقرة . ى : ٨٩ .
(٥٦) التكاثر . الآيات : ١-٤ .
(٥٧) البيان والتبيين ٢٢٧/١ .

فإن أك معروق العظام فإنني -إذا ما وازنت القوم بالقوم – وازن

فقد أصاب الشاعر المقدار بقوله: «إذا ما وازنت القوم بالقوم» ولو لم يقل هذه العبارة لكان فى كلامه تعميم غير مقصود ، ربما سبق إليه وهم السامع ، فرفع الشاعر هذا الوهم بتضمين كلامه هذه العبارة .

ومن الأمثلة التى ساقها لإصابة المقدار قول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

طلب الغيث على قدر الحاجة ؛ لأن الفاضل ضار [٥٨] .

وهذا النوع أخذه البلاغيون عن الجاحظ ، ووضعوا له اسم «الاحتراس أو التكميل» وعرفوه بما عناه به ، فهو – عندهم – «أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه» ، ومثلوا له بما مثل به الجاحظ لهذا النوع [٥٩] .

ثانياً : الإيجاز :

الإيجاز – عند البلاغيين – هو : عرض المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة ، مع الإبانة والإفصاح ؛ ليسهل تعلقها فى الذهن وتذكرها عند الحاجة» [٦٠] .

وحول هذا المعنى أدار الجاحظ حديثه عن الإيجاز «فأحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره» [٦١] ، و «رب قليل يغني عن الكثير ، بل رب كلمة تغنى عن خطبة» [٦٢] .

وإذا كان الإكثار والإطناب فى موضعه من الكلام حسناً رائقاً ، فإن الإيجاز – عنده – أحسن موقعاً ، وأحمد أمراً . فيقرر ذلك فى قوله : «قد علمنا أن من يقرض الشعر ، ويتكلف الأسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم فى تحبير المنثور ، وقد تعمق فى المعانى ، وتكلف إقامة الوزن ، والذى تجود به الطبيعة ، وتعطيه النفس سهواً رهواً» مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمراً وأحسن موقعاً من القلوب وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج [٦٣] .

---

(٥٨) المرجع السابق ٢٢٨/١ .
(٥٩) انظر الإيضاح ١٤٢/٢ .
(٦٠) انظر بغية الإيضاح ١١٨/٢ .
(٦١) البيان والتبيين ٨٢/١ .
(٦٢) المرجع السابق ٧/٢ .
(٦٣) البيان والتبيين ٢٩/٢٨/٤ .

وفى حديثه عن ثمامة بن أشرس يقول : «ماعلمت أنه كان فى زمانه قروى ولابدوى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف» (٦٤) .

فأمر الإيجاز – عنده – يدور حول القلة فى عدد الألفاظ والحروف ، مع تضمنها ا لكثير من المعانى ووضوحها فى نفوس السامعين .

وهو ميدان تبارى فيه الأدباء ، وحاز فيه بعضهم قصب السبق ، فجاء كلامه إشارات مفهومة ، وكان لفظه فى وزن إشارته ، فقد «وصف أعرابى أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال : كان والله يضع الهناء مواضع النقب (٦٥) ، ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل المحز ، ويصيب المفصل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق ، فجعلوه مثلاً للمصيب الموجز» (٦٦) .

والإيجاز – عنده – له من الشأن والفخامة ، حتى جعل كأنه البلاغة بأكملها ، فقد جاء فى تفسير ابن المقفع للبلاغة – الذى وصفه بأنه لم يفسره أحد قط – أن الإيجاز هو البلاغة (٦٧) .

إيجاز القصر :

وقد ألمح الجاحظ إلى هذا النوع من الإيجاز ، الذى سماه البلاغيون «إيجاز القصر» وعنوا به : ماتضمن الكثير من المعانى ، مع قلة الألفاظ ، وليس فيه حذف شئ من أجزائه (٦٨) .

فقد روى طائفة من الشعر فى باب فضل الإيجاز ، صدرّها بقوله : «ومما قالوا فى الإيجاز وبلوغ المعانى بالألفاظ اليسيرة .. إلى آخره» (٦٩) .

وواضح من هذا التصدير أنه يخص الإيجاز بما تضمنت فيه العبارة القليلة الكثير من المعانى ، وهو معنى إيجاز القصر .

أما الإيجاز بالحذف فقد عرض له عرضاً مستقلاً فى باب الحذف ، وعقد له بابين ، كما سبق أن أوضحنا ذلك فى باب الحذف .

---

(٦٤) المرجع السابق ١/١١١ .
(٦٥) الهناء – بالكسر – نوع من القطران تطلى به الإبل ، النقب : جمع نقبة – بالضم – وهى أول الجرب .
(٦٦) البيان والتبيين ١/١٠٧ .
(٦٧) المرجع السابق ١/١١٦ .
(٦٨) انظر الإيضاح ٢/١١٨ .
(٦٩) البيان والتبيين ١/١٤٩ .

وقد عقد الجاحظ لهذا النوع من الإيجاز – أعنى إيجاز القصر – باباً أسماه «باب القول فى المعانى الظاهرة باللفظ الموجز من ملتقطات كلام الناس» عرض فيه لطائفة من النصوص جاءت موجزة فى لفظها مع كثرة معانيها ، ووضوح فهمها ، كقول بعض العرب «من التوقى ترك الإفراط فى التوقى» ، وقولهم : «إذا لم يكن ماتريد فأرد مايكون» .

وقول الشاعر :

قـــدر اللــــه وارد	حـــين يقضـــى وروده
فـــأرد مـــايكـــون إن	لم يـــكن ماتريـــده

وقول الأحنف بن قيس «أخافك إن صدقتك ، وأخاف الله إن كذبتك» وقال عمر ابن عبدالعزيز لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : «لو كنت كذلك لم تقله» (٧٠) .

فهذه الشواهد – وغيرها كثير – مما ساقه فى هذا الباب ، تتضمن الكثير من المعانى التى لو كتبت فيها عبارات كثيرة لوسعتها ، ولكنها جاءت واضحة ظاهرة بألفاظ قليلة .

والجاحظ لم يعن بالإيجاز ماكان الكلام فيه يزيد معناه على لفظه فقط ، ولكن الإيجاز – عنده – يشمل ماتساوى معناه مع لفظه ، فكلامه فى الإيجاز يدخل فيه ماسمى عند البلاغيين «المساواة» ، فكلام العرب – عنده – قسمان : طويل ، وهو الإطناب ، وقصير وهو الإيجاز ولاثالث لهما (٧١) .

وهو فى مدحه للإيجاز وإشادته به يفرق بين الخطب والرسائل ولايسوى بينهما ، فإذا كانت الخطب تستدعى الإطناب والإطالة ، فإن الرسائل لايصلحها إلا الإيجاز .

فيذكر «إن جعفر بن يحيى كان أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والفخامة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة» (٧٢) ، ويروى عن جعفر بن يحيى أنه كان يقول لكتابه : «إن استطعتم أن

(٧٠) البيان والتبيين ٢١٠/١ ، ٢١١ .
(٧١) المرجع السابق ٧/٢ .
(٧٢) المرجع السابق ١٠٥/١ ، ١٠٦ .

يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا» (٧٣) ، بينما الخطب كانوا يتهيأون للإطناب فيها بحمل العصا والمخصرة (٧٤) .

ومن الواضح أن مدار الأمر فى هذه التفرقة بين الخطب التى هى ميدان الإطناب والبسط ، وبين الرسائل التى يناسبها الإيجاز والاختصار يدور حول المطابقة، فالخطب تستدعى جذب انتباه السامعين ، والاستيلاء على عقولهم ومشاعرهم ، واختيار العبارات والألفاظ التى تقرع أسماعهم وأذهانهم ويغلب عليها الترادف ليصل الخطيب إلى غرضه . أما الرسائل فالقصد منها بيان رأى فى موضوع أو توجيه إلى أمر ما ، أو طلب شئ يريده صاحب الرسالة ، فالحال تقتضى الاقتصار على قدر الحاجة وتضمين الرسالة من الألفاظ مايؤدى المقصود دون زيادة عليه .

والجاحظ فى كلامه عن فصاحة الرسول – ﷺ – عنى أشد العناية بإبراز هذه الخاصية – أعنى صفة الإيجاز – فيصدر بها وصفه لكلامه عليه السلام ، فيقول : «أنا ذاكر لك فناً من كلامه – ﷺ – وهو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه» (٧٥) .

ويؤيد كلامه هذا بطائفة من أحاديثه – عليه الصلاة والسلام – مؤكداً أن صفة الإيجاز فى كلامه – عليه السلام – هى مما خصه الله به ، فيقول : «والذى يدلك على أن الله – عز وجل – قد خصه بالإيجاز وقلة عدد الحروف مع كثرة المعانى قوله – ﷺ – : «نصرت بالصبا ، وأعطيت جوامع الكلم» (٧٦) . وهو القليل الجامع للكثير (٧٧) .

وإذا كان الجاحظ يبرز هذه الخصوصية من خصوصيات الرسول الكريم ، فلكى يثبت فضل الإيجاز وروعته ودقة مسلكه ، وعلو مرتبته فى إبراز المعانى ، وجعلها أسهل حفظاً للذهن ، وأخف حملاً على القلب .

وهكذا كان حديث الجاحظ عن الإطناب والإيجاز واضحاً ومستفيضاً ، ودائراً حول مطابقة كل منهما لمقتضى الحال والمقام ، مما نبّه البلاغيين – بعده – إلى أهمية هذا الباب ، وعدوه من الأبواب المهمة فى علم المعانى ؛ لأن له فضلاً ومدخلاً

---

(٧٣) المرجع السابق ١/١١٥ .
(٧٤) المرجع السابق ٣/١١٧ .
(٧٥) البيان والتبيين ٢-١٦ ، ١٧ .
(٧٦) المرجع السابق ٢/٢٨ .
(٧٧) المرجع السابق ٤/٢٩ .

فى بلاغة الكلام ، لارتباطه الوثيق بالمطابقة ، التى هى موضوع هذا العلم .

تلك هى المسائل والبحوث التى أثارها الجاحظ فى كتابه ، والتى أدخلها البلاغيون تحت «علم المعانى» وكما هو واضح مما سبق أن هذه البحوث - وإن تعرض لها الجاحظ تعرضاً سريعاً موجزاً - إلا أننا نلمح فى هذه الإشارات وضوح الفكرة ونضجها فى عقله ، ففتح بذلك أبواباً كثيرة أمام البلاغيين للحديث فى مسائل هذا العلم وتصنيفها ، وعرضها فى أسلوب يتناسب وعصرهم .

* * *

الفصل الرابع

مسائل علم البيان

علم البيان هو : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه . ودلالة اللفظ على معناه أما على ماوضع له وتسمى دلالة وضعية ، أو على غير ماوضع له ، وتسمى دلالة عقلية ، وشرط هذه الدلالة الأخيرة اللزوم الذهنى ، بأن يكون حصول ماوضع له اللفظ فى الذهن ملزوماً لحصول الخارج فيه ، لئلا يلزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر .

وإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه لايتأتى بالدلالة الوضعية للفظ ؛ لأن السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض ، وإلا لم يكن واحداً منها دالاً ، وإنما يتأتى هذا الإيراد بالدلالات العقلية ، لجواز أن يكون للشئ لوازم بعضها أوضح لزوماً من بعض ، بأن تكون الوسائط بين اللازم والملزوم فى بعضها قليلة ، وفى بعضها كثيرة ، مما يختلف به وضوح الدلالة .

ثم اللفظ المراد به لازم ماوضع له إن قامت قرينة على عدم إرادة ماوضع له فهو مجاز ، وإلا فكناية . ثم المجاز منه الاستعارة ، وابتناؤها على التشبيه ، فتعين التعرض له فى هذا العلم .

ومن هنا فقد حصر البلاغيون أبواب هذا العلم ومسائله فى هذه المباحث الثلاثة: التشبيه ، والمجاز ، والكناية [1] .

فموضوع علم البيان – كما هو معروف – هو دلالة اللفظ على معناه ، ومدى وضوح هذه الدلالة ، واختلاف درجة هذا الوضوح .

والبحث فى هذا العلم هو بحث حول المعانى المختبئة فى الصدور ، وكيفية إبرازها ، والإبانة عنها فى معارض مختلفة ومتعددة فى وضوح الدلالة عليها .

وإذا كان الجاحظ قد عبر عن المعانى بأنها ميسورة معروفة ، يستوى فيها الخاصة والعامة ، وأنها مطروحة فى الطريق ، فذلك لكى يبرز ما للصياغة من أهمية فى صناعة الأدب ، ولكنه – على الرغم من هذا – لم يهمل جانب المعنى ، ودلالة اللفظ عليه إهمالاً كلياً ، كما قد يبدو من عبارته ، فقد تعرض للمعانى ، وذكر منها

---

(١) انظر الإيضاح ٦/٢ .

الغريب والعجيب والبديع والمخترع ، ويبين أن من هذه المعانى ماعبر عنه الشعراء تعبيراً فريداً لايستطاع مجاراته أو معارضته ، كما سبق توضيح ذلك .

كما تعرض لدلالة اللفظ على معناه ، واختلافها من تشبيه ومجاز وكناية ، إلا أن حديثه عن هذه الصور البيانية فى كتابه «الحيوان» كان أغنى وأغزر مادة من حديثه عنها فى «البيان والتبيين» .

فنراه فى موضع من الحيوان ، وفى معرض حديثه عن السرقات الشعرية ، يقول : «ولايعلم فى الأرض شاعر مقدم فى تشبيه مصيب تام ، وفى معنى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ، أو فى بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يقدر على لفظه ، فيسرق بعضه ، أو يدعيه بأسره فإنه لم يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولايكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خطر على بالى من غير سماع ، كما خطر على بال الأول ، هذا إذا قرعوه به ، إلا ماكان من أمر عنترة فى صفة الذباب ، فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرضوا له ، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك ، ومن اضطرابه فيه إنه صار دليلاً على سوء طبعه فى الشعر . قال عنترة :

جادت عليه كل عين ثرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم

فترى الذباب بها فليس ببارح ... هزج ، كفعل الشارب المترنم

غردا يحك ذراعه بذراعه ... فعل المكب على الزناد الأجذم [٢]

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجذم : المقطوع اليدين ، فوصف الذباب إذا كان واقفاً ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة» [٣] .

فنراه يقف مع هذا التشبيه تلك الوقفة المتأنية ، ويعترف بأن التشبيه المصيب ، والمعنى الغريب وكيفية الدلالة عليه مما يتنازعه الشعراء ، ويدعى كل منهم أنه صاحبه .

---

(٢) الثرة : غزيرة الماء . وهزج : ترنم وطرب فى غنائه .

(٣) الحيوان ٧٨/٦ .

وإنما نقلت هذا النص من الحيوان – على الرغم من طوله – لندرك أن حديثه فى «البيان والتبيين» عن الصور البيانية لم يكن بهذه الاستفاضة ، وهذا الوضوح ، وإنما اكتفى فيه بالعبارة الموجزة ، واللمحة الدالة ، ولكنه كان شاملاً لكل الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية .

وكثرة حديثه عن هذه الصور واستيعابه لها فى الحيوان يرجع إلى أسبقية «الحيوان» فى التأليف ، ثم إنه فى «الحيوان» تعرض لتأويل الكثير من آى الذكر الحكيم أثناء رده على مطاعن الملاحدة وشبهاتهم حول هذه الآيات ، بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبى ، ودلالات صوره البيانية ، وقد نوه بجهود المعتزلة فى هذا الصدد ، فقال : «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون» (٤) .

وأوضح فى موضع آخر أن البصر بتصاريف اللغة وضروب استعمالاتها ، وماكان منها حقيقة وماكان منها مجازاً أو يتوقف عليه معرفة كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ – .

ومن قوله فى ذلك : «للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عليه عندهم على معانيهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضع أخر ، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل ، فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك» (٥) .

ولعله أراد لكتابه «البيان والتبيين» الذى جعله كتاباً خاصاً فى البيان ومسائله ووسائل تصنيعه أن يكون كتاب الخاصة من الكتاب والشعراء ، والمشتغلين بصناعة الكلام ، وهؤلاء ليسوا بحاجة إلى البسط والإسهاب وكثرة الكلام حول مسائل البلاغة والبيان ، وإنما تكفيهم الإشارة الدالة ، فضلاً عن الوضوح الذى يبدو خلال عرضه لهذه المسائل .

وقد كان استغراق حديثه لأبواب علم البيان ومسائله دليلاً واضحاً على النضج البلاغى عنده ، فقد تعرض لمسائل التشبيه ، والاستعارة ، والكناية . فى إشارات واضحة ولمحات دالة ، لالبس فيها ولاغموض .

وهانحن نعرض لهذه المباحث البيانية التى ذكرها فى «البيان والتبيين» .

---

(٤) المرجع السابق ٢٠٦/٤ .

(٥) الحيوان ١٥٣/١ ، ١٥٤ .

المبحث الأول
التشـــــبيه

التشبيه – عند البلاغيين – هو : الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر فى معنى بأداة تشبيه (٦) .

وقد أكثر الجاحظ من حديثه عن التشبيه بمعناه الاصطلاحى نفسه ، وأول ما أشار إليه هو المقصود الأهم من التشبيه .

فأهم مقاصد التشبيه هو الإيجاز فى عرض المعانى ، وذلك لأن قولك : محمد كالبحر جودا أوجز من أى عبارة تؤدى هذا المعنى الذى تضمنه التشبيه ، أو وصف المشبه بالكثير من الصفات .

فقد تحدث عن الإيجاز ، وبلوغ المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وألمح إلى أن التشبيه من أهم مايؤدى إلى الإيجاز ، ومن أمثلته قول الشاعر يصف ناقته :

خرقـــاء إلا أنهـــا صنـــاع

فوصف سرعة نقل يديها ورجليها أنها تشبه المرأة الخرقاء ، وهى الخرقاء فى أمرها الطياشة (٧) .

وأفصح عن وجه الشبه فى هذا التشبيه فى موضع من الحيوان ، حيث صرح بأن الشاعر وصف الناقة فى هذا البيت بالنشاط والقوة (٨) .

وقد عقد الجاحظ فى «البيان والتبيين» باباً للتشبيه نعته «باب من الشعر فيه تشبيه الشئ بالشئ» أتى فيه بمثالين للتشبيه اختلفت فيهما الأداة . الأول : أداته «مثل» ، وهو قول الشاعر :

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقنى ... وكـــل حجـــازى له البرق شائق
سرى مثل نبض العرق والليل دونه ... وأعـلام أبلى كلهـا والأســالق (٩)

(٦) انظر الإيضاح ٣/٦ ، ٧ .
(٧) البيان والتبيين ١/١٥٠ .
(٨) الحيوان ٣/٧٢ .
(٩) البيان والتبيين ٢/٣٢٨ .

والثانى : أداته الكاف ، وهو قول الشاعر :

أرقت لبــرق آخـــر الليــل يلمع ... ســرى دائبـاً حـيناً يهب ويهــجع

سرى كاحتساء الطير والليل ضارب ... بأوراقه والصـبح قد كاد يسطع (١٠)

ولعله عنى بعقد هذا الباب الإشارة إلى أن التشبيه لابد فيه من الأداة كشرط لتحقق التشبيه ، وأن الأداة مختلفة ، فمنها ماهو اسم كمثل ، أو حرف كالكاف .

وأشار الجاحظ إلى طرفى التشبيه فى حديثه عن المشبه به ، فالطرفان - المشبه والمشبه به - يشتركان فى أمور كثيرة ، ولكن الأديب يقصد بعضها واحداً أو أكثر ؛ لأن ذلك يتفق مع غرضه ، ومن الواجب أن يكون للمشبه به شهرة فى وجه الشبه ، وتميز به عن غيره من نظائره .

ففى حديثه عن فصاحة الرسول - عليه السلام - وماورد فى أحاديثه من تشبيهات رائقة ، يشير إلى أن تشبيهاته جاءت فى محزها ، وأصابت غرضها ؛ حيث كان المشبه به أعرف بوجه الشبه .

وهنا يشير الجاحظ إلى مسألة مهمة ، وهى أنه لاتكفى الشهرة بوجه الشبه فى المشبه به حتى يصيب التشبيه موضعه ، بل ينبغى ألايوهم فى ذهن السامع مايبعد عن وجه الشبه المقصود . فيقول : «فمن كلامه - ﷺ - : «الناس كلهم سواء كأسنان المشط» (١١) ، فقد أصاب المحز بهذا التشبيه ، وأعطى السامع صورة لما يقصده من عدم التفاضل بين الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ولم يوهم - مع ذلك - شيئاً غير المقصود . «وقال الشاعر فى هذا المعنى» :

سواء كأسنان الحمـــــار فلاترى ... لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

وقال آخر :

شبــابهم وشيبتـــهم ســـواء ... فهــم فى اللـــؤم أسنـان الحمـار

وإذا حصلت تشبيه كلا الشاعرين وحقيقته ، وتشبيه النبى - ﷺ - وحقيقته عرفت فصل مابين الكلامين» (١٢) .

---

(١٠) المرجع السابق - الموضع السابق .
(١١) المرجع السابق ١٩/٢ .
(١٢) المرجع السابق - الموضع السابق .

فقد أوهم التشبيه فى البيتين ذما غير مقصود ، مع عدم إصابته ودقته ، مما لانجده فى كلام النبى – ﷺ – .

ويضرب الجاحظ بعض الأمثلة على وضوح وجه الشبه وشهرته فى بعض الأشياء ، فقد شبه بالقناة فى الشدة والاستقامة ، فيقال : رجل كالقناة ، وفرس كالقناة ، وقال الشاعر :

متى مايجئ يوما إلى المال وارثى يجد جمع كف غير ملأى ولاصفر (١٣)

يجد فرساً مثل القناة وصارما حساما إذا ماهز لم يرض بالهبر(١٤)

ولهذا القصد – أيضاً – شبهت عظام المرأة بالخيزران فى لينها وتمايلها إذ كانت الخيزران أعرف بهذا المعنى من أى شئ آخر ، وذلك قول الشاعر :

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران (١٥)

وقد أماط الجاحظ اللثام عن هذه المسألة بوضوح تام فى «الحيوان» ، فقد ذكر قول النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخون

ثم قال : وليس لهذا الكلام وجه ؛ لأن الناس إنما يضربون المثل بشىء نادر من فعل الرجال ، ومن سائر أمورهم كصبر أيوب ، وحلم الأحنف ، وكرم حاتم ، أما إذا ضرب المثل بفعل شخص ، ولم يكن مشهوراً به كان الكلام مصروفاً عن وجهه ، ولو كان الفعل من صفات الشخص ، فإذا قلت : كان الشعبى لايمنع ، وكان النخعى لايقول : لا ، لم يكن شيئاً ، ولو كان الأمر فيهما على ماقلت ، لكنهما غير مشهورين بذلك» (١٦) .

وفضائل التشبيه كثيرة ، ومنها : أنه يأتيك من الشئ الواحد بأشباه عدة نحو أن يعطيك من الزند بإيرائه الجواد والذكى والنجح فى الأمور ، وبإصلاده شبه البخيل والبليد والخيبة فى السعى ، ومن القمر يأتيك بالكمال بعد النقصان ، والنقصان بعد

---

(١٣) جمع كف – بالضم – وهو قدر أن تجمع أصابعها ونضمها .

(١٤) الهبر : قطع اللحم ، وانظر البيان والتبيين ٥٩/٣ .

(١٥) البيان والتبيين ٦٢/٤ .

(١٦) الحيوان ٢٤٦/٢ .

الكمال ، وتتفرع من حالتى كماله ونقصه فروع لطيفة (١٧) .

وقد تنبه الجاحظ إلى هذه الفضيلة ، فالشئ الواحد يشبه به فى أمور عدة ، كالغصن ، مرة يشبه به فى النضارة وكثرة الإيراق ، كما فى قول الشاعر :

رأيت الغانيات نفرن منى نفار الوحش من رام مفيق (١٨)
رأين تغيرى وأردن لدنا كغصن البان ذى الفنن الوريق (١٩)

ومرة يجعل قضيبا يشبه به فى العرى وفقدان النضارة ، كقول أبى العتاهية :

عريت من الشباب وكنت غضا كما يعرى من الورق القضيب
ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب (٢٠)

ومرة يشبه به فى اللين والتثنى ، كقول الشاعر :

ولئن عمرت لقد عمرت كأننى غصن تثنيه الرياح رطيب
وكذاك حقا من يعمر يبله كر الزمان عليه والتقليب (٢١)

وإذا كان وجه الشبه هو الصفة التى تجمع بين المشبه والمشبه به ، وأنه ينبغى أن يكون المشبه به أعرف وأشهر بهذه الصفة ، فإنه مما يجعل التشبيه بعيداً غريباً أن يكون وجه الشبه خفياً مما يحوج إلى معاودة النظر وكد الفكر فى الانتقال من المشبه إلى المشبه به .

ومن الأمور التى تجعل التشبيه بعيداً غريباً أن يندر حضور صورة المشبه به فى الذهن عند استحضار صورة المشبه ، لما يكون من بعد التناسب بين الصورتين ، وقد ألمح الجاحظ إلى هذه الصورة فيما رواه من قول أبى زبيد الطائى فى صفة الأسد:

للصدر منه عويل فيه حشرجة كأنما هو من أحشاء مصدور (٢٢)

(١٧) الإيضاح ٣/١٢ ، ١٣ .
(١٨) أفاق الرامى السهم : وضعه فى الوتر ليرمى به .
(١٩) البيان والتبيين ٣/٨٢ .
(٢٠) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٢١) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٢٢) المرجع السابق ١/٣٥٧ .

فالبعد واضح فى هذا التشبيه ، إذ أن حضور صورة المشبه به ، وهو صوت أحشاء المصدور ، مما يندر عند استحضار صورة المشبه، وهو صوت الأسد وعويله .

والأصل فى التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أبين منه وأوضح ، أو بما هو أحسن منه أو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، ويلحق الأدنى بالأعلى ، وفى هذا من المبالغة مالايخفى ، ولكن الأدباء قد يجنح بهم الخيال ، فيعمدون إلى مبالغة أقوى ، بقلب التشبيه ، وجعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ، فيعمدون إلى المشبه فيجعلونه مشبهاً به مدعين أنه أقوى وأتم فى وجه الشبه من المشبه به ، ويجعلون المشبه به مشبهاً ، على ادعاء أنه أقل وأدنى فى وجه الشبه من المشبه . وهذا موضع من البيان حسن الموقع لطيف المأخذ ، والفائدة فيه عائدة على المشبه به الذى كان بحسب الأصل مشبهاً .

وقد أفصح الجاحظ عن هذه الصورة التشبيهية المقلوبة عند تعرضه لقول بشر ابن أبى خازم :

لله در بنى الحـــداء مـــن نفـــر وكل حـــار على جـيـــرانه كلب

إذا غـدوا وعصـــى الطلح أرجلـــهم كما تنصب وسط البيعة الصلب (٢٣)

فعصى الطلح مشهورة بالاعوجاج ، فيشبه بها فى هذا المعنى ، لكونها أعرف به ، وقد قصد الشاعر إلى تشبيه أرجل هؤلاء القوم فى اعوجاجها بعصى الطلح . «فالشاعر يعنى أنهم كانوا عرجانا ، فأرجلهم مثل عصى الطلح ، وعصى الطلح معوجة» (٢٤) ، ولكنه لم يأت بالتشبيه على أصله ، وجاء به مقلوباً ، كما ترى .

وإذا كان من التشبيه المبتذل القريب ، والغريب البعيد ، فإنه مما يخرج به المبتذل القريب من الابتذال والقرب إلى الغرابة والبعد الجمع بين عدة تشبيهات ، كما يزداد التشبيه بهذا الجمع لطفاً وغرابة . وقد أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله : «لم أر أجمع من قول امرئ القيس :

له أيطلا ظبـــى وساقـــا نعامـــة وارخاء سرحان وتقريب تتفل (٢٥)

(٢٣) البيان والتبيين ٧٥/٣ .
(٢٤) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٢٥) المرجع السابق ٥٣/٤ .

وإنما زاد التشبيه هنا لطفاً لتعدد المشبه والمشبه به فيه ، وماعناه بهذه الإشارة الموجزة هو ماوضحه أبوهلال العسكرى ؛ حيث قال فى هذا البيت : «هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام ؛ لأن الفرس لايكون له أيطلا ظبى ، ولاساقا نعامة ، ولاغيره مما ذكره ، وإنما المعنى له أيطلان كأيطلى ظبى ، وساقان كساقى نعامة ، وهذا من بديع التشبيه ؛ لأنه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء فى بيت واحد» (٢٦) .

ومما سبق يتضح أن الجاحظ قد أحاط بمعظم أركان هذا الفن ، وأبان عن أهم مقاصده ، مدركاً المغزى الدقيق من الصورة التشبيهية ، ومشيراً إلى أهمية رسم هذه الصورة ، وأنه لايقدر على الإبداع فى رسمها إلا المهرة من صناع الكلام وأرباب البيان .

ويجل الأمر ويعظم ، وتدق الصورة ويحلو مذاقها إذا تنوسى هذا التشبيه ، وقامت عليه الاستعارة ، فالاستعارة تشبيه متناسى ، ومن هنا عظم أمر التشبيه ، ودخل فى علم البيان .

* * *

(٢٦) الصناعتين ص : ٥٥ .

المبحث الثانى

الاستعارة

معروف أن المجاز اللغوى هو : استعمال اللفظ فى غير ماوضع له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، وأن هذه العلاقة إن كانت المشابهة بين المعنى الأصلى للفظ والمعنى المجازى الذى استعمل فيه فاستعارة ، وإن كانت علاقة أخرى غير المشابهة فمجازمرسل .

وقد اقتصر الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» على بيان الاستعارة ، ومايدور حولها فى أحاديث منثورة فى كتابه ، ولم يجر ذكر للمجاز المرسل فيما تعرض له فى الكتاب .

ولعل السبب فى هذا هو ما للاستعارة من أهمية فى صناعة الكلام ، وماتقوم عليه من دقة المسلك ولطف المأخذ ؛ لابتنائها على التشبيه ، فالأمر فيها يحتاج إلى تأن فى الفهم ، قد لايحتاجه المجاز المرسل .

ومن المعلوم أن الاستعارة فى عرف البلاغيين هى : استعمال اللفظ فى غير ماوضع له لعلاقة المشابهة بين ماوضع له وما استعمل فيه ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول . فهى تشبيه أضمر أحد طرفيه المشبه أو المشبه به ، فإن كان المضمر هو المشبه ، والمصرح به هو المشبه به فالاستعارة تصريحية ، وإن صرح بالمشبه وأضمر المشبه به وكنى عنه بذكر أحد لوازمه أو خصوصياته فالاستعارة مكنية ، ثم الاستعارة التصريحية إن كان لفظ المشبه به اسم جنس فأصلية ، وإن كان تابعاً لاسم الجنس كالأفعال والصفات المشتقة منها والحروف فتبعية ، وتسمى الاستعارة تمثيلية إن كان اللفظ المستعار مركباً دالاً على هيئة [٢٧] .

وقد أشار الجاحظ فى كتابه إلى تعريف الاستعارة ، وأتى فى لمحات دالة على كل أقسامها ، بل شمل حديثه ماسمى بالاستعارة العنادية .

فأول مايلقانا من ذلك تعريفه للاستعارة ، فقد عرفها بأنها : «تسمية الشئ باسم غيره إذا قام مقامه» [٢٨] .

---

(٢٧) انظر الإيضاح ٨٧/٣ ، ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٥٤ .

(٢٨) البيان والتبيين ١٥٣/١ .

وواضح أن البلاغيين استمدوا تعريفهم من هذا الإطار الذى حدده الجاحظ لمفهوم الاستعارة ، فتعريفه لها لم يبعد عن تعريف البلاغيين الذى سبقت الإشارة إليه.

وقد جاء تعريفه للاستعارة فى معرض حديثه عن الاستعارة التبعية فى قول الشاعر :

يادار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاها
أخربها عمران من بناها وكر ممساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

يقول : طفقت : يعنى ظلت ، تبكى على عراصها عيناها . عيناها هنا ، للسحاب ، وجعل المطر بكاء على طريق الاستعارة ، وتسمية الشئ باسم غيره إذا قام مقامه ، ويقال لكل جدبة متفتقة ليس فيها بناء عرصه» [٢٩] .

ونعتقد أن تحليله للاستعارة فى هذا البيت ومايماثله هى التى جعلت البلاغيين – بعده – ينظمون مثل هذه الاستعارة فى باب الاستعارة التصريحية التبعية ، إذا أجروا الاستعارة فى القرينة ، أى فى مثل «تبكى» فى البيت ، وقد يجعلونها فى باب الاستعارة المكنية إذا أجروا الاستعارة فى السحابة على نحو ماهو معروف مشهور ، وكأن الجاحظ هو المسئول عن إدخال مثل هذه الصورة فى باب الاستعارة [٣٠] .

وقد كان تعليقه على البيت الثانى من هذه الأبيات الثلاثة تحليلاً وافياً للاستعارة التى سماها البلاغيون استعارة عنادية (تهكمية أو تلميحية) ، وهى : ما استعمل فيه الشئ فى ضد معناه أو نقيضه ، بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تلميح [٣١] .

فيقول معلقاً على البيت : «ممساها : يعنى مساءها ، ومغناها موضعها الذى أقيم فيه ، والمغانى : المنازل التى كان بها أهلها ، وقوله : أخربها عمران من بناها : يقول: عمرها بالخراب ، وأصل العمران مأخذ من العمر وهو البقاء ، فإذا بقى الرجل فى داره فقد عمرها ، فيقول : إن مدة بقائه فيها أبلت منها ؛ لأن الأيام مؤثرة فى الأشياء

(٢٩) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٣٠) البلاغة تطور وتاريخ ص : ٥٤ .
(٣١) الإيضاح ١٢٢/٣ .

بالنقص والبلى ، فلما بقى الخراب فيها وقام مقام العمران فى غيرها سمى بالعمران»[٣٢] .

ويسوق مثالاً آخر للاستدلال على هذه الاستعارة وتوضحيها ، وذلك قول الشاعر :

ياعـجل الرحـمن بالعـذاب لعـامـرات البـيت بالخـراب

ويعلق على البيت بقوله : «يعنى : الفأر ، يقول : هذا عمرانها ، كما يقول الرجل : مـانرى من خيـرك ورفدك إلا مايبلغنا من خطبك علينا ، وفتك فى أعضادنا»[٣٣] .

ويؤكد معنى هذه الاستعارة بالمثال الواضح من القرآن الكريم الذى أخذه عنه البلاغيون ، وهو قول الله – عز وجل – ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [٣٤] ، ويعلق على الآية الكريمة بقوله : «والعذاب لايكون نزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم سمى به» [٣٥] .

وواضح من تحليل الجاحظ وتعليقه على هذين البيتين وعلى الآية الكريمة أنه قد أوضح معنى الاستعارة العنادية بصورة لالبس فيها ولاغموض ، ولم يضف البلاغيون – بعده – إلا أن وضعوا لها إطاراً لم يخرج عن مفهومه ومراده .

وكما وقف الجاحظ مع الاستعارة التبعية ، والاستعارة العنادية ، وقف مع كثير من أمثلة الاستعارة التصريحية الأصلية ، مبيناً فى بعضها ماترمى إليه هذه الاستعارة. ففى قول النمر بن تولب :

أعـاذل أن يصبح صداى بقفرة بعـيـداً نآنى صاحبى وقريبى

ترى أن ما أبقيت لم أك ربه وأن الذى أمضيت كان نصيبى

يقول : «الصدى هاهنا : طائر يخرج من هامة الميت إذا بلى ، فينعى إليه ضعفه وليه وعجزه عن طلب طائلته ، وهذا كانت تقوله الجاهلية ، وهو هنا مستعار ،

(٣٢) البيان والتبيين ١٥٢/١ .
(٣٣) المرجع السابق ١٥٢/١ ، ١٥٣ .
(٣٤) الواقعة . ى : ٥٦ .
(٣٥) البيان والتبيين ١٥٣/١ .

أى أصبحت أنا» (٣٦) .

فالاستعارة هنا فى اسم الجنس - كما هو واضح - حيث استعير الصدى لشخص المتكلم ، وكلامه واضح فى إبراز هذا المفهوم .

وتسمية الشبيه والمناظر للشئ أخا له يأتى على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بتسمية الشئ باسم غيره ، ودلالة هذه التسمية على التشبيه . وقد أشار إلى هذا فى قوله : «قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ، قال : ولم ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه . وعاب رؤبة شعر ابنه فقال : ليس لشعره قران . وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه ، وكان حقه أن يوضع إلى جنبه وعلى هذا التأويل قال الأعشى :

يامسمع أقصر فإن قصيدة ... متى تأتكم تلحق بها أخواتها

وقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ (٣٧) .

وكما استعاروا الأخ للشبيه استعاروا له العم والخالة ، إذ كان العم أو الخالة أشبه شئ بالشئ . فيقرر ذلك فى قوله : «وقالوا فيما هو أبعد من هذا ، قال ابن عسلة الشيبانى ، واسمه عبدالمسيح :

وسماع مدجنة تعللنا ... حتى تنام تناوم العجم

فصحوت والنمرى يحسبها ... عم السماك وخالة النجم (٣٨)

ومن الواضح المعلوم أن استعارة الأخ أو العم أو الخالة للشئ من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ولم يقف حديث الجاحظ عند حد الاستعارة التصريحية أو الاستعارة العنادية ؛ بل امتد حديثه إلى الاستعارة التمثيلية ، أو المجاز المركب .

فيذكر أن الناس لما بايعوا يزيد بن الوليد ، وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ والتحيس كتب إليه «بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد ، أما بعد ، فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ،

(٣٦) البيان والتبين ١/٢٨٤ .

(٣٧) الزخرف . ى : ٤٨ ، وانظر البيان والتبيين ١/٢٢٨ .

(٣٨) البيان والتبيين ١/٢٢٩ . والنمرى هو كعب أحد بنى النمر بن قاسط ، المدجنة : السحابة الدائمة ، النجم : واحد وجمع ، وهو : الثريا فى كلام العرب .

فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت . والسلام» (٣٩) .

ويدرك الجاحظ مافى الرسالة من مجاز مركب أو استعارة تمثيلية ، ومافى هذه الاستعارة من حسن فى المذاق ودقة فى الفهم ، فيعلق عليها بقوله : «وها هنا مذاهب تدل على أصالة الرأى ومذاهب تدل على تمام النفس وعلى الصلاح والكمال، لا أرى كثيراً من الناس يقفون عليها» (٤٠) .

وهذا التعليق الذى اكتفى فيه بالإشارة يبرز مافى هذه الاستعارة من جمال وجلال ، ومن حاجة إلى عمق فى الفهم ، ودقة فى التذوق ؛ حيث شبه صورة تردده فى المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب فى أمر ، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً ، وتارة لايريد فيؤخر أخرى ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وقد أخذ البلاغيون هذا المثال ، وجعلوه علماً على هذا النوع من الاستعارة ، مهتدين بتعليق الجاحظ عليه (٤١) .

وفى حديثه عن العصا ومافيها من المنافع ، وكيف كان يشبه بها يذكر هذا البيت فى الاستعارة التمثيلية :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب (٤٢)

فالبيت على تشبيه تعليم الأولاد وتربيتهم فى الصغر بالغصون النضرة الرطيبة، إذا أريد تقويمها كان ذلك سهلاً ميسوراً ، كما شبه تعليم الأولاد وتقويمهم فى الكبر بمحاولة تقويم ما اعوج من الخشب ، فإن ذلك أمر صعب لايتأتى بسهولة ، ثم استعيرت الهيئة التركيبية الدالة على المشبه به للمشبه .

ومن قبيل الاستعارة التمثيلية الأمثال الواردة ، فلكل أمة من الأمم أمثالها التى تعبر عن أحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . والمثل قول موجز سائر ، يشبه فيه حال الذى حكى فيه بحال الذى جاء من أجله ، فلكل مثل مورد ومضرب ، فمورده هو الحالة القديمة التى قيل فيها لأول مرة ، ومضربه هو الحالة الجديدة التى استعير لها .

---

(٣٩) البيان والتبيين ٣٠٢/١ .
(٤٠) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٤١) انظر الإيضاح ١٤٧/٣ ، ١٤٨ .
(٤٢) البيان والتبيين ٨٣/٣ .

وقد عرض الجاحظ فى كتابه كثيراً من الأمثال الواردة ، وأفصح عن التشبيه الذى تقوم عليه هذه الأمثال . ففى المثل «فلان واسع السرب» ، وقد رواه معلقاً عليه بقوله : «فلان واسع السرب وخلي السرب ، أى المسالك والمذاهب ، وإنما هو مثل مضروب للصدر والقلب ، وعن الأصمعى : فلان واسع السرب - مكسور - أى واسع الصدر ، بطئ الغضب» (٤٣) .

فاتساع الصدر مشبه ، واتساع المسالك مشبه به ، وقد استعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التمثيلية .

ومن كلام الرسول - ﷺ - يذكر الجاحظ طائفة من الأمثال ، مما لم يسبقه إليه عربى ، ولاشاركه فيه أعجمى ، ولم يدع لأحد ، ولا ادعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً . فمن ذلك قوله - ﷺ - «ياخيل الله اركبى» ، وقوله: «مات حتف أنفه» ، وقوله : «لاتنتطح فيه عنزان» وقوله: «الآن حمى الوطيس» (٤٤) . وغير هذا كثير . وكله يدخل فى باب الاستعارة التمثيلية .

وهكذا نجد الجاحظ قد طوف بآفاق الاستعارة ، بدءاً من تعريفها الذى لم يزد عليه المتأخرون شيئاً ، ثم ذكر معظم أقسامها ، فاتحاً الباب أمام البلاغيين للحديث عن معظم هذه الأقسام ؛ حيث وضعوا التحديد والتعريف لكل قسم منها .

* * *

(٤٣) البيان والتبيين ٢٧٩/١ .
(٤٤) المرجع السابق ١٥/٢ .

المبحث الثالث
الكـــــــناية

الكناية : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، مع قرينة ليست مانعة من إرادة اللازم مع الملزوم . وهى ثلاثة أقسام ؛ لأن المطلوب بها إما صفة ، أو موصوف ، أو نسبة صفة لموصوف والمراد بالصفة : الصفة المعنوية ، كالجود والكرم والشجاعة وأمثالها ، لا النعت (٤٥) .

وقد عرفها الإمام عبدالقاهر الجرجانى بأن : يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلايذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه . مثال ذلك قولهم ، هو طويل النجاد ، يريدون طويل القامة ، وكثير رماد القدر ، يعنون كثير القرى ، فقد أرادوا معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون إذا كان ، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر (٤٦) .

ومن المجمع عليه أن الكناية أبلغ من الإفصاح . وقد تنبه الجاحظ إلى هذه الحقيقة ، ونبه إليها بقوله : «ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها» (٤٧) .

وأبلغية الكناية على الإفصاح ، وإن كانت معلومة لاتحتاج إلى دليل أو استشهاد، إلا أنها بحاجة – لكى تطمئن النفس إليها – إلى معرفة السبب والعلة فى أبلغيتها ، فنحن نعلم أن قولنا : هو كثير الرماد أبهى للمعنى وأنبل من أن ندع الكناية ، ونصرح بالمقصود ، فنقول : هو كثير الضيفان ، أو هو سخى ، ولكن ماسبب ذلك وماعلته ؟ .

إذا تأملنا وجدنا أن المزية ليست راجعة إلى ذات المعنى الذى يراد إثباته بالطريق الكنائى ، ولكن المزية راجعة إلى طريق ذلك الإثبات ، فليس المراد أننا

---

(٤٥) انظر الإيضاح ١٧٣/٢ ، ١٧٤ .

(٤٦) دلائل الإعجاز ص : ٥٣ .

(٤٧) البيان والتبيين ٨٨/١ .

عندما كنينا عن المعنى زدناه فى ذاته ؛ بل إننا زدنا فى إثباته ، فجعلناه أبلغ وأكد وأشد، فليست المزية فى قولهم : هو كثير الرماد أنه دل على كرم أكثر ، بل إنك أثبت له القرى من وجه أبلغ . والسبب فى أن الإثبات بالكناية له من الفضل والأبلغية ماليس للتصريح هو أنه فى الكناية يأتى إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد على وجودها ، ولاشك أن ذلك أكد وأبلغ من أن تجئ إلى الصفة فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً ، ومعنى ذلك أنك تأتى فى الكناية بالدليل على الصفة التى تريد إثباتها . ذلك أن كثرة رماد القدر دليل على كثرة القرى ، وهو ماتريده بالكناية .

والواقع أن أفضلية الكناية وأبلغيتها على الإفصاح تدور – عند الجاحظ – حول تحقيق معنى المطابقة لمقتضى الحال فى الكلام ، فليس فى كل موضع وجدت فيه الكناية تكون أبلغ من الإفصاح .

فنراه يصرح بأن الإفصاح والكشف يعملان فى العقول مالاتعمله الكناية ، فيقول : «أو ماعلمت أن الكناية والتعريض لايعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف» (٤٨) .

وهو لايعنى بذلك أن الإفصاح أبلغ من الكناية أو أنه يقلل من شأنه الكناية ، ولكنه عنى بذلك أن الكناية والإفصاح لكل منهما موضعه ، فلاتصح الكناية فى موضع الإفصاح ، ولا الإفصاح فى موضع الكناية ، ولكن فى الجملة فإن الكناية أبلغ من الإفصاح .

وقد كشف عن مراده هذا – وهو أن كلا من الكناية والإفصاح يدوران حول المطابقة – فى قوله : «رب كناية تربى على إفصاح ، ولحظ يدل على ضمير» (٤٩) .

وإنما قلنا مراده ذلك لأنه لم يختلف أحد على فضل الكناية ، فقد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح (٥٠) .

والجاحظ بإدراكه لفضيلة الكناية ، وأن لها مدخلاً فى بلاغة الكلام أدار حديثه عنها بما يشمل أقسامها الثلاثة .

ففى الكناية عن الصفة ينقل عن شريح قوله : «الحدة : كناية عن الجهل» ، وعن أبى عبيدة قوله : «العارضة كناية عن البذاء» ، وإذا قالوا : فلان مقتصد فتلك

---

(٤٨) المرجع السابق ١/١١٧ .
(٤٩) البيان والتبيين ٢/٧ .
(٥٠) انظر دلائل الإعجاز : ص٥٦ .

كناية عن البخل ، وإذا قالوا للعامل : مستقصى ، فتلك كناية عن الجور» [٥١] .

وفى حديثه عن العصا ومالها من فضائل عند العرب وغيرهم لم يفته أن يشير إلى المعانى التى يكنى عنها بذكر العصا ، فذكر العصا عندهم يجرى فى معان كثيرة، يقال : طارت عصا فلان شققا ، وهو كناية عن التفرق ، كما هو واضح ، وقال الأسدى :

عصى الشمل من أسد أراها قد انصدعت كما انصدع الزجاج

فعصى الشمل كناية عن الجمع والالتئام ، ويقال : فلان شق عصا المسلمين ، وهو كناية عن التفرق والاختلاف ، ولايقال : شق ثوبا ولاغير ذلك مما يقع عليه اسم الشق ، وقال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر[٥٢]

يعنى كناية عن الإقامة والاستقرار .

وتقول العرب فى مديح الرجل الجلد الذى لايفتات عليه بالرأى : «ذلك الفحل لايقرع أنفه» يعنى كناية عن التمسك بالرأى ، وهذا كلام يقال للخاطب إذا كان على هذه الصفة ، ولأن الفحل اللئيم إذا أراد الضراب ضربوا أنفه بالعصا [٥٣] .

وقد أفاض الجاحظ فى حديثه عن الكناية عن الصفة ، وضرب الأمثلة العديدة لها ، فمن ذلك الكناية بضعف العصا عن الإشفاق والرحمة ، وصلابتها عن القوة ، ولينها عن الفشل والإفلاس .

يقول : «يقال للراعى : إنه لضعيف العصا ، إذا كان قليل الضرب بها للإبل ، شديد الإشفاق عليها ، وقال الراعى :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

فإذا كان الراعى جلداً قوياً عليها ، قالوا : صلب العصا ، ولذلك قال الراجز :

صلب العصا باق على أذاتها

(٥١) البيان والتبيين ٢٦٣/١ .
(٥٢) المرجع السابق ٣٩/٣ .
(٥٣) المرجع السابق ٤٤/٣ .

وقال الآخر فى معنى الراعى :

لاتضربـاها وأشـهرا العصـيا

ويقولون : قد أقبل فلان ولانت عصاه ، إذا أصابه السواف [٥٤] ، فرجع وليس معه إلا عصاه ؛ لأنه لايفارقها ، كانت له إبل أم لم تكن، [٥٥] .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى تناثرت فى كتابه ، وتدل على إدراكه وتنبهه ويقظة فكره البلاغى [٥٦] .

وأما الكناية المطلوب بها موصوف فقد أشار الجاحظ إلى كثير من أمثلتها ، وعلق على كثير منها بما ينبئ عن فهمه لهذا القسم من الكناية ، واختلافها عن سابقتها ، فمن ذلك مارواه من قول الهذلى :

أعـامـر لا آلـوك إلا مـهـندا ... وجلد أبى عـجل وثيق القـبـائل

ثم قال : يعنى بأبى عجل : الثور . ومعلوم أن الثور ليس بصفة ولانسبة ، وإنما هو موصوف ، كما يكنى برأس العصا عن صغير الرأس ، فالعرب تسمى كل صغير الرأس : رأس العصا ، وكان عمر بن هبيرة صغير الرأس ، فقال سويد بن الحارث :

من مـبلغ رأس العـصـا أن بيننا ... ضـغـائن لاتنسى وإن قـيل سلت

رضـيت لقـيس بالقليل ولم تكن ... أخـا راضـيـا لو أن فـعلك زلت

وكان والبة صغير الرأس ، فقال أبوالعتاهية فى رأس والبة ورؤوس قومه .

رؤوس عصى كن مـن عـود أثلـة ... لها قادح يبرى وآخر مخرب [٥٧]

إلى غير ذلك من أمثلة هذا النوع [٥٨] .

أما القسم الثالث ، وهو الكناية عن النسبة ، فقد كان حديث الجاحظ عنه واضحاً لاغموض فيه ، يدل على أصالة ذوقه ودقة فهمه فى التمييز بين مرامى هذه الأنواع الثلاثة .

---

(٥٤) السواف - بالضم ، ويقال بالفتح - الموت فى المال والناس .
(٥٥) البيان والتبيين ٣/٥٢ .
(٥٦) انظر البيان والتبيين ٣/٥٦ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٤٥ .
(٥٧) القادح : أكال يقع فى الشجر والأسنان . وانظر البيان والتبيين ٣/٤٠ ، ٤١ .
(٥٨) المرجع السابق ٣/٧٨ .

فقد أبرز هذا النوع فى تعليقه على قول الشاعر :

إذا اخضرت نعال بنى غراب بغوا ووجدتهم أشرى لئاما

يقول : فلم يرد صفة النعل ، وإنما أراد أنهم إذا اخضرت الأرض ، وأخصبوا طغوا وبغوا» (٥٩) .

فالمقصود من هذه الكناية نسبة الاخضرار إلى الأرض ، فأثبتها للنعال ؛ لينتقل الذهن إلى نسبتها إلى الأرض ، فهى كناية عن نسبة .

وقوله :

وكيف أرجى أن أسود عشيرتى وأمى من سلمى أبوها وخالها
رأيتكم سودا جعادا ومالك مخضرة بيض سباط نعالها

يقول : فلم يذهب إلى مديح النعال فى أنفسها ، وإنما ذهب إلى سباطة أرجلهم وأقدامهم ، ونفى الجعود والقصر عنهم ، وإذا مدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ بمدح لابسها قبل أن يمدحها» (٦٠) .

فمراد القائل نسبة المدح إلى لابس النعل ، فمدح النعل لينتقل منه إلى مدح لابسها . وهذا – كما هو واضح – معنى الكناية عن النسبة .

من كل ماسبق ندرك أن الجاحظ قد وفى هذا اللون البيانى حقه ، فهو وإن كان – كما قلنا – لم يسهب القول عن الصور البيانية فى «البيان والتبيين» مكتفياً ببسط الحديث عنها فى كتبه الأخرى إلا أن حديثه عن الكناية فى كتابه كان واضحاً وافياً ، فقد أتى على أركانها وجوانبها بدءاً من بيان أفضليتها وحسن موقعها إلى ذكر أقسامها وأمثلتها ، مما مهد الطريق أمام البلاغيين لزيادة البسط وضبط الأقسام ، ووضع الحدود والمقاييس التى نجدها فى كتبهم .

* * *

---

(٥٩) البيان والتبيين ١٠٦/٣ .
(٦٠) المرجع السابق ١٠٧/٣ ، ١١٠ .

الفصل الخامس

من ألــــوان البديـــع

تمهيد :

البديع – فى لغة العرب – من بدع الشئ – بالضم – إذا كان غاية فيما هو فيه من علم أو غيره ، حتى صار فيه غريباً لطيفاً ، ومنه أبدع : أتى بشئ لم يتقدم له مثال ، ومنه قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (١) أى مبدعهما على غير مثال سابق .

وتطلق هذه الكلمـــة فى بيـئـــة الأدب والأدباء على وجـــوه تحـــسين الكلام وخصائص الأدب المميزة له ، ويقال إن أول من أطلق هذه الكلمة بهذا المعنى الشاعر العباسى مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨ هـ) (٢) .

وقد اصطلح المتأخرون من علماء البلاغة على تسمية هذه الوجوه والألوان «علم البديع» وعرفوه بأنه «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وقسموا هذه الوجوه إلى محسنات معنوية ، وهى : ما كان التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أصالة ، ولفظية ، وهى : ماكان التحسين فيها راجعاً إلى اللفظ كذلك ، ولادخل لهذه الوجوه فى بلاغة الكلام ، فهى من توابعها ، فرتبة هذا العلم بعد المعانى والبيان ؛ لأن حسنهما ذاتى ، والحسن داخل فى مفهوم البلاغة ، أما الحسن العرضى فخارج عنها ، ومن هنا كان علم البديع من توابع البلاغة ، فالنظر فيه فرع النظر فيها ؛ ولذا يؤخر الكلام فيه عن المعانى والبيان .

ومن المعلوم أن المحسنات البديعية لاتنحصر ، فتصور معانيها والوقوف على أعدادها وتفاصيلها بقدر الطاقة ، فقد توارد الكتاب والمؤلفون على هذه الألوان . وكان كل واحد ينظر فيما كتبه السابقون ويضيف من عنده بعض الألوان ، كما فعل أبوهلال العسكرى ، فقد عد من أبواب البديع تسعة وعشرين ذكرها من قبله ، ثم أضاف هو ستة ، فكمل عددها عنده خمسة وثلاثين ، يقول : «قد شرحت فى هذا

---

(١) الأنعام . ى : ١٠١ .

(٢) البيان العربى . ص : ١٢٨ .

الكتاب فنونه - يعنى البديع - وأوضحت طرقه وزدت على ما أورده المتقدمون بستة أنواع : التشطير ، والمحاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف، (٣) .

ولايخفى أن المراد بالوجوه البديعية هى الوجوه الخارجة عن البلاغة ، وورود هذه الوجوه دون رعاية المطابقة ووضوح الدلالة اللذين هما موضوعا علم المعانى والبيان كتعليق الدر على أعناق الخنازير ، كما يقول أصحاب الحول والطول فى هذا المقام ، فحسن الكلام بهذه الوجوه لايعتبر حتى يحصل متبوعه الذى هو الحسن الذاتى الداخل فى مفهوم البلاغة . وهذه الوجوه إنما تكون من البديع إذا لم يقتضها الحال ، أما إذا اقتضاها الحال فتكون من صميم البلاغة وليست من توابعها .

وقد اشتهر الخليفة العباسى الشاعر عبدالله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) بأنه أول من وضع فنون البديع ، وجمعها فى كتاب مستقل سماه «البديع» ، وادعى ابن المعتز سبقه إلى هذا العمل بقوله : «لعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا فى فضيلته ، فيسمى فناً من فنون البديع بغير ماسميناه به ، أو يزيد عن الباب من أبوابه كلاماً منثوراً ، أو يفسر شعراً لم نفسره ، أو يذكر شعراً قد تركناه ، أما لأن بعض ذلك لم يبلغ فى الباب مبلغ غيره ، فألقيناه ، أو لأن فيما ذكرنا كافياً ومغنياً» (٤) .

فابن المعتز - على مايبدو من كلامه - يدعى لنفسه السبق إلى شرح فنون البديع . ولاينكر أحد فضله فى أنه أول من جمع هذه الفنون فى كتاب مستقل ووضحها ، وأتى لها بشواهد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ومن روائع الأدب ، ويعترف بأن هذه التسمية ترجع إلى المحدثين ، فيقول : «قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله - ﷺ - وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سمّاه المحدثون البديع، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه» (٥) .

ويذكر ابن المعتز على علماء اللغة معرفتهم بالبديع وفنونه ، فيقول : «البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين ، فأما العلماء باللغة

(٣) الصناعتين ص٢٧٣ .
(٤) البديع ص : ٣ .
(٥) المرجع السابق ص : ١ .

والشعر القديم فلايعرفون هذا الاسم ولايدرون ماهو» (٦) .

البديع عند الجاحظ

وإذا كان لابن المعتز فضل الجمع لهذه الفنون وشرحها والاستشهاد لها ، فليس له فضل تسميتها بـ«البديع» أو حتى الإطلاق الأدبى لهذه الكلمة ، وأيضاً ليس له الفضل فى سرد هذه الألوان ، فقد سبقه الجاحظ إلى سرد الكثير منها فى كتابه ، وأتى لها من الشواهد والأمثلة مايشرحها ويوضحها ويجلى عن معناها ، وإن كان قد نسب هذه التسمية إلى الرواة .

ولانبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن ابن المعتز وضع كتابه بوحى من الجاحظ ، وجمع هذه الفنون بعد إدمان النظر فى «البيان والتبيين» ، واستقى كثيراً من مادته العلمية من هذا الكتاب .

فقد سبق أن أوضحنا أن الجاحظ كان صاحب مذهب فى تصنيع الأدب ، وفى سبيل هذا التصنيع تكلم فى وسائله ، فذكر البديع ، وذهب إلى أنه مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، كما أشاد بأصحاب البديع من الشعراء ، فالراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، ولم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة . والعتابى يذهب شعره فى البديع ، وعلى ألفاظه وحذوه فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد وأشباههما» (٧) .

وقد صرّح الجاحظ بأن الرواة تطلق كلمة «البديع» على ماتضمن المثل أو ماجرى مجراه ، فقد ذكر قول الأشهب بن رميلة :

أن الألى حانت بفلج دماؤهم	هم القوم كل القوم يأم خالد
هم ساعد الدهر الذى يتقى به	وماخير كف لاتنوء بساعد
أسود شرى لاقت أسود خفية	تساقوا على حرد دماء الأساود

(٦) المرجع السابق ص : ٥٨ .
(٧) البيان والتبيين ١/٥١ ، ٤/٥٦ .

ثم يقـول : «قوله : هم ساعـد الدهر إنما هو مـثل ، وهذا الذى تسـميـه الرواة البديع» (٨) .

وإذا كان الجاحظ قد طاوع الرواة فى أن مايسمى «بديعا» هو ماتضمن المثل أو جرى مجراه ، فإن الأبيات التى يوردها استدلالاً واستشهاداً للبديع ، والتى يستجيدها لمكانتها من الأدب تشتمل على نكت بلاغية أخرى ، والجاحظ ، وإن لم يعرض هذه النكت فى معارضها الاصطلاحية التى عرضها فيها علماء البلاغة المتأخرون ، فقد عرضها فى دلالتها اللغوية ، وهى دلالة قديمة كثيراً ماذكرها النقد الأدبى ، ووقف أمامها فى نشأته قبل الاشتغال بالبديع» (٩) .

وقد عالج الجاحظ فى كتابه كثيراً من ألوان البديع وفنونه ، وأفاض فى سرد الكثير من النصوص والشواهد لهذه الألوان . ونعرض فى عدة مباحث – وفى شئ من التفصيل – لذكر هذه الألوان التى نثرها فى كتابه . وسوف يتضح لنا من خلال هذه المباحث أنه أحصى كثيراً من هذا الألوان والفنون البديعية التى اشتهرت فى عصره ، أو وجدها فى أشعار المتقدمين ، مدركاً أثرها على جمال الأدب وتزيينه ، وإن كان قد حذر من الإفراط فيها أو الإكثار منها .

* * *

(٨) المرجع السابق ٤/٥٥ .

(٩) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص : ٦٤ .

المبحث الأول

التقسيم

التقسيم – عند البلاغيين – من المحسنات المعنوية ، وهو عبارة عن : ذكر متعدد ، ثم إضافة مالكل إليه على التعيين ، وقد مثلوا له بقول الشاعر :

ولايقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد

فقد ذكر الشاعر أمرين هما : عير الحى والوتد ، ثم أضاف إلى كل منهما ماله، فأضاف إلى الأول أنه مربوط على الذل والهوان ، وإلى الثانى أنه يضرب ويجرح ، فلايرثى أحد له . ثم ذكر البلاغيون أن التقسيم يأتى بإطلاقين آخرين :

الأول : أن يذكر أحوال الشئ مضافاً إلى كل حال مايليق بها ، كقول أبى الطيب المتنبى :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد (١٠)

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا

فقد ذكر أحوال هؤلاء المشايخ ، وأضاف إلى كل حال من أحوالهم مايليق بها ، فهم ثقال عند الملاقاة ، خفاف إذا دعوا لنصرة المستغيث أو الملهوف ، وإذا شدوا على عدوهم فهو كثير ، بينما هم قليلو العدد .

الثانى : استيفاء أقسام الشئ بالذكر ، كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١١) وقوله : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا

---

(١٠) القنا ، واحدة قناة وهى : الرمح ، وقوله : التثموا بمعنى : لبسوا لثام الحرب على عادتهم فيها، والمرد جمع أمرد ، وهو : الشارب .

(١١) فاطر . ى : ٣٢ .

وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ (١٢) .

وقد تعرض الجاحظ للتقسيم بهذا الإطلاق الأخير ، حين روى عن أبى اسحاق القيسى أنه لما قدم قتيبة بن مسلم خراسان قال : «من كان فى يديه شئ من مال عبدالله بن خازم فلينبذه ، وإن كان فى فيه فليلفظه ، وإن كان فى صدره فلينفثه» . قال الجاحظ معلقاً : «فعجب الناس من حسن ماقسم وفصل» (١٣) .

فالتقسيم – عنده – يدور حول هذا الإطلاق ، وهو أن تستوفى جميع أقسام الشئ بالذكر فلايترك منها شئ . ففى قول قتيبة بن مسلم ليس هناك حوزة للمال إلا فى اليد أو البطن أو القلب فاستوفى ذلك كله .

وهذا الذى ذكره الجاحظ ينطبق مع ماذكره البلاغيون فى كتبهم مثالاً لهذا النوع «أن أعرابياً وقف على حلقة الحسن البصرى ، فقال : رحم الله من تصدق من فضل ، أو آسى من كفاف ، أو آثر من قوت ، فقال الحسن : ما ترك لأحد عذرا» (١٤) . فقد استوفى هذا السائل جميع أقسام التصدق فأتى عليها ؛ ولذا فقد انصرف بخير كثير» (١٥) .

وواضح من خلال عرضنا لرأى البلاغيين فى التقسيم ، وماعرضه الجاحظ أن ما ألمح إليه يعد أصلاً بنوا عليه تحديدهم لضابط هذا اللون ، وفرعوا عليه من تقسيماتهم وتفريعاتهم .

* * *

---

(١٢) الشورى . ى : ٤٩ ، ٥٠ . وانظر الإيضاح ٣٨/٤ ومابعدها .
(١٣) البيان والتبيين ١٠٨/٢ .
(١٤) الإيضاح ٤٢/٤ ، ٤٣ .
(١٥) الصناعتين ص : ٣٥٠ .

المبحث الثانى
الهـــزل يـــراد بـه الجـــد

هذا اللون من المحسنات المعنوية . وضابطه عند البلاغيين : أن يذكر الشئ على سبيل اللعب والمباسطة ويقصد به أمر صحيح فى الحقيقة ، كما فى قول أبى العتاهية :

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكـــا	من بخل نفس لعل الله يشفيكا
ماســلم نفســك إلا من يتــاركها	وماعــدوك إلا مــن يرجيكا [16]

وقد عرض الجاحظ لهذا اللون البديعى ، ولم يضف البلاغيون إلى ماعناه به شيئاً . فقد ذكر أن إبراهيم بن هانئ كان ماجناً ، وكثير العبث متمرداً ، ولولا أن كلامه هذا الذى أراد به الهزل يدخل فى باب الجد لما جعله صلة الكلام الماضى .

فهو يصرح بأن كلام إبراهيم بن هانئ الذى سيذكره يدخل فى باب «الهزل الذى يراد به الجـد» وكـلام إبراهيم بن هانئ هو : «من تمام آلة القـصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت ، ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره البرذون ، براق الثياب ، عظيم الكبر ، سيئ الخلق ، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً ، ويكون اسمه أذين ، أو شلوماً ، أو ما زياد ، أو أزدا نقاذار ، أو ميشا ، ويكون أرقط الثياب ، مختوم العنق ، ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً ، ويكون الداعى إلى الله صوفيا ، ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع ، عظيم الرأس ؛ ولذلك قال ابن سنان الجديدى لراشد بن سلمة الهزلى :

مـا أنت بعظيم الرأس ، ولاثقيل السمع ، فتكون سيداً ، ولابأرسح فتكون فارساً»[17] .

فكلام إبراهيم هذا ، الذى رواه الجاحظ قصد به التمثيل والاستشهاد لهذا اللون الذى سماه هذه التسمية . وواضح أن هذا الكلام هو فى ظاهره هزل ولعب ومباسطة ،

(١٦) البديع ص : ٦٣ .
(١٧) البيان والتبيين ١/٩٣ ، ٩٤ .

وإن كان فى الحقيقة يدخل فى باب الجد والحقيقة . وهذا يدرك بأدنى تأمل .

والجاحظ له فضل السبق فى تسمية هذا اللون بهذا الاسم الذى أخذه عنه ابن المعتز والمتأخرون من بعده . وإن كان حديثه عن هذا اللون فى كتابه لم يزد على ماذكرنا .

* * *

المبحث الثالث
السـجع

السجع من المحسنات اللفظية . وهو عند البلاغيين : تواطؤ الفاصلتين [١٨] من النثر على حرف واحد [١٩] .

وقد أفاض الجاحظ حديثه عن هذا الون من المحسنات البديعية فعقد له بابين فى كتابه ، عرض فيهما لطائفة كبيرة من النصوص تدل على احتفائه بهذا اللون ، وقد دفعه إلى هذا الاحتفاء حبه لأصوات الكلام ، وماتؤديه من أثر على السامعين ، ولايخفى مابين السجع والصوت من علاقة ، فالسجع داخل فى تقطيع الصوت .

وأسوق طرفاً من الشواهد والأمثلة التى عرض لها ، مكتفياً بذكر بعضها استغناء به عن ذكر الكل ، فمن الأمثلة ماجاء فى الحديث المأثور «يقول العبد : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت» ، ووصف أعرابى رجلاً فقال : «صغير القدر ، قصير الشبر ، ضيق الصدر ، لئيم النحر، عظيم الكبر ، كثير الفخر» [٢٠] ، وعن الشعبى قال : «قال عيسى بن مريم – عليه السلام – : البر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا ، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها» [٢١] ، ومن الأسجاع قول أيوب بن القرية ، وقد كان دعى للكلام واحتبس القول عليه ، فقال : «قد طال السهر ، وسقط القمر ، واشتد المطر ، فما ينتظر» فأجابه فتى من عبدالقيس ، فقال : «قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ، فلينطق من نطق» [٢٢] .

فكل هذه الأمثلة – وغيرها كثير – تحمل معنى السجع كما حدده البلاغيون بعده ، ولم يختلفوا معه فى هذا المفهوم الذى أراده لهذا اللون .

---

(١٨) الفاصلتان : الكلمتان الأخيرتان من الفقرتين ، والمراد تواطؤها على حرف واحد فى آخرهما.
(١٩) الإيضاح ٩٢/٤ .
(٢٠) البيان والتبيين ٢٨٤/١ .
(٢١) المرجع السابق ٢٩٧/١ .
(٢٢) المرجع السابق ٢٩٨/١ .

والبلاغيون يقسمون السجع إلى أقسام ثلاثة : **المطرف** : وهو ما اختلفت فاصلته فى الوزن واتفقت فى الحرف الأخير ، **والمرصع** : وهو ماكان فيه ألفاظ إحدى الفقرتين كلها ، أو أكثرها مثل مايقابلها من الفقرة الأخرى وزناً وتقفية ، **والمتوازى** : وهو ماكان الاتفاق فيه فى الكلمتين الأخيرتين فقط (٢٣) .

وقد كان فى مسلك الجاحظ ، وفيما ساقه من الشواهد والأمثلة إشارة إلى هذه الأقسام ، فقد أشار إلى النوع الأول بمجموعة من النصوص منها قولهم : «لاتغتر بمناصحة الأمير إذا غشك الوزير» وقولهم : «من صادق الكتاب أغنوه ، ومن عاداهم أفقروه» ، وقولهم : «اجعل قول الكذاب ريحا ، تكن مستريحا» (٢٤) . فالفواصل فى هذه الأمثلة ليست متساوية فى الوزن ، فهى كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (٢٥) .

وأما الثانى فقد عرض لكثير من أمثلته - غير ماسبق - مثل مارواه من قول أعرابى لرجل : «نحن - والله - آكل منكم للمأدوم ، وأكسب منكم للمعدوم ، وأعطى منكم للمحروم» ، ووصف أعرابى رجلاً فقال : «إن رفدك لنجيح ، وإن خيرك لسريح، وإن منعك لمريح» (٢٦) . فإن مافى إحدى الفاصلتين - هنا - من الألفاظ مثل مايقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية ، فهو مثل قول الحريرى : «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه» (٢٧) .

وأشار - أيضاً - إلى النوع الثالث فى كثير من الأمثلة ، كقول عبدالملك بن مروان لأعرابى : «ما أطيب الطعام ؟ فقال : بكرة سنمة ، معتبطة غير ضمنة ، فى قدور رذمة ، بشفار خذمة ، فى غداه شبمة» . معتبطة : منحورة من غير داء ، يقال : اعتبط الإبل والغنم ، إذا ذبحت من غير داء ، غير ضمنة : غير مريضة رذمة : سائلة من امتلائها ، بشفار خذمة ، قاطعة ، غداة شبمة : باردة ، والشبم : البرد (٢٨) .

فالتوافق فى هذا المثال فى فواصله فقط ، أما باقى الألفاظ فليست متوافقة فى الوزن أو التقفية ، فهو كقوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٢٩) .

---

(٢٣) انظر الإيضاح ٤/٩٢ ، ٩٣ .
(٢٤) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .
(٢٥) نوح . ى : ١٣ ، ١٤ وانظر الإيضاح ٤/٩٢ .
(٢٦) البابن والتبيين ١/٢٩٨ .
(٢٧) انظر الإيضاح ٤/٩٣ .
(٢٨) البيان والتبيين ١/٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٢٩) الغاشية . ى : ١٣ ، ١٤ .

وإذا كان أحسن السجع ماتساوت قرائنه ، كما في قوله تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [(٣٠)] فإن الجاحظ أدرك هذا بحسه المرهف وعقله الواعي البصير ، فيقول : «ومن الأسجاع الحسنة قول الأعرابية حين خاصمت ابنها إلى عامل الماء ، فقالت : أما كان بطني لك وعاء ؟ أما كان حجري لك فناء ؟ أما كان ثديي لك سقاء . فقال ابنها : لقد أصبحت خطيبة رضي الله عنك» [(٣١)] .

وتعليق الابن على كلام أمه يعبر عن استحسانه لما اشتمل عليه هذا الكلام من السجع ، ودليل على روعته ، حيث تساوت فواصله .

وقد أدرك الجاحظ مايحدثه السجع من أثر في نفوس السامعين ، مما يحبب الكلام المسجوع إلى قلوبهم ، ويبقى ماله من طيب الأثر في صدورهم ، كما يدرك ما للسجع من أثر في خلود الأدب وبقائه ، فيروى أنه «قيل لعبد الصمد بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي ، وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت» [(٣٢)] .

وإذا كان الجاحظ قد نوه بجمال هذا اللون البديعي وأثره على النفوس فإنه قد جعل من حسن هذا اللون وبعد أثره قضية نصب نفسه للدفاع عنها ضد من يذمون السجع ، ويستدلون على ذلك بذم رسول الله – ﷺ – له ، فيما روى أنه قيل : يارسول الله ، أرأيت من لاشرب ولاأكل ولاصاح ولا استهل ، أمثل ذلك يطل ؟ ، فقال ﷺ : أسجعا كسجع الجاهلية» [(٣٣)] .

ويوضح الجاحظ أن النهي عن السجع الوارد عن الرسول الكريم ليس لذات السجع ، وإنما هو نهي عن مسلك الكهان الذين كانوا يتخذون السجع ذريعة لطمس المعنى والألغاز والتعمية على السامعين ، ويروى عن عبدالصمد في ذلك قوله : لو أن المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام» [(٣٤)] .

---

(٣٠) الواقعة . الآيات : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، وانظر الإيضاح ٩٤/٤ .
(٣١) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .
(٣٢) المرجع السابق ٢٨٧/١ .
(٣٣) المرجع السابق – الموضع السابق .
(٣٤) المرجع السابق – الموضع السابق .

كما ينقل – أيضاً – عن بعضهم توجيهات لهذا الحديث ، فيقول : «وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه النبى – ﷺ – فاستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحابه قد قالوا الشعر – قليلاً كان لك أم كثيراً – واستمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ماهو أكثر ، ويحرم ماهو أقل» (٣٥) .

وهذا دليل عقلى واضح على أن نهيه – ﷺ – عن هذا السجع لم يكن لذات السجع ، وإنما لما قصد إليه هذا القائل من الألغاز والتعمية ، فالثابت أنه – صلوات الله وسلامه عليه – كان يسمع الشعر ويتذوقه ، ويحث شعراءه عليه – كما سبق أن أوضحنا ذلك – فكيف ينهى عن السجع ، وهو دون الشعر فى تقيده بالوزن والتقفية .

ويضيف الجاحظ بأن «الذى كره الأسجاع بعينها – وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة – أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهليين يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن ، مثل كاهن جهينة ، ومثل شق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، كقوله : «والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء (٣٦) ، واقعة ببقعاء (٣٧) ، لقد نفر المجد بنى العشراء (٣٨) للمجد والسناء» (٣٩) ، وهذا الباب كثير ، ألاترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبدالعزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حذار ، فوقع النهى فى ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم ، وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم» (٤٠) .

فهو لم يكتف بدليل واحد يبرهن به على نهيه – ﷺ – عن السجع ، ولكنه ساق الدليل بعد الدليل ليؤكد أن السجع فى حد ذاته مما يدخل فى باب الحسن ، ويحدث أثراً بديعاً فى نفوس السامعين .

ويؤكد ذلك بأن نهى الرسول الكريم عن السجع لو كان لذاته ، دون ارتباط بهذه العلة لسار خلفاؤه من بعده على ذمه واستهجانه ، ولكن روى أن «الخطباء كانت تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلاينهونهم ، كما كان الفضل بن عيسى الرقاشى – الواعظ البصرى ، وأحد رؤوس المعتزلة – كان

(٣٥) المرجع السابق ١/٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٣٦) الصقعاء : التى فى وسط رأسها بياض .

(٣٧) البقعاء من الأرض : ذات الحصى الصغار .

(٣٨) نفرهم : حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، وبنو العشراء . من بين مازن بن فزارة بن ذبيان .

(٣٩) البيان والتبيين ١/٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤٠) المرجع السابق ١/٢٩٠ .

سجاعاً فى قصصه ، وكان عمرو بن عبيد ، وهشام بن حسان ، وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه [٤١] .

فالسجع المحمود – عند الجاحظ – هو ماكان لإقامة الوزن ، وحلاوة الصوت ، وجمال الأداء ، أما إذا أريد به إبطال حق أو هتك فضيلة من الفضائل ، أو انتصار لباطل ، كما فى سجع الكهان ، فإن ذلك مذموم مرفوض .

ومما تجدر الإشارة إليه أن احتفاء الجاحظ بالسجع ، واهتمامه به ، وانتصاره له ليس على إطلاقه ، بل ذلك الحسن والجمال اللذان هما للسجع يكونان ،إذا لم يطل ذلك القول ، ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة ، أو ملتمسة متكلفة ، وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء : حلئت ركابى ، وخرقت ثيابى ، وضربت صحابى . حلئت ركابى ، أى : منعت إبلى من الكلأ والماء ، والركاب ماركب من الإبل ، قال : أو سجع أيضاً ؟ ، قال الأعرابى : فكيف أقول ؟ لأنه لو قال : حلئت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى لكان لم يعبر عن حق معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ، وكذلك قوله : وخرقت ثيابى ، وضربت صحابى ؛ لأن الكلام إذا قل وقع وقوعاً لايجوز تغييره ، وإذا طال الكلام وجدت فى القوافى مايكون مجتلباً ، ومطلوباً مستكرهاً [٤٢] .

ولعل هذا التنبيه الذى نبه إليه الجاحظ مرتبط بالقاعدة العامة التى أوضحناها عنده من قبل ، وهى كرهه الشديد لكل ماهو متكلف ، وميله وهيامه بالمطبوع من الكلام الذى لاتقعر فيه ، ولاتشادق .

ويبدو واضحاً – مما سبق – إدراك الجاحظ التام وإلمامه بجوانب هذا اللون البديعى ، حتى عد حديثه عنه أصلاً أخذه عنه البلاغيون بعده .

* * *

(٤١) المرجع السابق ١/٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٤٢) البيان والتبيين ١/٢٨٨ .

المبحث الرابع
الازدواج

لايحسن منثور الكلام ولايحلو حتى يكون مزودجاً . والازدواج هو أحسن وجوه السجع ، فهو من المحسنات اللفظية أيضاً ، بل هو سجع فى سجع ، حيث تكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة .

وقد تنبه الجاحظ إلى جمال هذا اللون وعمق أثره فى تصنيع الأدب ، وعده قسماً قائماً برأسه ، فعقد له باباً مستقلاً سماه «باب من مزدوج الكلام» مثل فيه بقوله ﷺ فى معاوية : «اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب ، وقال رجل من بنى أسد: مات لشيخ منا ابن فاشتد جزعه عليه ، فقام إليه شيخ منا فقال : اصبر يا أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته ، فقال مجيباً له : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته ، والله لئن لم أجزع من النقص ، لا أفرح بالمزيد» وروى عن الأصمعى قول ابن أقيصر : خير الخيل الذى إذا استدبرته جنا ، وإذا استقبلته أقعى ، وإذا استعرضته استوى ، وإذا مشى ردى ، وإذا ردى دحا» (٤٣) .

ويبدو من مسلك الجاحظ هذا ، أن هذا اللون له من الأهمية – عنده – بحيث اقتضى الأمر أن يعقد له هذا الباب المستقل ، وإن كنا نلاحظ أنه فيما عرض له من الأمثلة لم يتخل عن رأيه فى الطبع والتكلف ، فالأمثلة التى عرضها فى هذا الباب ، والتى منها الأمثلة السابقة بعيدة كل البعد عن التكلف والاستكراه ، فهى تسير مع الطبع . ففى هذا اللون إذا أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد ، أو ثلاثة أو أربعة ، لايتجاوز ذلك كان أحسن . والأمثلة التى عرضها فى هذا الباب كلها تشير إلى ذلك .

* * *

(٤٣) المرجع السابق ٢/١١٦ ، ١١٧ .

المبحث الخامس
السرقات الشعرية

يذكر البلاغيون موضوع السرقات الشعرية على أنه مما يلحق بعلم البديع ، وليس داخلاً فى فنونه وألوانه (٤٤) ، وجرياً على نهجهم فإننا نتعرض لهذا الموضوع ، بعد أن عرضنا للألوان والمباحث التى هى من صميم المحسنات البديعية والتى نثرها الجاحظ فى كتابه .

وإنه لمن المعلوم أن القائلين قد يتفقون فى الأغراض والمعانى التى يقصدونها فى كلامهم ، وليس لأحد من طوائف الأدباء والمشتغلين بصناعة الكلام غنى عن تناول المعانى التى طرقها من تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها ، وجودة تركيبها وكمال معرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، ولولا أن القائل يؤدى ماسمع لما كان فى طاقته أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين .

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – يقول : «لولا أن الكلام يعاد لنفد» ، وقال بعضهم : «كل شئ ثنيته قصر إلا الكلام ، فإنك إذا ثنيته طال» (٤٥) .

ومعنى الاتفاق فى الأغراض والمعانى الاشتراك فيها على الجملة ، كالوصف بالشجاعة ، والصبر أو السخاء والبلادة أو غير ذلك . ومثل هذا لايعد سرقة ، ولاعيب فيه .

أما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر الشاعر مايستدل به على إثبات هذه الصفة له ، وذلك بوسائل ، منها : التشبيه ، ومنها : ذكر هيئات تدل على الصفة، كوصف الجواد بالتهلل عند ورود العفاة ، والارتياح إلى رؤيتهم ، وما إلى ذلك من الطرق والأساليب التى تعبر عن الأغراض والمقاصد .

---

(٤٤) انظر الإيضاح ١٠٨/٤ .

(٤٥) الصناعتين ص : ٢٠٢ .

واتفاق الشاعرين فى وجه الدلالة على الغرض إن كان مما يشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقراً فى العقول والعادات فلا سرقة فيه أيضاً ، كالتشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويصل إليه بطلب واجتهاد فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق ، ويكون مجالاً للسرقة .

وإذا كان أمر هذه السرقات قد عنى به بعض أعلام البلاغة كالآمدى فى الموازنة ، وأبى هلال فى الصناعتين ، والقاضى الجرجانى فى الوساطة ، فإن الجاحظ قد سبق هؤلاء جميعاً إلى الإشارة إلى الأخذ والسرقة .

نجد ذلك فى قوله : «قال يزيد بن مفرغ :

العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الملامة

وقال : أخذه من الفلتان الفهمى ، حيث قال :

العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الإشارة

وقال مالك بن الريب :

العبد يقرع بالعصا ... والحر يكفيه الوعيد

وقال بشار بن برد :

الحر يلحى والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد

وقال آخر :

فاحتلت حين صرمتنى ... والمرء يعجز لا المحالة[٤٦]

والدهر يلعب بالفتى ... والدهر أروغ من ثعالة [٤٧]

والمرء يكسب ماله ... بالشح يورثه الكلالة

والعبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه المقالة[٤٨]

---

(٤٦) المحالة : الحيلة .

(٤٧) ثعالة : علم جنس للثعلب .

(٤٨) البيان والتبيين ٣٦/٣ ، ٣٧ .

وواضح من هذه الإشارة أن هذا الأخذ الذى ذكره من السرقة الظاهرة ، التى سماها المتأخرون «نسخاً أو انتحالاً» ، وهو : أن يؤخذ المعنى كله مع اللفظ كله من غير تغيير فى نظمه ، أو مع تغيير من السرقة – على كل حال – مذموم مردود .

وكما أشار إلى هذا النوع من السرقة ، وهو السرقة الظاهرة ، أشار أيضاً إلى السرقات غير الظاهرة ، وهى : ماكان المأخوذ المعنى وحده ، والتى سماها المتأخرون «الماما أو سلخا» .

وقد عرض لهذا النوع فيما ذكره من قول أحد الشعراء يهجو بعض الخطباء .

يمان ولايمـون وكـان شـيخا شـديد اللقم هلقاما خطيبا (٤٩)

فهذا الشاعر ذهب إلى قول الأحوص :

ذهب الذين أحبـهم فـرطا وبقيت كالمقمور فى خلف (٥٠)

مـن كـل مطـوى علـى حـنق متـضـجع يكفى ولايكفى (٥١)

وقال الحسن بن هانئ :

إذا نابه أمـر فـأما كـفيـتـه وأما عليـه بالكفى تشيـر (٥٢)

وقال آخر :

ذرينى فلا أعيا بما حل ساحتى أسـود فأكفى أو أطيع المسودا

فهؤلاء الشعراء جميعاً يدورون حول معنى واحد يتفقون عليه ، ولكنهم اختلفوا فى آدائه ، وفى الألفاظ التى استخدمها كل منهم ، فكانت السرقة هنا خفية .

ومنه قول بشار فى معنى آخر :

وفى العبرات الغر صبر على الندى أولـئك حى مـن خزيمة أغلب (٥٣)

(٤٩) مانه يمونه : كفله ، وقام برعايته ، وشدة اللقم : سرعة الأكل ، والهلقام : الواسع الشدقين الكثير الأكل .
(٥٠) المقمور : المغلوب فى القمار .
(٥١) المتضجع : المتعقد الذى لايقوم بالأمر .
(٥٢) الكفى : الكافى .
(٥٣) أغلب : غليظ الرقبة .

وألأم من يمشي ضبيعة ، إنهم	زعانف لم يخطب إليهم محجب (٥٤)

وكذلك قول أعشى بني ثعلبة :

ما ضر غاني نزار أن تفارقه	كلب وجرم إذا أبناؤه اتفقوا (٥٥)
قالت قضاعة أنا من ذوي يمن	الله يعلم ، ما بروا ولا صدقوا
يزداد لحم المناقي في منازلنا	طيبا إذا عز في أعدائنا المرق (٥٦)
وما خطبنا إلى قوم بناتهم	إلا بأرعن في حافاته الحرق (٥٧)

ويوضح الجاحظ ما في الشعر من السرقة غير الظاهرة ، فيقول : «قوله : خطبنا، من الخطبة هاهنا وهو في الشعر الأول من الخطبة أيضاً» (٥٨) .

فهو في هذه اللمحة السريعة أتى على قسمي السرقة ، الظاهرة وغير الظاهرة ، وكانت أمثلته فيهما واضحة كل الوضوح ، بحيث أعطت للبلاغيين بعده تصوراً واضحاً لمعنى السرقة ، والفرق بين قسميها فزادوا في تفريعاتهم ، وأضافوا من عند أنفسهم ما اندرج تحت هذين القسمين من فروع وأنواع ، مستلهمين هذه التفريعات والأقسام من لمحات الجاحظ وإشاراته .

ومما يتصل بالسرقات : الاقتباس والتلميح :

أولاً : الاقتباس :

وهو : أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ، لا على أنه منه . وتضمين الكلام بعض آي القرآن الكريم ، أو شيئاً من حديث رسول الله – ﷺ – يضفي عليه رونقاً وبهاء ، ويزيده حسناً وجمالاً (٥٩) .

وقد ألمح الجاحظ إلى هذا النوع ، وإلى جماله وروعته . وذلك في قوله : «كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن ، فإن لك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة ، وسلس الموقع . قال عمران بن

---

(٥٤) الزعانف : الأحياء القليلة في الأحياء الكثيرة .
(٥٥) الغاني : المقيم .
(٥٦) المناقي ، جمع منقية ، وهي : الناقة ذات الشحم .
(٥٧) الأرعن : الجيش العظيم ، الحرق : النار .
(٥٨) البيان والتبيين ١٨٤/٢ ، ١٨٥ .
(٥٩) انظر الإيضاح ١٣٠/٤ .

حطان: إن أول خطبة خطبتها عند زياد – أو عند ابن زياد (٦٠) – فأعجب بها الناس ، وشهدها أبى وعمى . ثم إنى مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شئ من القرآن» (٦١) .

فـالخطب – عنده – إذا خلت من بعض آيات القـرآن الكريم نقص ذلك من قدرها فى نظر العقلاء ، وقد سبق أن عرفنا دفاع الجاحظ عن هذا الفن الأدبى ، وتضمين الخطب آيات من الذكر الحكيم يكسبها بهاءً ووقاراً ورقة وسلاسة ، وهذا مافطن إليه ودل عليه .

ثانياً : التلميح :

وهو : أن يشار إلى قصة أو شعر أو حديث ، أو آية ، أو مثل ، أو مسألة علمية ، من غير ذكرها (٦٢) .

وقد ذكر الجاحظ كثيراً من أمثلة هذا اللون ، سواء مافيه إشارة إلى بعض أى القرآن الكريم ، أو إلى شعر ، موضحاً مافيها من تلميح ، ومصرحاً بذكر الملمح به .

فمن الإشارة فى الشعر إلى بعض آيات القرآن الكريم ما أنشده بعضهم :

كرهت وكان الخير فيـــما كـرهـته ... وأحببت أمراً كان فيه شبا القتل (٦٣)

يقول : «هو مثل قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (٦٤) .

وكان يقال : خذ مقتصد العراق ، ومجتهد الحجاز . وقال الآخر :

لكـل كريـــم مـــن ألائم قـــومـــه ... على كل حال حاسدون وكشح (٦٥)

وقال جرير :

---

(٦٠) على الشك فى الرواية .

(٦١) البيان والتبيين ١١٨/١ .

(٦٢) بغية الإيضاح ١٤٢/٤ .

(٦٣) الشبا : جمع شباه ، وهو : حد الشئ أو حد طرفه ، ومنه شباة الشبيف .

(٦٤) البقرة . ى : ٢١٦ .

(٦٥) الكشح : جمع كاشح ، وهو : العدو الباطن العداوة ، كأنه يطويها فى كشحه ، والكشح – بالفتح – الخصر .

إنى لآمل منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

وقال الله – تبارك وتعالى – ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٦٦) .

ومن الإشارة إلى الشعر مارواه «أن رجلاً من محارب قيس دخل على عبدالله ابن يزيد الهلالى ، وهو عامل على أرمينية ، وقد بات فى موضع قريب منه غدير فيه ضفادع ، فقال عبدالله للمحاربى : ماتركتنا أشياخ محارب ننام فى هذه الليلة ، لشدة أصواتها . فقال المحاربى : أصلح الله الأمير ، أنها أضلت برقعاً لها ، فهى فى بغائه» .

ثم يقول الجاحظ موضحاً مافى النص من تلميح إلى شعر :

«أراد الهلالى قول الأخطل :

تنق بلا شئ شيوخ محارب وماخلتها كانت تريش ولاتبرى

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

وأراد المحاربى : قول الشاعر :

لكل هلالى من اللؤم برقع ولابن هلال برقع وقميص (٦٧)

وغير ذلك الكثير من الأمثلة التى عرض لها الجاحظ بفهم ووعى كاملين لهذا الفن ، ومايحدثه فى الكلام من روعة وجمال ، مما جعله يهتم به هذا الاهتمام ويسوق له الأمثلة الكثيرة .

* * *

---

(٦٦) ص . ى : ٨٦ ، وانظر البيان والتبيين ٢/٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٦٧) البغاء – بالضم – الطلب ، وانظر البيان والتبيين ٢/١٨٢ .

المبحث السادس
براعة الاستهلال

وهذا النوع – أيضاً – مما يلحق بالبديع . وقد ذكر البلاغيون أن المتكلم ينبغى أن يتأنق فى ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذب لفظاً وأحسن سبكاً وأصح معنى ، وأهم هذه المواضع وأولاها بالعناية والرعاية : ابتداء الكلام ، فإنه أول مايقرع السمع ، فإن كان حسناً وجيهاً أقبل السامع على الكلام فوعاه ، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ومجه .

وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، بأن يكون مطلع الكلام دالاً على ماسيقوله المتكلم ، من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة . وهذا ما سماه البلاغيون «براعة الاستهلال» (٦٨) .

وقد تعرض الجاحظ لهذا النوع فى تعليقه على تفسير ابن المقفع للبلاغة ، والذى صرح بأنه لم يفسر البلاغة أحد قط مثل هذا التفسير ، فقد قال ابن المقفع فى تفسيره : «ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته» (٦٩) ، ثم يقول الجاحظ موضحاً وشارحاً وملفتاً الأنظار إلى ماينبغى أن يكون عليه الابتداء ، واستهلال الكلام من حسن وبراعة ، يقول : «كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التأهب ؛ حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لاخير فى كلام لايدل على معناك ، ولايشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذى قصدت ، والغرض الذى إليه نزعت» (٧٠) .

فالجاحظ يدرك بذوق سليم وعقل واع أن الابتداءات دلائل البيان ، وأن الأديب إذا بدأ كلامه بما يتطير منه ، أو بما لايتناسب مع غرضه وموضعه فإن ذلك يدعو إلى نفور السامعين وانصرافهم عن أدبه ، أما إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ، ومليحاً

---

(٦٨) انظر بغية الإيضاح ١٥١/٤ .
(٦٩) البيان والتبيين ١١٦/١ .
(٧٠) المرجع السابق – الموضع السابق .

رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجئ بعد من الكلام .

هذا ماعرض له الجاحظ من ألوان البديع ومايتصل به ، وهو – كما رأينا – يعرض لهذه الألوان فى أسلوب واضح وإن لفه بعض الإجمال وسيطر عليه عدم النظام ، إلا أنه يظهر – بوضوح – مدى عمقه ودقة ذوقه فى فهم هذه الألوان وصلتها بصناعة الكلام ، وخلود الأدب ، مما يجعلنا نجزم أنه لم يعرض هذه المحسنات إلا لكونها وسائل لتصنيع الأدب ، وهو مذهبه الذى نادى به ، ودعا إليه كوسيلة لخلود الأدب وبقاء أثره ، كما سبق أن أوضحنا ذلك .

* * *

وبعد : فهذه هى المقاييس البلاغية التى عرض لها فى كتابه ، سواء مادخل منها فى علم المعانى أو البيان أو البديع ، أو ماعده البلاغيون مقدمة لدراسة هذه العلوم . ولعله من الواضح البين أن حديثه فيما يتصل بمفهوم البلاغة والفصاحة والبيان قد شغل جزءاً كبيراً من تفكيره البلاغى فى كتابه ، ويبدو لى أن هذه الظاهرة طبيعية ومنطقية أيضاً ، إذ لم تكن مفاهيم هذه المصطلحات قد تحددت أو تميزت عن سائر العلوم الأخرى ، الأمر الذى شغله بمحاولة وضع إطار لهذه المفاهيم ، فأخذ يسوق التعريف تلو التعريف ، والتصور تلو التصور ، ويعرض أركان هذه المفاهيم وجوانبها ومايتصل بها ، كل هذا كان بمثابة المخاض الذى أنتج هذا العلم مستقلاً واضحاً مميزاً عن العلوم الأخرى .

وعلى الرغم من شغل الجاحظ بتحديد هذه المفاهيم إلا أن حديثه فيما يتصل بالأبواب البلاغية الأخرى كان حديثاً واعياً ناضجاً يدل على وضوح هذه الأبواب عنده ؛ مما فتق عقول البلاغيين بعده للاهتداء بضوئه ، والإفادة من كنوزه البلاغية .

* * *

الباب الرابع

"البيان والتبيين" في ميدان البحث البلاغي



يُعد الجاحظ – بما خلفه من تراث علمي فى فروع الثقافة المختلفة – من الزعماء المبرزين ، الذين قدموا للمكتبة العربية أروع ما أنتجه اللسان العربى ، والفكر الإنسانى من خير ، ومن نور أضاء طرقات العلم ، وأوضح مسالكه ، واهتدى به الكتاب والمفكرون على اختلاف ثقافتهم ومعارفهم .

وإذا كانت كتب الجاحظ – التى خلفها – تعلم العقل والأدب – كما صرح بذلك أبو القاسم السيرافى (١) – فإنه مما لاشك فيه أن «البيان والتبيين» هو أسير كتب أبى عثمان وأكثرها تداولاً وأعظمها نفعاً وعائدة ، فقد تتلمذ عليه خلق كثيرون من الأدباء والنقاد وعلماء الإعجاز والكتاب وأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان ممن جاء بعده ، فاستقامت أذواقهم وأقلامهم على الطريقة المثلى فى الكتابة والتأليف .

فالبيان والتبيين أستاذ أجيال متعاقبة ، وهو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا أذهانهم بصقال الجاحظ واهتدوا بضياء بلاغته وفصاحته ، وكل ما أثاره فى كتابه من شتى ألوان الثقافة والمعرفة التى تدل على عبقرية فذة وذوق أصيل .

ومن الثابت المقرر فى تاريخ الثقافة العربية أنه لايوجد أديب أو كاتب عاصر الجاحظ أو جاء بعده لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه ، وقلما نجد أديباً من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب ؛ بل إن المادة العلمية الغزيرة التى أودعها الجاحظ كتابه كانت بحاراً زاخرة استمد منها كبار المؤلفين القدماء مادتهم ، كابن قتيبة فى «عيون الأخبار» وابن عبد ربه فى «العقد الفريد» ، والحصرى فى «زهر الآداب» ، و «جمع الجواهر» وغير هؤلاء كثيرون .

وإذا كان فكر الجاحظ وثقافته – التى أودعها كتابه – قد أفاد منها الكاتبون بعده فى جميع فروع العلم والثقافة العربية ، فإن الضوابط والمقاييس البلاغية التى ضمنها هذا السفر العظيم كانت – بلاشك – منهلاً عذباً لكل كاتب فى البلاغة بعده ، فقد أمعن الكاتبون فى البلاغة العربية – على اختلاف مشاربهم ومناهجهم وأهدافهم –

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٦/١٠٣ ، وفيات الأعيان ٣/١٤٢ .

النظر فى كتاب الجاحظ ، وتبينوا طريقته فى عرض المسائل البلاغية ، وتعرفوا ميزانه الدقيق فى دروس البلاغة ، كما سنوضحه فى هذا الباب .

وسوف نعرض هذا الباب فى فصلين ، نوضح – فى الأول – أثر البيان والتبيين على البحث البلاغى ثم نصل – فى الثانى – إلى النتيجة الحتمية وهى أن الجاحظ كان – بهذا الكتاب – أول واضع لعلم البلاغة .

* * *

الفصل الأول

أثر «البيان والتبيين» فى ميدان البحث البلاغى

إن كتاب «البيان والتبيين» يعد أهم ما ألف فى هذا الطور من تاريخ البلاغة من كتب تتصل ببلاغات العرب شعراً ونثراً ، وتتعرض لتحديد البلاغة والبيان وماحولهما من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، فقد حوى كثيراً من بحوث البيان وأصوله .

ولعله من الخطأ أن نقلل من هذا الجهد الذى قدمه الجاحظ فى كتابه أو نهون من شأنه ، ونحتج بأنها كانت دراسات موجزة مفرقة ، فهذا التفرق والإيجاز لايضيره ولايؤثر على جهده ، إذ كانت الأساس الأول لنشأة هذا العلم وتميزه واستقلاله .

ومن يتتبع الجهود البلاغية التى جاءت بعد الجاحظ يدرك ، بما لايدع مجالاً للشك – أن بيان الجاحظ أثار كثيراً من العلماء فقدموا لنا دراسات خصبة فى مؤلفاتهم تتصل بمسائل الأدب وتدرس البلاغة والبيان .

وقد كان النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى زاخراً بأولئك العلماء الذين أفضى إليهم علم الرواية ، وتثقفوا بثقافة العصر ، وهى – ولاشك – ثقافة خصبة واسعة الأرجاء ، متشعبة الجهات ، متعددة الروافد ، وقد انصب فيضها فى عقول هؤلاء ، وجرى على ألسنتهم وأقلامهم ، فأودعوه ما ألفوا من الكتب ، وصنفوا من الرسائل ، وزانوا تلك المعارف التى ثقفوها عن العرب وأفادوها من الإسلام ، ونقلت إليهم من آثار الأجانب بثمرات عقولهم وأذواقهم .

وإنه لمن نافلة القول أن نؤكد أن كل من كتب فى البلاغة العربية ودرس البيان وأصوله ومسائله ، من قريب أو من بعيد وجاء بعد الجاحظ قد تأثر به وبما نثره فى كتابه من المقاييس البلاغة تأثراً واضحاً واستفاد من علمه ونسج على منواله . ومن يطلع على تلك الكتب التى عالجت البلاغة والبيان بعده يدرك هذه الحقيقة .

وهذه الكتب – على كثرتها – وإن كانت تتعرض للبيان ، وتدرس الأدب وفنونه إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً فى مناهجها ، وتتفاوت فى مادتها على حسب اختلاف عقليات مؤلفيها ، واختلاف ثقافاتهم ، ومدى إدراكهم للموضوع الذى يعالجونه ، وإن كان موضوعها لايجاوز البحث فى الأدب والبلاغة والبيان فى كلياته

أو فى جزئياته ، ومدى اقتدار أصحابه عليه ، وتمكنهم منه [١] .

ويؤكد هذا القول ماذكره ابن خلدون فى مقدمته : أنه سمع من شيوخه «أن أصل هذا الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى . وماسوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها» [٢] .

ومن المعلوم أن البيان والتبيين هو أقدم هذه الدواوين التى عدها ابن خلدون أصولاً للأدب والبيان والبلاغة ، ومن ثم فإن البيان والتبيين يعد أصلاً لهذه الكتب وماجاء بعدها من المؤلفات فى هذا الفن .

ونقف فى شئ من التفصيل مع أبرز الأعلام الذين كتبوا فى البلاغة العربية ، وخلفوا لنا آثاراً بلاغية لها قيمتها فى بناء الصرح البلاغى الكبير ؛ لنرى تأثر هؤلاء الكاتبين ببيان الجاحظ ، وما أثاره فى كتابه من مقاييس وضوابط بلاغية .

* * *

(١) البيان العربى . ص١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) مقدمة ابن خلدون . ص٨٠٥ .

أولاً : عبدالله بن قتيبة (٣)

يعد ابن قتيبة أكبر مؤلف أدبى ظهر بعد الجاحظ ، وقد شغل – إلى حد كبير – بالدراسات البلاغية والبيانية ونثرها فى كتبه الأدبية والقرآنية التى أبرزها : تأويل مشكل القرآن ، والشعر والشعراء ، وعيون الأخبار وغيرها .

والكتاب الأول ليس كتاباً فى التفسير على النحو المعروف ، كما قد يبدو من اسمه ، فهو لاينهج فيه نهج المفسرين الذين يتناولون آيات القرآن الكريم ويشرحون مافيها من معان وأحكام وأخبار ، وإنما يهتم ابن قتيبة فى كتابه ببيان القرآن وبلاغته، فقد رأى أن الكثير من أسرار القرآن وبلاغته قد خفى على العامة ، فالقرآن نمط رفيع وأسلوب فريد ، وفيه من جمال العبارة وقوة الأسلوب ماقد يخفى على غير أهل البصر بصناعة الكلام ، الذين حرموا نعمة الذوق ، وقلت معرفتهم بلغة العرب وطرائقهم فى التعبير ، ومن ثم فإنه لايعرف جمال الأسلوب القرآنى وروعة بيانه إلا من كان ذا بصر واسع وعلم غزير بأساليب العرب ، وماخص الله به لغتهم من بلاغة عالية وبيان ساحر .

والكتاب – فى علاجه لهذه القضية – يعالج قضايا البلاغة ومسائلها بشكل مباشر واضح ، فإذا كان للعرب مجازاتهم وطرائقهم التى لابد من معرفتها لمن يريد البصر بأساليب القرآن الكريم ويدرك سموها وارتقاءها عن كلام البشر فإن من هذه المجازات : التقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والاستعارة والكناية والإفصاح ، وغير ذلك من الطرق التى سلكها العرب وجاء عليها أسلوب القرآن الكريم .

وابن قتيبة – فى علاجه لهذه القضايا البلاغية فى كتابه – يبدو عليه أثر الجاحظ بوضوح تام ، حتى كأنه يستمد عمل الجاحظ وآراءه البلاغية ، وإن كان تأثره

---

(٣) هو : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد سنة ٢١٣ هـ ببغداد ، وقيل بالكوفة ، أصله فارسى أو تركى من مرو بخراسان ، نزل بغداد وتلقى فيها علومه ومعارفه ، ومن ثم قيل له نزيل بغداد ، وكان نحوياً لغوياً كاتباً ، وهو سنى مناهض لجماعة المعتزلة . توفى عام ٢٧٦هـ. قال عنه الخطيب البغدادى : «كان رأساً فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة، ديناً ، فاضلاً ، وله كثير من الكتب فى القرآن والحديث والدين واللغة والشعر والكتابة تشهد بغزارة علمه ورجاحة عقله» . ومن أهم كتبه : مشكل القرآن والحديث وعيون الأخبار وأدب الكاتب .

ببيان الجاحظ أقل إذا ماقورن بتأثره بالحيوان .

ويكفى أن أعرض لمثال واحد من كتابه يبدو فيه أثر الجاحظ وبيانه على ماساقه فى الكتاب ، من ألوان البيان ومسائل البلاغة .

فقد ذكر فى قول الله – تعالى – للسماء والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [٤] إن الله سبحانه وتعالى لم يقل وأن السماء والأرض لم تقولا . وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنما هذا عبارة : لكوناهما فكانتا ، كما قال الشاعر حكاية عن ناقته:

تقــول إذا درأت لهـــا وضـــينى أهـــذا دينـــه أبـــدا ودينى[٥] ؟
أكل الدهـــــر حـــل وارتحـــــال أمـــا يبـــقى علىَّ ولايقـــينى ؟

وهى لم تقل شيئاً من هذا ، ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال ، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر ، وكقول الآخر : «شكا إلى جملى طول السرى» والجمل لم يشك ، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلماً لاشتكى ما به ، وكقول عنترة فى فرسه :

فازور من وقـــع القـــنا بلبــــانه وشكا إلى بعيـرة وتحمـحم [٦]

لما كان الذى أصابه يشتكى مثله ويستعبر منه ، جعله مشتكياً مستعبراً ، وليس هناك شكوى ولاعبرة [٧] .

وأثر الجاحظ واضح على ماكتبه ابن قتيبة حول هذه الآية الكريمة ، فلو رجعت إلى أحاديث الجاحظ فى الاستعارة والكناية لوجدت أن ابن قتيبة كأنه يشرح الكثير مما أثاره الجاحظ فى هذين الموضعين [٨] .

على أن ابن قتيبة وإن تأثر – فى كتابه – بالجاحظ ووافقه فى كثير من القضايا

---

(٤) فصلت . ى : ١١ .
(٥) الوضين : نسيج من صوف أو شعر يتخذ بطانة . ودرات وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به .
(٦) أزور : مال ، التحمحم : صوت متقطع ، اللبان : الصدر .
(٧) تأويل مشكل القرآن ص٧٩ ، وانظر أيضاً ص١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٨) انظر البيان والتبيين ١/٢٧٩ ، ٣٠٢ ، ٢/١٥ ، ٣/٥٢ ، ٨٣ .

البلاغية إلا أنه – وهو السنى المتعصب – يحمل عليه وعلى المعتزلة حملات شعواء فيما يتصل بالعقيدة والاعتزال .

وكما نلمس هذا الأثر فى «تأويل مشكل القرآن» نلمسه بوضوح فى كتابه «الشعر والشعراء» . فقد مضى فى مقدمته يسوى بين اللفظ والمعنى وأثرهما فى تحقيق البلاغة ، ومن يمعن النظر فى عبارته يجد أنه نظر إلى الجاحظ على أنه يقدم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام ، فأراد أن يرد على مذهبه ، فجعل للمعنى مزيته فى البلاغة ، وقسم الكلام على هذا الأساس إلى ماحسن لفظه ومعناه ، وماحسن لفظه دون معناه ، وماحسن معناه دون لفظه ، وماساء وقبح فى لفظه ومعناه جميعاً ، وإن كان لم يقف عند القسم الأخير ؛ لعدم دخوله فى الكلام البليغ ، ويروى فى الضرب الثانى من هذه الأضرب الأربعة أن قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا	ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطى الأباطح

مما حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة كبيرة فى المعنى[٩] .

وقد مر بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل من خصائص كتابته ؛ بعثاً للسامعين على اليقظة وتنشيطاً للقارئين ، وحرصاً منه أن لايملوا ، وعرفنا أن هذا كان تطبيقاً عملياً لمراعاة تطبيق الكلام على مقتضى الحال التى أدار حولها حديثاً طويلاً فى كتابه . ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار إلا أننا نراه فى مقدمة كتابه «عيون الأخبار» يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابه فيقول : «ولم أخله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة ، لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وأتعاب الحق ، فإن الأذن مجاجة ، وللنفس حمضة ، والمزج إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبته مشاكلاً ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله ، وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة ، وماروى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك

---

(٩) الشعر والشعراء ٦٤/١ ، ٦٥ ، ٦٦ .

له ، فأعرف المذهب فيه وماأردنا به» (١٠) .

وهذا التنبيه الذى نبه به ابن قتيبة قارئيه نكاد نرده إلى الجاحظ ؛ حيث نلمس فيه روحه ونشم رائحته ، ونتذكر أحاديثه المرحة ، وفكاهته المضحكة فى «البيان والتبيين» .

على أننا إذا تصفحنا كتب ابن قتيبة الأخرى فسنجد أثر الجاحظ وبيانه فى كل ماكتبه ابن قتيبة مما يتصل بمسائل البلاغة والبيان .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن قتيبة فى عرضه لمسائل البلاغة والبيان يبدو أكثر نضوجاً ، فهو يعرضها فى أسلوب أدبى ناصع ، يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة ، وإن كان كثيراً مايحاكى الجاحظ فى استخدام الازدواج حيناً والاسترسال أحياناً أخرى .

* * *

(١٠) مقدمة عيون الأخبار . ص : ل .

ثانياً : محمد بن يزيد المبرد [١١]

وممن سار على درب الجاحظ ، ونهج نهجه فى مسائل البلاغة والبيان ابن يزيد المبرد . فمن يتصفح كتابه «الكامل» يدرك – بأدنى تأمل – تأثره الواضح ببيان الجاحظ وآرائه البلاغية .

فكتاب «الكامل» زاخر بفنون الأدب مع الاهتمام بالشرح والبسط والتحليل والنقد والموازنة ، كما نجد فى هذا الكتاب كثيراً من الملاحظات البيانية التى تلقانا من حين إلى حين شافعاً لها بعرض الكثير من النماذج الأدبية شعراً ونثراً ، متبعاً إياها بالشرح اللغوى على غرار مايفعل الجاحظ فى كتابه .

فنجده يستهل كتابه – مقتفياً أثر الجاحظ – بذم التكلف والنهى عن التشادق والتقعر فى الكلام ، داعياً إلى السهولة واليسر والميل مع الطبع ، مستدلاً بحديث الرسول – ﷺ – «إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» ويقف مع هذا الحديث الشريف شارحاً إياه موضحاً كيف كان الرسول الكريم يبغض التكلف والتصنع ، مبيناً أن الطبع والسهولة لهما مدخلهما فى جودة الكلام وروعته وحسنه [١٢] .

ونراه وهو يتحدث عن الكناية – مثلاً – يتأثر بالجاحظ ، فيجعلها على ثلاثة أوجه ، فهى إما للتعمية والتغطية ، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مايدل على مامعناه من غيره ، وإما للتفخيم والتعظيم [١٣] .

ويقدم لنا المبرد بحثاً مستفيضاً عن التشبيه ، فيقسمه إلى أربعة أضرب :

---

(١١) هو محمد بن يزيد المبرد الأزدى ، إمام نحاة البصرة فى عصره ، ولد بها سنة ٢١٠هـ ، وقيل سنة ٢٠٧هـ ، أكب منذ نشأته على التزود من اللغة على أعلام عصره من البصريين ، فبرز فى علم اللغة والنحو والتصريف ، وبلغ من إعجاب المازنى بفطنته وذكائه أن لقبه المبرد – بكسر الراء – لحسن تثبته وتأتيه فى العلل ، وحور الكوفيون اللقب إلى المبرد – بفتح الراء – عنتاً له وسوء قصد . وقد اتصل بالخليفة المتوكل سنة ٢٤٦هـ ليفتى له الفتوى الصحيحة فى بعض المسائل اللغوية . وظل طلاب العلم يهرعون إليه ببغداد حتى توفى سنة ٢٨٥هـ . وقيل سنة ٢٨٦هـ . ومن أشهر مؤلفاته : الكامل ، والمقتضب ، والانتصار لسيبويه ، ورسالة فى البلاغة .

(١٢) انظر الكامل ٣/١ .

(١٣) المرجع السابق ٥/٢ ، ٦ .

التشبيه المفرط ، والتشبيه المصيب، والتشبيه المقارب، والتشبيه البعيد الذى يحتاج إلى التفسير ولايقوم بنفسه (١٤) .

ومما تنبه له المبرد فى كتابه – بوحى من الجاحظ وتأثر به – ملاحظته تنوع الخبر والمعنى . ذلك أن الكندى الفيلسوف قال له يوماً : إنى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون : عبدالله قائم ، وإن عبدالله قائم ، وإن عبدالله لقائم والمعنى واحد ، فأجابه قائلاً ، بل المعانى مختلفة ، فعبد الله قائم أخبار عن قيامه ، وإن عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل ، وأن عبدالله لقائم جواب عن إنكار منكر (١٥) .

وقد فتح المبرد بهذه الملاحظة للبلاغيين فصلاً من فصول علم المعانى ، أطلقوا عليه «أضرب الخبر» وسموا الخبر الأول فى سؤال الكندى وإجابة المبرد ابتدائياً، والثانى طلبياً والثالث إنكارياً (١٦) .

وللمبرد رسالة صغيرة أفردها للبلاغة ، بل إنها تحمل هذا الاسم ، وكانت هذه الرسالة جواباً لكتاب ورد إليه من أحمد بن الواثق ، قال فيه : «أحببت – أعزك الله – أن أعلم أى البلاغتين أبلغ : أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع ؟ وأيهما – أعزك الله – أبلغ ؟ عرفنى ذلك إن شاء الله» .

وجاء رد المبرد فى رسالته يحمل كثيراً من الموازنات بين بعض الأشعار وبعض الكلام المنثور ، معرجاً على السرقات الشعرية مع إفاضة القول فيها .

وأهم مانلمسه فى هذه الرسالة هو توضيحه مذهبه فى صناعة الأدب – على نحو ما رأينا عند الجاحظ – فقد جاء فيها : «أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقارنة أختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول ، فإن استوى هذا فى الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً ، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد ؛ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزناً وقافية ، والوزن يحمل على الضرورة ، والقافية تضطر إلى الحيلة .

والرسالة فى جملتها أثر واضح يدل على أثر البيان والتبيين فى عقلية المبرد ، بل إننا لانبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن المبرد ضمن رسالته فى البلاغة زبدة الآراء البلاغية المبثوثة فى البيان والتبيين (١٧) .

---

(١٤) المرجع السابق ٢/٣٥-١٠١ . (١٥) الإيضاح ٤٦/١ .
(١٦) البلاغة تطور وتاريخ ص٦١ .
(١٧) انظر الرسالة بتحقيق د/ رمضان عبدالتواب .

ثالثاً : ثعلب [١٨]

وممن شغفوا ببيان الجاحظ وتأثروا به أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، فقد أثاره «البيان والتبيين» وحفزه أن يصنف كتاباً صغيراً سماه «قواعد الشعر» .

وعلى الرغم من أن عقلية ثعلب عقلية محافظة تجيد اللغة والنحو والأدب أكثر من إجادتها فنون البيان والبلاغة إلا أن كتابه يعد من الآثار التى ينبغى ألا تغفل فى دراسة البيان العربى ذات التأثر الواضح ببيان الجاحظ ومنهجه فى تناول المسائل البلاغية .

فقد عدَّ ثعلب قواعد الشعر أربعة : أمر ونهى وإستخبار وخبر ، ومثل لكل قاعدة منها ، ثم تحدث عما يجرى فيه من المديح والهجاء والرثاء والاعتذار والتشبيب والتشبيه واقتصاص الأخبار [١٩] .

وعرض للكثير من فنون البلاغة ومسائلها ، كالتشبيه والاستعارة والكناية التى سماها : «لطافة المعنى» [٢٠] والمبالغة التى سماها : «الإفراط فى الإغراق» والمطابقة التى سماها «مجاورة الأضداد» ، كما عرض لجزالة الألفاظ ، وتحدث عن جمال النظم وغير ذلك من المباحث التى تطالعنا فى كتابه .

وكتاب ثعلب – فضلاً عن صغر حجمه – لم يضف للبلاغة شيئاً ذا بال ، ولكن – على أى حال – فإن أثر الجاحظ واضح كل الوضوح لمن يطالع هذا الكتاب .

وعلى سبيل المثال نجد ثعلب يعرض لفن الاستعارة ، فيعرفها بأن «يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه» كقول امرئ القيس :

---

(١٨) هو : أبوالعباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، كان فارسى الأصل ، ولد ببغداد سنة ٢٠٠هـ، ونشأ بالكوفة ، وتلقى علومه فيها حتى طار صيته فى النحو والعربية ، وصار إمام المدرسة الكوفية فى النحو ، وتتلمذ عليه كثير من الأعلام ، كالأخفش ، ونفطويه ، والزجاج ، وابن الأنبارى ، وابن المعتز وغيرهم من العلماء والأدباء . توفى فى خلافة المكتفى سنة ٢٩١هـ. له مصنفات كثيرة فى النحو واللغة والقراءات والأمثال أشهرها : المجالس ، والفصيح، وقواعد الشعر .

(١٩) انظر قواعد الشعر ص : ٢٨ .

(٢٠) المرجع السابق ص٤٤ .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وقال زهير :

فشد ولم ينظر بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

ولارحل للمنية . وقال تأبط شرا فى شمس بن مالك :

إذا هزه فى عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك

ولانواجذ للمنية ولافم . وقال أيضاً :

فظل يناجى الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر

ولاعين للموت . وقال أبو ذؤوب الهذلى :

وإذا المنيه أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لاتنفع

ولاظفر للمنية .

ومن يقرأ حديث الجاحظ عن الاستعارة وأمثلتها يجد تشابهاً واضحاً بين ماكتبه ثعلب وما أثاره الجاحظ ونثره فى بيانه عن الاستعارة ومايتصل بها [٢١] .

وهذا الأثر الذى نجده فى فن الاستعارة نجده أيضاً فى كل أبواب الكتاب ومسائله البلاغية مما يدلنا على أن «البيان والتبيين» – رغم اختصاصه بمسائل الأدب والبيان والبلاغة – إلا أنه استطاع أن يؤثر فى عقلية عالم محافظ كثعلب ، وأن يديم النظر فيه حتى أثاره إلى تأليف كتابه فى مسائل الأدب والبيان .

* * *

(٢١) انظر البيان والتبيين ١/١٥٣ .

رابعاً : عبدالله بن المعتز (٢٢)

سبق أن ذكرنا فى مستهل حديثنا عن البديع فى الباب السابق أنه اشتهر بين الكاتبين فى البلاغة العربية أن ابن المعتز هو أول من وضع فنون البديع وجمعها فى كتاب مستقل ، هو كتابه الشهير «البديع» وقد صرح هو بذلك فى مقدمة كتابه (٢٣) .

وكما أوضحنا أن أحداً لاينكر فضل ابن المعتز فى جمعه لهذه الفنون وتوضيحها ، والاستشهاد لها من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ومن روائع الأدب شعره ونثره .

وأشرنا – فى عجالة أيضاً – إلى أن هذا الفضل الذى ينسب إلى ابن المعتز كان بوحى من الجاحظ بعد أن نظر فى بيانه وتأثر به ، وبعد أن قرأ ماكتبه مما يتصل بهذه الألوان البديعية .

ويذهب صاحب «البيان العربى» إلى أن بديع ابن المعتز هو أول كتاب فى البلاغة العربية بالمعنى الصحيح ؛ حيث لم يجاوز فى موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغى (٢٤) .

ويصرح هذا الكاتب – فى موضع آخر من كتابه – بأن كتاب «البديع» هو أثر من آثار «البيان والتبيين» للجاحظ ، فقد كان ابن المعتز واحداً من علماء اللغة والأدب الذين أثارهم بيان الجاحظ – بعد أن وعوه وفهموه – فقدم لنا كتابه «البديع» وأودعه

---

(٢٢) هو : أمير المؤمنين أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل ابن المعتصم بن هارون الرشيد، أحد الخلفاء العباسيين ، ولد سنة ٢٤٧هـ في بيت الملك والخلافة ، وربى فى ساحة الترف والنعيم ، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس ، قوى الشعور بالجمال ، ولوعاً بالأدب والموسيقى ، فكان شاعراً مطبوعاً ، وتأدب على شيوخ الأدب والعلم فى عصره ، كالمبرد وثعلب ، فكان من الأدباء والعلماء . تحزب له جماعة من الأتراك وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦هـ وبايعوه خليفة للمسلمين وسموه المرتضى بالله ، فأقام فى الخلافة يوماً وليلة ، ثم تحزب أبناء المقتدر وقاتلوا ابن المعتز وأعوانه حتى قتلوه سنة ٢٩٦هـ . ومصنفاته الأدبية والبيانية كثيرة ومن أهمها : كتاب البديع ، وطبقات الشعراء ، وكتاب الجوارح والصيد ، وديوان أشعاره ، وغيرها .

(٢٣) البديع ص١ .

(٢٤) البيان العربى ص١٢٧ .

ثقافته البيانية وما تأثر به من المسائل البيانية والبلاغية التى أثارها الجاحظ فى كتابه[٢٥] .

بل أكثر من هذا نجد هذا الكاتب يصرح بأن كلمة «البديع» التى وضعت عنواناً لكتاب ابن المعتز ، لم يكن هو أول مستعمل لها ، بل استعملت هذه الكلمة فى معناها الأدبى قبل ابن المعتز ، فقد ذكرها الجاحظ حين ذهب إلى أن البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لسان وأربت على كل لغة ، وذكر جماعة من الشعراء العباسيين اشتهروا بالبديع ، ونسب هذه التسمية إلى الرواة [٢٦] .

والواقع أن من يطالع كتاب البديع ، ويتعرف الغاية التى هدف إليها ابن المعتز من كتابه ، ويقارن بين ماكتبه فيه من فنون البديع وموضوعاته وبين مانثره الجاحظ فى «البيان والتبيين» من هذه الموضوعات يدرك بأدنى تأمل أن ابن المعتز اهتم بجانب من جوانب «البيان والتبيين» وهو مانثره الجاحظ فى كتابه من وسائل تصنيع الأدب، وما به يحسن الكلام ويزداد رونقاً وبهاءً، فتأثر ابن المعتز بهذا الجانب ودرسه وشرحه وقدمه فى كتابه .

فغايته من الكتاب يعلنها فى صراحة ، وهى أن يثبت أن المحدثين لم يخترعوا البديع ، ولكنه شئ موجود فى كلام العرب من قديم ، ويزخر به القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وكلام الجاهليين والإسلاميين ، فيقول : «قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله – ﷺ – وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ؛ ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه» [٢٧] .

وفى موضع آخر يحدد غرضه من تأليف كتابه فيقول: «وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من ألوان البديع» [٢٨] .

وهذه الغاية وذلك الغرض الذى ذهب ابن المعتز فى طريقهما لم يكن مخترعاً لهما ، فليسا من وحيه وتفكيره ، وإنما هى فكرة أوحاها إليه الجاحظ حين ذهب إلى أن

---

(٢٥) المرجع السابق ص١٠٤ .
(٢٦) المرجع السابق ص١٢٨ .
(٢٧) البديع ص١ .
(٢٨) المرجع السابق ص٣ .

«البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان» ، وأن الراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب فى شعره فى البديع مذهب بشار (٢٩) . وعلى ألفاظه وحذوه فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد وأشباههما (٣٠) .

ففكرة الكتاب وغايته هى - ولاشك - مستمدة من بيان الجاحظ ومذهبه فى تصنيع الأدب وأحاديثه المنثورة فى بيانه عن وسائل هذا التصنيع من ألوان البديع وفنونه المختلفة . وفضلاً عن هذا فقد كان للجاحظ أثر لايجحد على كثير من الموضوعات التى ضمنها ابن المعتز كتابه .

وقد درس ابن المعتز فى كتابه ثمانية عشر نوعاً خص الخمسة الأولى منها باسم البديع ، وهى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة أو الطباق ، ورد الإعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى . وسمى باقى الفنون التى عرضها - وهى ثلاثة عشر فناً - «محاسن الكلام» وهى : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم مالايلزم ، وحسن الابتداء .

ولاشك أن الفنون الخمسة الأولى التى فصل ابن المعتز القول فيها تفصيلاً ، وما أحصاه وراءها من محاسن الكلام قد جمع الكثير منها مما كتبه الجاحظ سالكاً مسلك التحديد والضبط والتقنيين إلى حد ما ، كما جمع البعض الآخر من كتابات اللغويين ممن سبقوه .

ولما كان لابن المعتز منهجه المستقل فى دراسة هذه الألوان ، وهو منهج يختلف - من غير شك - مع طريقة الجاحظ وعرضه لهذه الألوان ، فإن أثر الجاحظ فى أبواب الكتاب يبدو غامضاً لمن لم ينعم النظر فى هذه الأبواب .

وأسوق على سبيل المثال باب «الهزل يراد به الجد» وهو من محاسن الكلام التى عرضها ابن المعتز فى كتابه ، فإنه من المقطوع به أن ابن المعتز أخذ هذا اللون من بيان الجاحظ ، واستفاد منه فى فهمه لهذا المحسن البديعى ، وإن مثل له بغير مامثل به الجاحظ ، فقد مثل له ابن المعتز بقوله أبى العتاهية :

---

(٢٩) البيان والتبيين ٤/٥٥ ، ٥٦ .
(٣٠) المرجع السابق ١/٥١ .

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكا ... من بخل نفس لعل الله يشفيكا

ماسلم نفسك إلا من يتاركها ... وماعدوك إلا من يرجيكا

وقول أبى نواس :

إذا ماتميمى أتاك مفاخرا ... فقد عد عن ذا كيف أكلك للضب(٣١)

ولم يضف ابن المعتز فى هذا اللون وفهمه إياه شيئاً عما ذكره الجاحظ ، اللهم إلا الأمثلة ، حيث مثل له الجاحظ بأمثلة أخرى (٣٢) .

وفى باب «حسن التضمين» نجد أن ابن المعتز قد استوحى فكرة هذا الباب من بيان الجاحظ ومن أحاديثه المتفرقة عنه فى كتابه ، وإن كان الجاحظ لم يعده محسناً وإنما عده عيباً ينبغى تجنبه ، كما روى ذلك فى صحيفة الهند فى البلاغة (٣٣) . وعده ابن المعتز محسناً وعنى به : «أن يضمن الشاعر شعره أبياتاً أو أنصاف الأبيات من شعر غيره» ومثل له بقول الأخيطل :

ولقد سما للخرمى فلم يقل ... بعد الوغى لكن تضايق مقدمى(٣٤)

فقوله : «لكن تضايق مقدمى» هو من قول عنترة :

إذ يتقون بى الأسنة لم أخم ... عنها ولكن تضايق مقدمى (٣٥)

فمثل هذه الومضات التى تدل على تأثر ابن المعتز فى بديعه ببيان الجاحظ كثيرة ، ولكن يكفينا أن الكتاب وفكرته وغايته أثر من آثار بيان الجاحظ وثمرة من ثماره البلاغية والبيانية .

* * *

(٣١) البديع ص٦٣ .
(٣٢) البيان والتبيين ٩٣/١ ، ٩٤ .
(٣٣) المرجع السابق ٩٢/١ .
(٣٤) البديع ص٦٤ .
(٣٥) نقد الشعر ص٢٤ .

خامساً : قدامة بن جعفر [٣٦]

وممن تأثر ببيان الجاحظ تأثراً بالغاً وأشاد به وأشار إليه واعترف بفضله قدامة ابن جعفر فى كتابه «البيان» الذى اشتهر باسم «نقد النثر» .

وليس هذا مجال تحقيق اسم الكتاب ، أو توثيق نسبته إلى قدامة ؛ ولذا فإننا نكتفى ونطمئن إلى ماذكره محقق الكتاب – الدكتور عبدالحميد العبادى – أن الاسم الحقيقى له هو – من غير شك – «كتاب البيان» كما جاء بالورقتين الأولى والأخيرة من النسخة الخطية ، وأن واضعه قدامة بن جعفر [٣٧] .

وقد عكف قدامة على بيان الجاحظ فدرسه دراسة واعية مستفيضة ، ووعى كل ماعرضه الجاحظ من أصول البيان ومسائل البلاغة والفصاحة ، بل إن قدامة وضع كتابه على سبيل المعارضة لكتاب «البيان والتبيين» وليكون كتيباً سهل التناول على ناشئة الكتاب .

والذى حدا بقدامة أن يقف على كتاب الجاحظ وقفة الإمعان والتأنى هو ما ادعاه فى مقدمة كتابه أن صديقاً دله على ذلك الكتاب ، وطلب منه أن يختصر زبدة مافيه من أصول البيان . فيصرح بقوله : «إنك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذى سماه كتاب البيان والتبيين ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً منتخلة ، وخطباً منتخبة ، ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولاأتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه ، وسألتنى أن أذكر جملاً من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدئ معانيه ويستغنى بها الناظر فيه ، وأن اختصر لك ذلك ، لئلا يطول

---

(٣٦) هو : أبوالفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، المعروف بالكاتب البغدادى ، ولد حوالى سنة ٢٧٥ هـ ، كان أحد مشايخ الكتاب ، ومن أوسع أهل زمانه علماً وأغزرهم مادة ، أخذ بنصيب وافر من ثقافة عصره الإسلامية ، فبرع فى اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والحساب ، وتكاد كتب التراجم تجمع على تفوقه فى البلاغة والبيان ، فيقول عنه ياقوت : «قرأ واجتهد وبرع فى صناعتى البلاغة والحساب» ، وقال عنه المطرزى : «أبوالفرج قدامة .. المضروب به المثل فى البلاغة» . توفى سنة ٣٣٧هـ . وله من المصنفات الكثير فى صنعة الكتابة وغيرها ، وأشهرها : نقد الشعر ، والبيان المسمى «نقد النثر» .

(٣٧) مقدمة البيان (نقد النثر) للمحقق ص٤٣ .

له الكتاب ، فقد قيل «إن الإطالة أكثر أسباب الملالة» (٣٨) .

وعلى الرغم من أن قدامة يذكر أن صديقه يهون من شأن «البيان والتبيين» ويطلب منه أن يأتى بما لم يأت به الجاحظ إلا أن من يتصفح هذا الكتاب الذى وضعه قدامة – استجابة لرغبة صاحبه – يجده قد تتبع خطا الجاحظ فى كل ماعرضه من آراء ومسائل تتصل بالبلاغة والبيان ؛ بل إنه صرح أنه لم يأت فى كتابه بجديد ، حيث يقول : «قد ذكرت فى كتابى هذا جملاً من أقسام البيان ، وفقراً من آداب حكماء أهل هذا اللسان لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه» (٣٩) .

ويعرض قدامة فى كتابه للكثير من مسائل البلاغة والبيان ، ناسجاً على منوال الجاحظ ، ومهتدياً بهديه ومقتبساً من نوره وضيائه . ففى الكتاب دراسة لفن التشبيه واللحن والرمز والوحى والاستعارة والأمثال واللغز والحذف والمبالغة والفصل والوصل والتقديم والتأخير ، بل إننا نرى فى معظم هذه الأبواب البلاغية نصوصاً كثيرة أخذها من الجاحظ ولم يضف إليها أو يختصر فيها إلا القليل .

وعلى سبيل المثال ، فإن قدامة عقد باباً أسماه «باب فيه المنثور وماجاء فيه» أكثر فيه القول عن الخطابة وماينبغى أن يتحلى به الخطيب من الصفات – وهذا أيضاً يذكرنا بالجاحظ واهتمامه بالخطابة اهتماماً فاق غيرها من الفنون الأدبية – ثم قال قدامة : «ومن الأوصاف التى إذا كانت فى الخطيب سمى سديداً ، وكان من العيب معها بعيداً ، أن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولامتكلف ماليس فى وسعه ، فإن التكلف إذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه ، وحسبك من ذم التكلف إن الله – عز وجل – أمر رسوله – ﷺ بالتبرؤ منه ، فقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٤٠) . وألا يظن أن البلاغة إنما هى الإغراب فى اللفظ والتعمق فى المعنى ، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى ، والبليغ مابلغ المراد ، ومن ذلك اشتقا ، فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه ، ولم يحوج السامع إلى تفسير له ، بعد ألا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ

(٣٨) البيان (نقد النثر) ص١ .
(٣٩) المرجع السابق ص٣ .
(٤٠) ص . ى : ٨٦ .

العامة مشبهاً . ولذلك قال بعضهم فى وصف البلاغة : هى أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى ، فلايكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى ، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ . وليس ينكر مع ذلك أن يكلم أهل البادية بما فى سجيتها علمه ، ولاذوو الأدب بما فى مقدار أدبهم فهمه ، وإنما ينكر أن تكلم الحاضرة والمولدون من الغريب بما لايعرفون ، وبما هم إلى تفسيره محتاجون ، وإن تكلم العامة السخفاء بما تكلم به الخاصة الأدباء وإنما مثل من كلم إنساناً بما لايفهمه وبما يحتاج إلى تفسير له كمثل من كلم عربياً بالفارسية ؛ لأن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل ، فإذا كلمه بما لايعرفه فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها ... وإنما يستنكر من ذلك الموضوع غير موضعه والمخاطب به غير أهله ، كقول أبى علقمة النحوى وقد عثر فسقط فاجتمعت عليه العامة ، فقال : «مابالكم تتكأكئون على كأنما تتكأكئون على ذى جنة ، أفرنقعوا عنى .. فهذا وشبهه منكر قبيح لاينبغى أن يستعمله ذو عقل صحيح ، وقد قال رسول الله – ﷺ : «إياكم والتشادق» وقال «أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون» وقال : «من بدا جفا» [٤١] .

ولايخفى على من يقرأ هذا النص روح الجاحظ الواضحة ؛ بل إن كثيراً من عبارته هى بعينها عبارة الجاحظ فنص قدامة هذا عبارة عن تلخيص لآراء الجاحظ المتناثرة فى كتابه عن التكلف والصنعة والسهولة والطبع [٤٢] .

وأسوق مثالاً آخر – لا للحصر – ولكن لنتبين إلى أى حد تأثر قدامة بفكر الجاحظ وآرائه البلاغية ، فقد عقد باباً لأدب الجدل ذكر فيه أن عمدة الأمر فى استخراج الغوامض وإثارة المعانى على الصبر على التأمل والتفكر ؛ ولذلك قال أمير المؤمنين – عليه السلام – «منزلة الصبر من الإيمان منزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لاصبر له» [٤٣] ، ثم قال «إن للمتكلمين من أهل هذه اللغة أوضاعاً ليست فى كلام غيرهم ، مثل الكيفية والكمية ، والمائية ، والكمون ، والتولد ، والجزء ، والطفرة وأشباه ذلك ، فمتى كلم به غيرهم كان المتكلم مخطئاً ومن الصواب بعيداً ، ومتى خرج عنها فى خطابهم كان فى الصناعة مقصراً ، وكذلك للمتقدمين من الفلاسفة والمنطقيين أوضاع متى استعملت مع متكلمى أهل هذا الدهر وهذه اللغة كان المستعمل لها ظالماً ، وأشبه من كلم العامة بكلام الخاصة ، والحاضرة بغريب أهل البادية ، فمن ألفاظهم السولوجسموس ، والهيولى والقاطاغورياس وأشباه ذلك مما إذا

(٤١) البيان (نقد النثر) ص : ٩٢ ، ٩٣ .
(٤٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢/ ٢١ .
(٤٣) البيان (نقد النثر) ص١١٣ .

خاطبنا به متكلمينا أوردنا على أسماعهم مالايفهمونه إلا بعد أن نفسره ، وكان ذلك عيا وسوء عبارة ووضعا للأشياء فى غير موضعها . ومتى اضطرتنا حال إلى أن نكلمهم بهذه الأشياء ، عبرنا لهم عن معانيها بألفاظ قدعهدوها ، فقلنا فى مكان السولوجسموس : القرينة ، وفى موضع الهيولى : المادة ، وفى موضع القاطاغورياس: المقولات ؛ وكذلك ما أشبهه من ألفاظ الفلاسفة .

وقد أتى فى شعر من لابس الكلام والجدل وعاشر أهلهما من ألفاظ المتكلمين ما استطرف ؛ لأنه خوطب به من يعلمه ، وكلم به من يفهمه ، فمن ذلك قول أبى نواس:

تأمل العين منها محاسنا ليس تنفد
وبعضها قد تناهى وبعضها يتولد

وقوله :

تركت منى قليلا من القليل أقلا
يكاد لايتجزا أقل فى اللفظ من لا

وقول النظام :

أفرغ من نور سمائى مصور فى جسم أنسى
وافتقر الحسن إلى حسنه فجل عن تحديد كيفى

فأما مخاطبة من لم يلابس الكلام ويعرف أوضاع أهله بألفاظ المتكلمين ، وأوضاع الجدليين ، فهو جهل من قائله وخطأ من فاعله» (٤٤) .

وهذا الكلام الذى أورده قدامة مأخوذ من كلام الجاحظ فى حديثه عن تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، بل لانكون مغالين أو مسرفين إذا قلنا إن قدامة نقل كلام الجاحظ فى هذا الموضع .

ولكى يتضح صدق هذا القول وتتميما للفائدة – أيضاً – أعرض لنص الجاحظ فى البيان والتبيين . يقول : «إن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن وبها

(٤٤) المرجع السابق ص١١٦ ، ١١٧ .

أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا : العرض ، والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك . وإنما جازت هذه الألفاظ فى صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعانى . وقد تحسن – أيضاً – ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر أبى نواس ، وفى كل ماقالوه على وجه التظرف والتملح ، كقول أبى نواس :

وذات خد مورد ... قوهية[45] المتجرد
تأمل العين منها ... محاسنا ليس تنفد
فبعضها قد تناهى ... وبعضها يتولد
والحسن فى كل عضو ... منها معاد مردد

وكقوله :

يا عاقد القلب منى ... هلا تذكرت حلا
تركت منى قليلا ... من القليل أقلا
يكاد لايتجزأ ... أقل فى اللفظ من لا[46]

والمتصفح لكتاب قدامة يجده ينطق كله بما نطق به هذان المثالان من اقتفائه لبيان الجاحظ ، وتتبعه كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالبلاغة والفصاحة فى البيان والتبيين .

وكما نلحظ هذا الأثر فى مادة الكتاب العلمية نلحظه أيضاً فى كثير من الأمثلة والشواهد التى أخذها من كتاب الجاحظ ، حتى إن دراسته للبيان وتوضيحه لمعناه جاءت كدراسة الجاحظ له بمعناه الرحب الفسيح الذى يعالج الأدب وفنونه وأقسامه ومعانيه وعناصر الجمال فيه .

* * *

---

(٤٥) القوهى والقوهية : ضرب من الثياب بيض – ينسب إلى قوهستان ، وأراد بها هنا : البيضاء .
(٤٦) انظر البيان والتبيين ١/١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

سادساً : أبوهلال العسكرى (٤٧)

يُعد أبوهلال العسكرى حلقة مهمة فى سلسلة التاريخ البلاغى الطويل ، كان لها أثرها فى بناء صرح هذا العلم ، فقد كان له اهتمام كبير بمسائل الأدب والبيان والبلاغة ، وإلمام واسع بمعظم ماقاله النقاد وأهل البيان قبله فى هذا المجال ، فأودع كتابه «الصناعتين» زبدة الكتب التى ألفت فى هذا الفن ، والتى كان لها أثرها فى نشأة البلاغة العربية .

وقد افتتح كتابه هذا بمقدمة نوه فيها بمعرفة علم البلاغة ، وأنه ضرورى لفهم إعجاز القرآن الكريم ، وللتمييز بين جيد الكلام ورديئه ، ووقوف الكاتب والشاعر على ماينبغى استخدامه من أساليب اللغة وألفاظها الجيدة الرائعة .

وعلى الرغم من أن المعرفة بهذا العلم ضرورية ؛ لارتباطها الوثيق بفهم كتاب الله وبيان إعجازه ، وأن لهذا العلم موقعه من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل وأن الحاجة إليه ماسة ، إلا أنه يرى تخليط من قبله فيما راموه من اختيار الكلام واضحاً فى مؤلفاتهم ، كما يرى أن الكتب المصنفة فى هذا العلم قليلة .

وفى هذا الصدد لاينسى أبوهلال كتاب «البيان والتبيين» وماله من فضل على هذا العلم ، فيذكره بالثناء والمدح ، ويعده من الأسس المهمة والركائز القوية التى يقوم عليها علم البلاغة ، وليس له مأخذ على هذا الكتاب إلا أن مسائل البلاغة وبحوثها متفرقة فى تضاعيفه ومبثوثة فى أثنائه ، لاتدرك بيسر وسهولة ، فيقول - وهو يتحدث عن الكتب المصنفة فى البلاغة - : «وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتبيين» لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وماحواه من أسماء الخطباء ، ومانبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن

---

(٤٧) هو : أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكرى ، ولد فى عسكر مكرم ، وهى بلدة بالأهواز ، وإليها نسبته ، وهو تلميذ أبى أحمد العسكرى ، ويقال إن أبا أحمد هذا خال أبى هلال ، وقد انتقل أبوهلال من بلده إلى بغداد ، ثم البصرة ، وتتلمذ بعد خاله على كبار علماء عصره ، كان عالماً بالفقه واللغة ، ولكن غلب عليه الأدب والشعر ، فألم بمعظم ماقاله النقاد قبله، وتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، ومن أشهر كتبه : الصناعتين ، وديوان المعانى ، وجمهرة الأمثال .

حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لاتوجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير»(٤٨) .

ويبدو من هذه العبارة أن أبا هلال أمعن النظر وأعاده فى كتاب «البيان والتبيين» حتى استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة ، غير أن هناك حقيقة لاينبغى إغفالها فى هذا المجال ، وهى أن أبا هلال كان من المهتمين بوضع الحدود وضبط الأقسام والتعاريف ، ومن ثم كان اهتمام أبى هلال بكتاب الجاحظ حيث رأى أن يقدم مايسد هذا النقص فى كتاب الجاحظ من تفرق المسائل البلاغية وتبعثرها ، فأخرج كتابه مشتملاً على جميع مايحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار (٤٩) .

وعلى الرغم من أن أبا هلال لم يؤلف كتابه على طريقة المتكلمين ، وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب إلا أنه اقتفى أثر الجاحظ فيما عرض له من أبواب الكتاب وفصوله ، واستلهمه فى كل ماساقه من ضوابط ومقاييس ، بل لانجانب الحقيقة إذا قررنا أنه كان أحد تلاميذ الجاحظ وأتباع مدرسته .

وأول مايلقانا من ذلك رأيه فى تصنيع الأدب ، فقد ذهب فيه مذهب الجاحظ ورأى أن الأدب صناعة تقوم على ضوابط ولابد للأديب شاعراً كان أو كاتباً من الوقوف على هذه الضوابط التى تقوم عليها صناعته ، وهذه الضوابط كفلها علم البلاغة . «فإذا أراد الأديب أن يصنع قصيدة ، أو ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل ، وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منثور ، أو تأليف شعر منظوم ، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له ، وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرد المرزول ، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه» (٥٠) .

والصياغة والأسلوب هى كل شئ فى العمل الأدبى ، ومجال التفاضل بين الأدباء ، فيصرح بأن : «الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير ألفاظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه أعجازه بهواديه (٥١) وموافقة مآخيره لمباديه مع قلة ضروراته ، فتجد المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعه وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه

---

(٤٨) الصناعتين ص : ١١ .
(٤٩) الصناعتين ص : ١١ .
(٥٠) المرجع السابق ص : ٨ ، ٩ .
(٥١) هواديه : أعناقه .

وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً وبالتحفظ خليقاً(٥٢) .

وهذا الرأى الذى نراه عند أبى هلال يذكرنا بكلام الجاحظ فى هذا الشأن ، بل إن أبا هلال لم يخرج فى مذهبه هذا عن الخط الذى رسمه أبوعثمان الجاحظ فى تصنيع الأدب ووسائل هذا التصنيع (٥٣) .

ويتفرع على رأيه فى تصنيع الأدب رأيه فى اللفظ والمعنى وإلى أيهما ترجع بلاغة الكلام ، فنجده يردد كلام الجاحظ ، ولايخرج عنه قدر أنملة ، فيقول : «ليس الشأن فى إيراد المعانى ؛ لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود (٥٤) النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولايقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التى تقدمت (٥٥) .

وعقد أبوهلال باباً للبلاغة ، خص الفصل الثانى منه للإبانة عن حد البلاغة ، وعندما نطالع هذا الفصل نكاد نجزم أن أبا هلال كان ينقل من بيان الجاحظ أفكاره وعباراته .

وعلى سبيل المثال – أيضاً – نراه يقول: «إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوماً واللفظ مقبولاً . ومن قال : إن البلاغة إنما هى إفهام المعنى فقط ، فقد جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة سواء . وأيضاً فلو كان الكلام الواضح السهل ، والقريب السلس الحلو بليغاً ، وما خالفه من الكلام المستبهم المستغلق والمتكلف المتعقد أيضاً بليغاً لكان كل ذلك محموداً ، وممدوحاً مقبولاً ؛ لأن البلاغة اسم يمدح به الكلام ، فلما رأينا أحدهما مستحسناً ، والآخر مستهجناً علمنا أن الذى يستحسن هو البليغ ، والذى يستهجن ليس ببليغ . وقال العتابى : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ . وإنما عنى : أن من أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة ، والعبارة النيرة فهو بليغ . ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغاً ؛ لأنه يفهمنا حاجته ، بل ويلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال ؛ لأن كل أحد لايعدم أن يدل على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته ، بل لزم أن يكون السنور بليغاً ،

---

(٥٢) الصناعتين ص : ٦١ .
(٥٣) انظر البيان والتبيين ١/١٤ ، ٢٨٧ ، ٤/٤٠ .
(٥٤) الأود : العوج .
(٥٥) الصناعتين ص : ٦٣ ، ٦٤ . وانظر البيان والتبيين ١/٧٥ ، ٧٦ .

لأنا نستدل بضغائه [٥٦] على كثير من إرادته ، وهذا ظاهر الإحالة . ونحن نفهم رطانة السوقى [٥٧] وجمجمة الأعجمى للعادة التى جرت لنا فى سماعها ، لا لأن تلك بلاغة ، ألا ترى أن الأعرابى إن سمع ذلك لم يفهمه ، إذ لاعادة له بسماعه» [٥٨] .

ولو رجعنا إلى أحاديث الجاحظ عن البلاغة ، وتوضيحه لرأى العتابى لم نجد فرقاً بين ماقاله الجاحظ فى بيانه وبين مانقله أبوهلال [٥٩] .

فتأثر أبى هلال فى كتابه ببيان الجاحظ واضح كل الوضوح – كما فى المثالين السابقين – وأن من يستعرض كتاب «الصناعتين» ويمعن النظر فيه وفيما أورده فى كل باب من أبوابه ، فإنه – حتماً – سيقطع بأن أبا هلال كان يستوحى أفكاره ومقاييسه البلاغية من بيان الجاحظ .

* * *

(٥٦) ضغاء السنور : صياحه .
(٥٧) الرطانة – بكسر الراء وفتحها – الكلام بالأعجمية .
(٥٨) الصناعتين ص : ١٦ ، ١٧ .
(٥٩) انظر البيان والتبيين ١/١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ .

سابعاً : ابن سنان الخفاجى (٦٠)

إن كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى يعد من أهم الآثار البلاغية التى لعبت دوراً مهماً فى بلورة هذا العلم وبنائه ، فهو دراسة علمية منظمة لعناصر الجمال الأدبى والاتجاه بدراسة الأدب والبيان والبلاغة اتجاهاً قاعدياً منظماً ، يدل على فكر صاحبه العميق وفهمه الواسع بجوانب هذا العلم وأهدافه ، كما يدل على عقل منظم ومنطق سديد فى تنظيم مقاييس هذا العلم ، ووضعها فى إطار واضح .

ولانسرف فى القول إذا قلنا إن كتاب ابن سنان يعد إلى حد كبير نواة المنهج القاعدى الذى أخذ به البلاغيون بعده من أمثال أبى يعقوب السكاكى والخطيب القزوينى .

وفى مقدمة الكتاب نرى ابن سنان ينوه بفائدة الوقوف على علم البلاغة لمعرفة نظم الكلام ونقده وتبين خصائصه الجيدة والرديئة ، وفى معرفة بلاغة القرآن الكريم ، سواء من يرى أنها كانت فوق طاقة العرب وقدرتهم ، أو أنها كانت فى مقدورهم وأن الله صرفهم عنها (٦١) .

ويذكر ابن سنان أنه ألف كتابه لما رأى الناس مختلفين فى الفصاحة وحقيقتها ومايتصل بها ، وأنه لاغنى لمن ينتحل الأدب عن دراسة الفصاحة على النحو الذى اهتدى إليه فى كتابه ، وكذلك العلوم الشرعية ، ولأن المعجز الدال على نبوة محمد – ﷺ – هو القرآن الكريم ، ولاسبيل للوصول إلى هذا الإعجاز إلا بمعرفة قواعد هذا العلم وقوانينه (٦٢) .

وقد اهتم ابن سنان فى كتابه بتفسير الفصاحة ومايتصل بها من الصور البيانية والبلاغية ، ونكاد نحس لأول وهلة صلته فى كتابه بالمعتزلة ومعالجتهم للقضايا البلاغية ومسائلها ، وبالأخص صلته القوية بالجاحظ وبيانه .

---

(٦٠) هو : الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى ، ولد سنة ٤٢٢هـ، كان عالماً شاعراً أديباً ، أخذ العلم والأدب على علماء عصره ، وتتلمذ على أبى العلاء المعرى ، فأخذ عنه علمه وأدبه وفلسفته ، وقد تولى بعض أعمال الدولة حتى ثار عليه بعض مناوئيه فقتلوه مسموماً سنة ٤٦٦هـ . ومن أهم آثاره كتابه : سر الفصاحة .

(٦١) سر الفصاحة ص ٣ ، ٤ .

(٦٢) المرجع السابق – الموضع السابق .

فأول مايلقانا فى الكتاب غيرته الشديدة على العرب وبيانهم ، فهو يرى ألاخفاء بميزات اللغة العربية على سائر اللغات ، أما السعة فالأمر فيها واضح ، ومن يتتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهى لغة العرب فى كثرة الأسماء للمسمى الواحد ، وهى مع السعة والكثرة أخصر اللغات فى إيصال المعانى ، وفى النقل إليها يبين ذلك ، فليس كل كلام ينقل إلى لغة العرب ألا ويجئ الثانى أخصر من الأول ، مع سلامة المعانى وبقائها على حالها ، وهذه – بلا شك – فضيلة مشهورة وميزة كبيرة ؛ لأن الغرض فى الكلام ووضع اللغات بيان المعانى وكشفها (٦٣) .

وهذه الغيرة الشديدة عند ابن سنان سبق أن رأيناها عند الجاحظ حين قرر أن «البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان»(٦٤) وحين دافع دفاعاً قوياً عن لغة العرب وبيانهم ضد الشعوبيين (٦٥) . وحين قرر – أيضاً – أن «كل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولامكابدة ، ولاإجالة فكر ولااستعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً من غير تكلف ولاقصد ، ولاتحفظ ولاطلب» (٦٦) .

وقبل أن يبدأ ابن سنان حديثه عن الفصاحة يعتبر بأن الحديث عنها قد أعيا أبا عثمان الجاحظ ، وكان سابقاً فى معالجته لهذا الموضوع .

فيقول : «أقول قبل كلامى فى الفصاحة وبيانها إننى لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة والمطبوعين على فهمها ونقدها ، مع كثرة من يدعى ذلك ويتحلى به وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجلس ، ويجارى أربابه فى المحافل ، وقد كنت أظن أن هذا شئ مقصور على زماننا اليوم ، ومعروف فى بلادنا هذه ، حتى وجدت هذا الداء قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله» (٦٧) .

وهذا تصريح واضح من ابن سنان على اطلاعه على بيان الجاحظ ، واهتمامه به ، وهضمه إياه ، قبل أن يخط كلمة فى كتابه حول هذا الموضوع الذى عالجه الجاحظ قبله وقبل الآمدى . حتى إذا أخذ فى كتابة موضوعاته ومسائله البلاغية التى

---

(٦٣) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ .
(٦٤) البيان والتبيين ٤/٥٥ ، ٥٦ .
(٦٥) انظر البيان والتبيين ٣/٦ ومابعدها .
(٦٦) المرجع السابق ٣/٢٨ ، ٢٩ .
(٦٧) سر الفصاحة ص٦٥ .

ضمنها كتابه كان أبوعثمان دليله فى معظم أبواب الكتاب .

ونسوق بعض الأمثلة من كتاب ابن سنان لنبرهن على أنه كان يهتدى بآراء الجاحظ وما أثاره فى بيانه من مسائل البلاغة والفصاحة .

ففى حديثه عن شروط الفصاحة فى الكلمة المفردة لاينسى حديث الجاحظ عن فصاحة المفرد ، فنراه يأخذ منه شرطين من هذه الشروط ، ويصرح بهذا الأخذ ، فيقول فى الشرط الثالث : «أن تكون الكلمة – كما قال أبوعثمان الجاحظ – غير متوعرة وحشية ، كقول أبى تمام .

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه بـلا طائر سـعد ولاطـائر كـهل

فإن كهلاً هاهنا من غريب اللغة ، وقد روى أن الأصمعى لم يعرف هذه الكلمة، ومن ذلك – أيضاً – مايروى عن أبى علقمة النحوى من قوله : «مالكم تتكأكئون على تكأكئكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى» فإن تتكأكئون وافرنقعوا وحشى» (٦٨) .

ثم يقول : «والرابع . أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية ، كما قال أبوعثمان أيضاً ، ومثال الكلمة العامية قول أبى تمام :

جليت والموت مبد حر صفحته وقــد تفرعن فــى أفعاله الأجل

فإن تفرعن مشتق من اسم فرعون ، وهو من ألفاظ العامة ، وعاداتهم أن يقولوا: «تفرعن فلان إذا وصفوه بالجبرية» (٦٩) .

وفى حديثه عن التعقيد والتعمية فى الكلام يسوق الأمثلة الكثيرة للكلام المعقد المعمى ، وينقل ماقاله بشر بن المعتمر فى صحيفته – التى رواها الجاحظ فى بيانه – وهو قوله : «إياك والتوعر فى الكلام فإنه يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويمنعك من مراميك» ، ثم يقول : «وحكى أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن بعض من وصف البلاغة فقال : «ينبغى أن يكون الاسم للمعنى طبقاً ، وتلك الحال وفقاً ، ولايكون الاسم فاضلاً ولامقصراً ، ولامشتركاً ولامضمناً» (٧٠) .

وفى حديثه عن المطابقة ووضع الألفاظ مواضعها نراه لايهتدى – فقط – بما

(٦٨) المرجع السابق ص٦٩ ، ٧٠ وانظر البيان والتبيين ١/١٣٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(٦٩) سر الفصاحة ص٧٨ ، وانظر البيان والتبيين ١/١٣٧ .
(٧٠) المرجع السابق ص٢٦٩ ، ٢٧٠ ، وانظر البيان والتبيين ١/٩٢ ، ٩٣ .

كتبه الجاحظ فى بيانه ، بل يسترشد بتطبيقه العملى لمعنى المطابقة ، ومسلكه فى التأليف .

فيصرح بقوله : «ومن وضع الألفاظ موضعها ألايستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة، وبهذا شرف كلام أبى عثمان الجاحظ ، وذلك أنه إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتاب، وإذا صنف فى الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، فكأنه فى كل علم يخوض فيه لايعرف سواه ولايحسن غيره . ومما يذكر من هذا النوع فى استعمال ألفاظ المتكلمين قول أبى تمام :

مودة ذهب أثمارها شبه (٧١) وهمة جوهر معروفها عرض

لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم . ومن ألفاظ النحويين قوله أيضاً :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلعب الأفعال بالأسماء» (٧٢)

وهكذا لو تتبعنا كتاب ابن سنان بابا بابا وفصلاً فصلاً لوجدنا أثر الجاحظ على ابن سنان فى كل باب وفى كل فصل ، مما يجعلنا نقطع بأن الجاحظ كان قبلة فى مسائل البيان والبلاغة قصدها ابن سنان وهو يؤلف كتابه .

* * *

(٧١) الذهب : المعدن النفيس المعروف ، الشبه : النحاس .
(٧٢) سر الفصاحة ص١٩٥ ، ١٩٦ .

ثامناً : عبدالقاهر الجرجانى (٧٣)

يُعد الإمام عبدالقاهر الجرجانى شخصية فذة ، لها أثرها على الثقافة العربية ، وعلماً بارزاً من أعلام البلاغة ، كان لجهوده الموفقة أثر كبير فى تطوير هذا العلم والنهوض به ، مما يجعلنى أقف معه وقفة متأنية ، أبرز فيها مكانته وفضله على هذا العلم ، ومدى تأثره بالجاحظ ومواطن هذا التأثر .

عكف عبدالقاهر على ماخلفه المؤلفون قبله من تراث أدبى ونقدى وبلاغى وهضمه هضماً جيداً ، كما كانت له ثقافته النحوية ، وطول باعه فى هذا العلم ، فقرأ فى النحو للخليل، وسيبويه، والزجاج، وثعلب، وأبى على الفارسى، وابن جنى، وغيرهم من أعلام النحو ، كما قرأ فى النقد والبلاغة للجاحظ وابن قتيبة والمبرد ، وثعلب ، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبى هلال العسكرى، والقاضى الجرجانى وغيرهم .

ويظهر أن الإمام عبدالقاهر مع شهرته فى النحو وكثرة مصنفاته فيه لم يكن له فيه أثر كبير ، ولكنه – بلاشك – أفاد من دراسته للنحو تلك الفكرة التى كان لها أكبر الأثر فى النهوض بعلم البلاغة ، بل كانت نقطة تحول فى تاريخ هذا العلم ، وهى فكرة النظم ، التى شرحها ودافع عنها ، وأقام عليها الأدلة والبراهين ، ومثل لها بروائع الأمثلة .

ومن هنا جاءت شهرة عبدالقاهر ، فشهرته وذيوع صيته فى ميدان البلاغة تفوق بكثير – شهرته فى ميدان النحو ، ومكانته فى تاريخ هذا العلم مكانة كبيرة ، فقد قدم لنا جهداً بلاغياً له قيمته التى لاتجحد أودعه كتابيه : «دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة» .

---

(٧٣) هو : أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى ، فارسى الأصل ، جرجانى النشأة، ولد حوالى سنة ٣٧٧هـ ، وتتلمذ بجرجان على يد الشيخ أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ، نزيل بجرجان ، ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى ، الإمام النحوى المشهور ، فأخذ عنه النحو ، وقرأ عليه إيضاح أبى على ، وتتلمذ بعد ذلك على الكتب ، فعكف على التراث النحوى والبلاغى والنقدى قبله وهضمه وتمثله وقرأ أيضاً الكثير من دواوين الشعر ، وانعكس كل ذلك واضحاً على كتاباته ، واشتهر بإمامته فى النحو والبلاغة ، وتوفى عام ٤٧١هـ . ومن أهم مؤلفاته النحوية : المغنى والعوامل المائة والجمل ، وخلف فى البلاغة كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

وهذا الجهد الذى قدمه عبدالقاهر فى كتابيه يمثل مرحلة النضج والرشد الفكرى فى الدراسات البلاغية ، فقد استطاع أن يضع نظريتى المعانى والبيان وضعاً دقيقاً .

وفلسفته البيانية فى دلائل الإعجاز – والذى عالج فيه نظرية المعانى – تقوم على فكرة النظم الذى عرفه بأنه : «توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام» (٧٤) .

وقد بسط هذه القضية فى كتابه بسطاً وافياً يقوم على تصور كامل ، وفهم دقيق لمرامى هذا العلم وأهدافه كما يدل على إدراكه التام لقيمته فى صناعة الكلام ونقده ، وتفهم إعجاز القرآن الكريم ، والبصر بأسراره ولطائفه .

فنراه يصور فى مقدمة كتابه مدى إدراك طائفة من أهل عصره للبلاغة ، وتصورهم الفاسد لها ، وأنهم يقفون بها عند حد السلامة النحوية واللغوية ، ولايدركون أن لصياغة الكلام على نحو خاص أسرار يجب أن يبحث عنها ، فيقول : «إنك لاترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأسبق فرعاً ، وأحلى جنى ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً ، وأنور سراجاً من علم البيان ، الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد (٧٥) ، ويريك بدائع من الزهر ... إلى فوائد لايدركها الإحصاء ، ومحاسن لايحصرها الاستقصاء ، إلا أنك لن ترى – على ذلك – علماً قد لقى من الضيم مالقيه ، ومنى من الحيف (٧٦) مامنى به ، ودخل على الناس من الغلط فى معناه مادخل عليهم فيه ، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وظنون رديئة ، وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش ، ترى كثيراً منهم لايرى له معنى أكثر مما يرى الإشارة بالرأس والعين ، ومايجده للخط والعقد (٧٧) ... يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلايعرف لها معنى سوى الإطناب فى القول ، وأن يكون المتكلم فى ذلك جهير الصوت ، جارى اللسان ، لاتعترضه لكنة (٧٨) ، ولاتقف به حبسة ، وأن يستعمل اللفظ الغريب والكلمة الوحشية ، فإن استظهر للأمر وبالغ فى النظر فإن لايلحن ، فيرفع فى موضع النصب ، أو يخطئ فيجئ باللفظة على غير ماهى عليه فى الوضع اللغوى ، وعلى خلاف ماثبتت به الرواية عن العرب .

---

(٧٤) دلائل الإعجاز ص٦٤ بتصرف .
(٧٥) يقرى الشهد : يجمعه .
(٧٦) الحيف : الظلم .
(٧٧) العقد : التفاهم بنقد الأصابع .
(٧٨) اللكنة : العى وثقل اللسان .

وجملة الأمر أنه لايرى النقص يدخل على صاحبه فى ذلك إلا من جهة نقصه فى علم اللغة ، لايعلم أن ههنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب فى أن عرضت المزية فى الكلام ، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً ، وأن يبعد الشأو [٧٩] فى ذلك ، وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ، ويعز المطلب ، حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج عن طوق البشر [٨٠] .

ويمكن من خلال هذا النص الذى قدم به عبدالقاهر كتابه «دلائل الإعجاز» أن نعرف هدفه ، وأن نعرف – أيضاً – دقته فى فهم القضية التى أدار حولها كتابه – أعنى قضية النظم – ، وقد كان إعجاز القرآن الكريم من أهم الدوافع التى حفزته إلى معرفة أسرار البلاغة ، وليس لإعجاز القرآن – عنده – وجه إلا بلاغته وفصاحته .

وبهذا الهدف ، وتلك الغاية مضى عبدالقاهر يشرح القضية فى كتابه شرحاً وافياً يدل على فهم كامل وذوق رفيع ، وقد عرض فى شرحه لهذه القضية كثيراً من المسائل والأبواب التى عدت – فيما بعد – أمهات وأبواب علم المعانى .

أما نظرية البيان فقد قدمها لنا فى كتابه «أسرار البلاغة» الذى عالج فيه أبواب ومسائل البيان وهى : الحقيقة، والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، والكناية، والتعريض . .

ويمتاز أسلوب عبدالقاهر فى عرضه للمسائل البلاغية – فى كتابيه – بأنه أسلوب تحليلى يقوم على البحث العميق والاستقصاء الدقيق ، والفلسفة الواعية لكل فن من الفنون البلاغية ، وأثرها فى الأعمال الأدبية ، مبيناً عيوبها ومحاسنها ، رابطاً إياها ربطاً وثيقاً بالدراسات النفسية والجمالية .

وعبدالقاهر – فى دراسته لهذه الفنون – لم يفصلها عن حقلها الأصيل ، وهو الأدب ، ولكنه ربطها ربطاً وثيقاً بالنصوص الأدبية شعرها ونثرها ، وإن كان لم يهمل القاعدة التى اتخذها أساساً لبحوثه ودراساته المنهجية المنظمة إلى حد كبير .

وليس هنا مجال لإبراز الجهد البلاغى الضخم الذى قدمه لنا فى كتابه ، فقد أفردت فيه المؤلفات والبحوث والرسائل ، ولكن أشير – فقط – إلى أن عبدالقاهر –

---

(٧٩) الشأو : الغاية والهدف .

(٨٠) دلائل الإعجاز ص١٣ ومابعدها .

بهذا الجهد الكبير – ذهبت شهرته بين البلاغيين على أنه رجل البلاغة وقطبها ، وأنه هو الذى فتق أكمامها ، بل عده كثير من الكاتبين والباحثين فى ميدان البلاغة واضع هذا العلم ومؤسسه . فيقول يحيى بن حمزة العلوى (ت٧٤٩هـ) : «إن عبدالقاهر أول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه ، ورتب أفانينه ، وفتح أزهاره من أكمامها ، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها ، بكتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة» (٨١) .

وإذا كان عبدالقاهر قد احتل هذه المكانة بين حلقات التاريخ البلاغى ، حتى عد واضع هذا العلم ، فإنه قد تتلمذ على قطب البلاغة الأول أبى عثمان الجاحظ ، وعكف على بيانه عكوفاً طويلاً يستمد منه أفكاره البلاغية ، فتأثر به تأثراً واضحاً نلمسه فى عرضه للمسائل البلاغية ومعالجته لها فى كتابيه .

إن من يطلع على «دلائل الإعجاز» أو «أسرار البلاغة» يدرك – بأدنى تأمل أن عبدالقاهر أدام النظر فى بيان الجاحظ ، وكان أبوعثمان هادياً له فى كثير من القضايا والمسائل البلاغية ، بل ونقل عنه مصرحاً باسمه واسم بيانه .

وأول مايلقانا من ذلك – فى كتابه «دلائل الإعجاز» – تأثره به فى معرض حديثه عن الفصاحة ، فبعد أن يتحدث عن الفصاحة حديثاً طويلاً ، يعرض لشبهة ، وهى : «أن يدعى أن لامعنى للفصاحة حديثاً طويلاً ، يعرض لشبهة ، وهى : «أن يدعى أن لامعنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظى وتعديل مزاج الحروف ، حتى لايتلاقى فى النطق حروف تثقل على اللسان ، كالذى أنشده الجاحظ من قول الشاعر:

لا أذيل الآمال بعدك إنى ... بعدها بالآمال جد بخيل (٨٢)

كم لها موقف بباب صديق ... رجعت عن نداه بالتعطيل (٨٣)

لم يضرها والحمد لله شئ ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول (٨٤)

ويتابع عبدالقاهر نقله من الجاحظ ، فيقول : «فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض» (٨٥) .

---

(٨١) الطراز ٤/١ .

(٨٢) لا أذيل الآمال ، لا أهينها .

(٨٣) التعطيل : الخلو من الفائدة .

(٨٤) عزف النفس : انصرافها عن الشئ زهداً .

(٨٥) دلائل الإعجاز ص٤٨ ، ٤٩ ، وانظر البيان والتبيين ٦٥/١ ، ٦٦ .

فنراه فى هذا النقل يسترشد برأى الجاحظ فى جانب من جوانب فصاحة الكلام، وهو كون الكلام خالياً من التنافر، بل وتراه - أيضاً - ينقل أمثلة الجاحظ وشواهده فى هذا الموضع .

وحين يتحدث عن حذف المفعول به يبين حسن ذلك الحذف وروعته فى قول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ... دد والمجد والمكارم مثلا

فالمعنى قد طلبنا لك مثلا ، ثم حذف لأن ذكره فى الثانى يدل عليه ، ثم إن فى المجئ به كذلك من الحسن والمزية والروعة مالايخفى .. لأن الأصل فى المدح والغرض بالحقيقة هو نفى الوجود عن المثل ، فأما الطلب فكالشئ يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره ، وإذا كان هذا كذلك فلو أنه قال : قد طلبنا لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثلاً فلم نجده لكان يكون قد ترك أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل وأوقعه على ضميره ، ولن تبلغ الكناية مبلغ الصريح أبداً» (٨٦) .

ويوضح كلامه هذا ويؤكده بما سبق أن أشرنا إليه من كلام الجاحظ فى الكناية والإفصاح ، وأن الأمر فيهما - عنده - يدور على المطابقة ، فيقول عبدالقاهر : «ويبين هذا كلام ذكره أبوعثمان الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين» ، وأنا أكتب لك الفصل حتى يستبين الذى هو المراد ، قال : «والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب ، ألا ترى أن قيس بن خارجة لما ضرب بسيفه مؤخرة راحلة الحاملين فى شأن حمالة داحس ، وقال مالى فيها أيها العشمتان ، قالا : بل ماعندك ، فقال : عندى قرى كل نازل ورضى كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع ، قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد كلمة ولامعنى ، فقيل لأبى يعقوب : هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ، أو ليس الأمر بالصلة هو النهى عن القطيعة ؟ قال : أو ما علمت أن الكناية والتعريض لايعملان فى العقول عمل الإيضاح والكشف» (٨٧) .

فهذه قضية تحدث فيها عبدالقاهر ، ثم رجع إلى أستاذه الجاحظ يعتمد عليه فيما قرره فيها ، ملتمساً منه البرهان والدليل .

وفى حديثه عن المعاظلة واستعمال الغريب يوضح عبدالقاهر أن الغريب

---

(٨٦) دلائل الإعجاز ص١٢٠ .

(٨٧) المرجع السابق ص١٢٠ ، ١٢١ . وانظر البيان والتبيين ١/١١٧ ، ١١٨ .

مذموم» ينبغى تجنبه ، ويتعجب من أن الغريب يدخل فى باب الفضيلة ، وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يرون الفضيلة فى ترك استعماله وتحاشيه . ثم يرجع إلى الجاحظ ، فينقل عنه كثيراً مما أثاره فى هذا الباب . فيقول : «قال الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين» : ورأيت الناس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر عن لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج (إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة بعراعر الأودية ، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعرعرة الجبل وبات العدو بحضيضه) فقال الحجاج : مايزيد بأبى عذر هذا الكلام ، فحمل إليه فقال: أين ولدت ، فقال : بالأهواز فقال : فأنى لك هذه الفصاحة؟ فقال : أخذتها عن أبى . قال : ورأيتهم يديرون فى كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مراراً ، فقال له يحيى : أأن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها ؟ ثم قال : وإن كانوا قد رووا هذا الكلام لكى يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة البلاغة» (٨٨) .

فهذه الأمثلة – وغيرها كثير – تدل على أن الإمام عبدالقاهر اهتدى بآراء الجاحظ واقتبس منه الكثير ، واقتفى أثره فى كثير مما عرضه من المسائل البلاغية .

ومما هو جدير بالذكر أن تأثر عبدالقاهر ببيان الجاحظ لم يقف عند حد الاقتفاء والمتابعة ، بل إن أثر الجاحظ عليه امتد إلى مايشبه مخالفته له فى بعض المسائل .

وأوضح مثل لذلك حديثه عن اللفظ والمعنى ، وإلى أيهما ترجع البلاغة ؟ فقد أخذ عبدالقاهر على أستاذه الجاحظ إهماله جانب المعانى وجعلها مطروحة فى الطريق يستوى فيها كل الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، ومن ثم فقد أخذ عبدالقاهر يدافع عن المعانى ، ويورد كثيراً من النصوص التى توهم انتصار الجاحظ للألفاظ وإطراحه المعانى ، ثم يأخذ فى الرد عليها مشيداً بالمعانى ومالها من أثر فى بلاغة الكلام (٨٩) .

ومما لايفوتنا فى هذا المقام أن ننبه إلى أن هذا الذى يبدو وكأنه خلاف بين الجاحظ وعبدالقاهر حول قضية اللفظ والمعنى إنما هو فى ظاهر الأمر فقط ، وعند التحقيق نجد أنه لاخلاف بين الرجلين ، فالجاحظ – كما أسلفنا القول فى ذلك – لما وجد اهتمام الأدباء فى عصره بالمعانى وإهمالهم الألفاظ أراد أن يرفع من شأنها ويبين أثرها فى بلاغة الكلام وارتفاع شأنه . وعبدالقاهر عندما أشاد بالمعانى فإنما عنى بها المعانى الثانوية ، وهى الخصائص واللطائف التى تستفاد من اللفظ عند

(٨٨) دلائل الإعجاز ص٢٦٢ . وانظر البيان والتبيين ٣٧٨/١ ، ٣٧٩ .

(٨٩) انظر دلائل الإعجاز ص : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ على سبيل المثال . وانظر المبحث الخاص باللفظ والمعنى فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

التركيب ، وعندما أهمل جانب الألفاظ فإنما على الألفاظ المفردة والكلمات المجردة من غير اعتبار تركيبها وتأليفها ، فلاخلاف – فى الحقيقة – بين الجاحظ وعبدالقاهر حول هذه القضية .

فإذا انتقلنا إلى «أسرار البلاغة» الذى عالج فيه نظرية البيان نجد تأثر عبدالقاهر ببيان الجاحظ واضحاً كل الوضوح .

فأول مانجده فى مقدمة الكتاب حيث نجد روح الجاحظ تتجلى فى إبرازه فضيلة البيان ، وأن المزية تعود إلى التأليف ، فالكلام لايفيد إلا بالتأليف (٩٠) .

ونراه وهو يتحدث عن السجع لايقبل إلا ماجاء مطبوعاً ، لا استكراه فيه ولابعد، وهى فكرة استمدها من الجاحظ مصرحاً بذلك فى قوله «لاتجد سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه .. ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء بقوله : حلأت ركابى ، وشققت ثيابى ، وضربه صحابى ، ودفعت أبلى من الماء والكلأ ، فقال له العامل : وتسجع أيضاً ؟ إنكار العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ وذاك إنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلاً بمعنى أو محدثاً فى الكلام استكراهاً ، أو خارجاً إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه ، وقال الجاحظ : لأنه لو قال : حلأت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعراتى أو صرمتى (٩١) ، لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى»(٩٢) .

ولو أردنا أن نتتبع الجاحظ وأثره على الأبواب والمسائل التى عرضها عبدالقاهر فى «أسرار البلاغة» لطال بنا القول وتشعب ، ولكن أستطيع أن أقرر أن الكتاب كله ينطق بروح الجاحظ وأثر بيانه مما يجعلنى أجزم بأن من يتفصح الأسرار سيدرك – بأدنى سهولة – أن عبدالقاهر تأثر إلى حد بعيد ببيان الجاحظ وفكره وعرضه للمسائل البلاغية .

هذا عرض موجز لبيان أثر «البيان والتبيين» على هؤلاء الأقدمين الذين قدموا جهوداً خصبة كان لها دورها البارز فى تاريخ علوم البلاغة .

---

(٩٠) انظر أسرار البلاغة ٩٥/١ ومابعدها ، والبيان والتبيين ٨/١ ، ٧٥ .
(٩١) الصرمة : الجماعة من الإبل فوق العشر إلى الأربعين ، وقيل مابين الثلاثين إلى الأربعين .
(٩٢) انظر أسرار البلاغة ١٠٢/١ ، ١٠٥ .

وإذا كان المتأخرون من علماء البلاغة ، أمثال أبى يعقوب السكاكى (ت٦٢٦هـ) ، والخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ) وسعد الدين التفتازانى (ت٧٩٢هـ) وغيرهم قد تتلمذوا على مصنفات هؤلاء المتقدمين ، وتربوا على موائدهم البلاغية فإننا ندرك إلى أى حد تتلمذ هؤلاء المتأخرون على آراء الجاحظ ومقاييسه البلاغية ، هذا فضلاً عن إفادتهم من بيان الجاحظ وتأثرهم به بطريق مباشر ، فقد أدمنو النظر فى الكتاب ، وانتفعوا بآرائه البلاغية ، وتأثروا به تأثراً نلمسه واضحاً فى مؤلفاتهم البلاغية .

* * *



الفصل الثانى

الجاحظ أول مؤسس لعلم البلاغة

تتبعنا فى الباب الثانى من هذا الكتاب تاريخ علم البلاغة والأطوار التى مر بها قبل الجاحظ ، ورأينا كيف كان هذا العلم نتفاً مبعثرة فى بطون الكتب التى صنفت فى شتى فروع الثقافة الدينية والعربية ، من كتب التفسير والحديث وعلم الكلام ، واللغة والنحو والأدب وغيرها .

ثم رأينا فى الباب الثالث الدور البلاغى المهم الذى لعبه أبوعثمان فى تاريخ هذا العلم وقدمه فى كتابه «البيان والتبيين» ، وعرفنا أنه دور يمثل حلقة مهمة مستقلة فى سلسلة التاريخ البلاغى ، حيث جمع فى هذا الكتاب الكثير من الملاحظات والآراء المبعثرة فى بطون الكتب ، وأضاف إليها من عقله وفكره ، وحاول أن يضع ضوابط ومفاهيم للكثير من هذه الآراء .

ثم أدركنا فى الفصل السابق فضل الجاحظ وأثره على ميدان التأليف البلاغى بعده ، وكيف أصبح كتابه قبلة يؤمها كل من يتعرض لفنون البلاغة ومسائلها ، مهما تعددت أغراضهم واختلفت مقاصدهم .

وإذا كان كتاب الجاحظ يعد دائرة معارف واسعة حوت كثيراً من ألوان الثقافات التى تتصل بالأدب وفنونه وأعلامه ، إلا أن فضل الجاحظ يبرز ويكبر – فى هذا الكتاب – فى أنه قدم لنا فيه أول دراسة مستوعبة واعية فى البيان العربى ، ومايرتبط به من ضوابط ومقاييس بلاغية ، بل إنه قدم لنا أول مؤلف يحمل اسم البيان صريحاً.

والبيان الذى عرض له الجاحظ – فى كتابه – وأدار مسائله حوله ، يقوم – كما أوضحنا من قبل – على اللسان الذى هو أداة الفصاحة والبيان ، وكان اهتمامه بهذا البيان اهتماماً يدل على إدراكه قيمة اللسان وتعبيره عما فى النفس ، فقد وصفه بما يحله المحل الرفيع ، ويبرز مكانته عنده ، بقوله : «هو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وحاكم يفصل الخطاب ، وناطق يرد الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومعز يرد الأحزان ، ومعتذر يدفع الضغينة ، ومله يونق الأسماع ، وزارع يحرث المودة ، وحاصد يستأصل

العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومادح يستحق الزلفة ، ومؤنس يذهب الوحشة» (١).

فهو – بإدراكه للبيان وفهمه وظيفة اللسان وعمق أثرهما وخطرهما فى التأثير على النفوس والأخذ بألباب السامعين – قدم لنا فى كتابه مايكفل لهذا البيان روعته وجماله ، ومايؤدى به اللسان وظيفته على أكمل وجه وأبلغه ، فعرض هذه المقاييس والضوابط البلاغية التى نثرها فى كتابه . وقمنا بجمعها وتوضيحها فى الباب الثالث.

إن من يقف على هذه المقاييس التى أحصاها الجاحظ فى «البيان والتبيين» يستطيع أن يدرك الأسلوب الذى عرض به هذه المصطلحات ، سواء ما اهتدى إليه بعقله وتقديره ، أو مانقله عن غيره من العلماء والرواة .

وهذا الأسلوب يتلخص فى عرضه لهذه المصطلحات والمسائل البلاغية عرضاً أدبياً يميل إلى جانب الذوق ، مستلهماً منه الضوابط والمقاييس التى حاول أن يصل إليها فى كتابه .

إن الجاحظ بما قدمه – فى كتابه – من مقاييس وأصول تتصل بالبلاغة والبيان أمام فذ من أئمة البيان العربى ، بل هو المؤسس الأول لعلم البلاغة بلا منازع.

وليس فى هذا القول ضرب من المبالغة أو الإسراف ، فكتاب الجاحظ هو أول مؤلف جمع فيه صاحبه تصور العرب وغيرهم للبيان والبلاغة والفصاحة ، ومايتصل بها منذ العصر الجاهلى حتى عصره – أعنى منتصف القرن الثالث الهجرى – وقدم لنا صورة مجملة لنشأة البلاغة العربية .

فمن يقرأ «البيان والتبيين» ويمعن النظر فيه يجد أن الجاحظ قدم فى كتابه تصور العرب وغيرهم فى بيئات متعددة وعصور مختلفة ، وأوضح فكرة هؤلاء – جميعاً – وتصورهم للبلاغة والبيان .

فالكتاب يضم بين دفتيه التصورات التالية :

(١) تصور الجاهليين للبيان وصناعة الكلام ، ونظرتهم الحية للضوابط التى ترقى بها هذه الصناعة ، وأنهم حاولوا أن يخضعوا هذه الصناعة لآراء وملاحظات فى صورة نقد يطلقونه على الأعمال الأدبية التى كانوا يعرفونها من شعر وخطابة وغيرهما ، وأن هذا النقد كان سديداً فى أغلب الأحوال ، ومنه ماكان مختصراً ذاتياً ، ومنه ماكان موضوعياً يمتد بعد الحكم على النصوص إلى العلل والأسباب التى تقوم عليها هذه الأحكام ، وهو فى كل ذلك يعتمد على أساس متين من

(١) تاريخ بغداد ٢١٨/١٢ .

الفهم الدقيق والذوق الراسخ الأصيل .

واستطاع الجاهليون – من خلال هذه الملاحظات والآراء التى نقدوا بها أعمال الأدباء – أن يقفوا على ضوابط كثيرة تقوم عليها صناعة الكلام ، وتتضح فى عقولهم، واستطاعوا – أيضاً – أن يكتشفوا عيوباً فنية فى تأليف الكلام شعره ونثره ، وينبهوا إليها ، فوضعوا كثيراً من النصائح التى تفيد كلا من الشاعر والخطيب فى صناعته ، كمراعاة مقتضى المقام والحال من إيجاز وإطناب أو ذكر وحذف ، أو جودة التشبيه أو الكناية عن الشئ والإفصاح عن شئ آخر ، إلى غير ذلك من المسائل والضوابط التى وضحت فى عقول الجاهليين ، ونقلها لنا تراثهم النقدى ، وصورها لنا الجاحظ متفرقة ومنثورة فى كتابه .

ونرى هذا التصور – على الرغم من تفرقه فى الكتاب – واضحاً فيما نقله ورواه عنهم ، كقوله : «وصف أعرابى أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال : «كان والله يضع الهناء مواضع النقب ، ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: فلان يفل المحز ، ويصيب المفصل ، وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق ، فجعلوه مثلاً للمصيب الموجز» (٢) .

ومثل هذا كثير فى الكتاب ، وكله يصور لنا ماكان عليه الجاهليون من اهتمام بصناعة الكلام التى لايجيدون غيرها ، وحرصهم على الإجادة فيها ، وأنهم فى سبيل ذلك أبدوا ملاحظاتهم وآراءهم على شعر الشعراء وخطب الخطباء ونقدوها وأبرزوا فى ثنايا ذلك كله كثيراً من الأصول والأسس التى عدت – فيما بعد – جذوراً قام عليها علم البلاغة .

(٢) تصور العرب للبيان وأثره ووظيفته فى القرن الأول الهجرى ، وبعد أن أشرقت شمس الإسلام على عقولهم ، وكيف أصبح للدين الجديد أثره الواضح عليهم ، فغيروا نظرتهم للأدب وأهدافه ، وتغيرت موازينهم النقدية ، وكيف نظروا فى أسلوب القرآن الكريم وحاولوا محاكاتها ، واقتباس الكثير منها فيما ينشدون من شعر أو يلقون من خطب ، «فقد كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل، وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة ، وسلس الموقع» (٣) .

وعمر – رضى الله عنه – كان يقول «مايتصعدنى كلام كما تتصعدنى

---

(٢) البيان والتبيين ١٠٧/١ .

(٣) المرجى السابق ١١٨/١ .

خطبة النكاح» ، فعمر - رحمه الله - وأشباهه من الأئمة الراشدين لم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح» (٤) .

كما قدم لنا تصور المسلمين فى العهد الأول لكثير من المسائل التى تتصل بضوابط البيان وأسسه ورأيهم فى هذه الأسس ، فقد مر بنا تصورهم لمعنى التكلف فى القول فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٥) ، وكيف كان الرسول - ﷺ - ينهى عن التشادق والتقعير والتعقيد (٦) .

كما صور لنا اهتمام القرآن الكريم بالبيان ، وإشادته بهذه النعمة العظيمة ، وإعطائها أنبياءه - عليهم السلام - وأن الله تعالى برأ موسى - عليه السلام - من عيب الحبسة والعى ، وخص محمداً - ﷺ - بجوامع الكلم (٧) .

إلى غير ذلك من الأمثلة المتفرقة التى توضح تصور المسلمين فى عهدهم الأول للبيان ، وإحساسهم بفضله وقيمته ، والضوابط الجديدة التى نظروا من خلالها إلى هذه الصناعة بهدى من القرآن الكريم وتوجيه النبى ﷺ .

(٣) نظرة العرب للبيان وغايته منذ القرن الثانى الهجرى ، فقد بدأوا يهتمون بهذا البيان ويعنون به عناية شديدة ، حتى أصبح - فى تصورهم - صناعة يعملون على إجادتها ، والبعد عن كل مايلحق عيباً بها ، وكان الفضل فى ذلك للعلوم التى بدأت نواتها توضع فى هذا العصر ، كعلم اللغة والنحو والحديث والفقه والمغازى وغيرها ، فقد كان العلماء يغشون المساجد لتدريس هذه العلوم ، فبدأ البحث والنظر فيما يهم العبارة ، ويعمل على جودتها أو يتصل باللغة ، أو يرتبط بتوضيح نص قرآنى أو حديث نبوى شريف .

وقد كان العلماء - أنفسهم - يجتهدون فى تنقيح العبارة ، والبحث عن كل مايضفى على كلامهم رونقاً وحلاوة ، ويخلب ألباب السامعين ، ويفتشون عن أسرار التراكيب التى يدونونها فى مصنفاتهم ، أو يلقونها على طلابهم .

وظهرت - فى هذا العصر - طبقة من العلماء كان جل اهتمامهم وعنايتهم بصناعة الكلام ، وكان معظم هذه الطبقة من اللغويين الذين كان لهم فضل فى الكشف عن الكثير من المسائل البلاغية .

---

(٤) المرجع السابق ١١٧/١ .
(٥) ص . ى : ٨٦ .
(٦) انظر البيان والتبيين ١٧/٢ ، ٢٧/٤ ومابعدها .
(٧) المرجع السابق ٨/١ ، ٢٧/٤ .

وكانت عناية الجاحظ كبيرة فى النقل عن أعلام هذه الطبقة ، مما أبرز لنا تصورهم للبيان وصناعة الكلام ، وما أثاروه من عيوب يجب تجنبها لمن يتعرض لهذه الصناعة . فنراه ينقل عن الخليل ويونس ابن حبيب ، وأبى عمرو ابن العلاء، وسيبويه، والكسائى وغيرهم ، وقد مر بنا كثير من تقوله عن هؤلاء فى غير موضع من هذا الكتاب .

(٤) عناية المتكلمين – وبخاصة المعتزلة – بصناعة الكلام ، فقد أدرك المتكلمون أن البيان هو السلاح الأول لمن يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد منه لمن يتصدى لمقارعة الأبطال ، أو يتعرض للخطب الطوال ، وتنبهوا إلى أن البيان صناعة تحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة الصوت ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ماتستمال به القلوب ، وتثنى به الأعناق ، وتزين به المعانى .

ومن أجل هذا فإن واصل بن عطاء لما علم أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة رام إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره ، والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ماحاول [٨] .

(٥) اهتمام الرواة وتصورهم للبيان ، وتفتيشهم عن العيوب التى تخل بفصاحة الكلام وبلاغته ، وبحثهم عما به يرقى الكلام ، ويسمو فى تأليفه وسبكه . فيروى عن خلف الأحمر – وهو من الرواة – تصوره للتنافر بين الألفاظ ، فيقول : «أنشدنى أبوالعاصى ، قال : أنشدنى خلف الأحمر فى معنى التنافر :

وبعض قريض القوم أولاد علة ⠀⠀ يكد لسان الناطق المتحفظ

ثم يفسر الجاحظ الشطر الأول من هذا البيت بقوله : «أما قول خلف :

وبعض قريض القوم أولاد علة

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرهاً وكانت ألفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر مابين أولاد العلات ، فإذا كانت

---

(٨) البيان والتبيين ١/١٤ ، ١٥ .

الكلمة ليست فى موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة» (٩) .

وينثر الجاحظ فى كتابه كثيراً من جهود هؤلاء الرواة وفضلهم فى الكشف عن الكثير من الفنون ، والمسائل البلاغية ، فهم أول من استعملوا كلمة «البديع» كما حكى ذلك عنهم (١٠) .

(٦) تصور الكتاب وعمال الدواوين للبيان ووظيفته ، وهذه طبقة جديدة كان لها ثقافتها المتنوعة ، فتثقفوا بثقافات الأعاجم ، بل إن معظمهم كان من الأعاجم ، وكان لهؤلاء فضل كبير فى استنباط الكثير من المسائل التى تهم الدرس البلاغى.

وقد نقل الجاحظ تصور هؤلاء وفضلهم فى بسط هذه المسائل ، وأشاد بفهمهم للبلاغة وصناعة الكلام ، فقال عنهم : «لم أر – قط – أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ، ولاساقطاً سوقياً» (١١) .

ويروى أن ابن المقفع – وهو شيخ الكتاب فى ذلك العصر – فسر البلاغة تفسيراً لما يفسره أحد قط ، فقد سئل عن البلاغة ، فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ... إلى آخر ماقال» (١٢) .

والكتاب ملئ بأحاديث هذه الطبقة عن البلاغة ، وعنايتهم بفن القول والإجادة فيه ، وفضلهم فى استنباط الكثير من ضوابطه ومقاييسه .

(٧) تصور غير العرب – من الأمم الأخرى – للبلاغة والفصاحة وصناعة الكلام ، فالفرس واليونان والروم والهند أمم كان لها حضارة . وعاصرت العرب أيام جاهليتهم ، وكان لهم فهمهم للبيان وصناعة الكلام ، وكانت لهم صحائف مكتوبة تشهد بتنبههم للكثير من الضوابط البلاغية عندهم . كل هذا نقله الجاحظ وقدمه فى كتابه (١٣) .

وبذلك نرى أن أبا عثمان جمع فى بيانه شتات هذا العلم ، وكل ماتصورته

---

(٩) البيان والتبيين ٦٦/١ ، ٦٧ .
(١٠) المرجع السابق ٥٥/٤ .
(١١) المرجع السابق ١٣٧/١ .
(١٢) المرجع السابق ١١٥/١ ومابعدها .
(١٣) البيان والتبيين ٨٨/١ ، ٨٩ ، ٩٢ .

العقول والأفهام حول البلاغة والبيان والفصاحة ، وكل مايتصل بها من قريب أو من بعيد ، ليس عند العرب وحدهم ، بل عند غيرهم من الأمم ، وليس عند العرب فى عصورهم المتأخرة ، بل عندهم فى العصور المتقدمة ، ومنذ جاهليتهم ، ومنذ أصبح الكلام بضاعتهم التى يحرصون عليها ، ويعملون على إجادتها وترويجها ، وفضلاً عن هذا فقد أضاف الجاحظ إلى ماجمعه الكثير مما اهتدى إليه عقله وفكره ، مسترشداً بذوقه المرهف وحسه الأصيل .

كل هذا جمعه الجاحظ فى كتاب يحمل – لأول مرة – اسم البيان ، فلاعجب إذا قلنا : إنه قدم – بهذا الكتاب – أول مولود فى علم البلاغة .

وليس هناك ضرب من الشطط أو الإسراف إذا سمينا ماقدمه الجاحظ فى كتابه علم البلاغة ، فالبلاغة – على يديه – أصبح لها كيان مستقل فى ميدان التأليف والتدوين .

فهذا الفضل بن العميد (ت٣٦٠هـ) يقول : «ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس ، أما الفقه فعلى أبى حنيفة ؛ لأنه دون وخلد ماجعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه ، وأما الكلام فعلى أبى هذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، فعلى أبى عثمان الجاحظ» (١٤) .

فابن العميد – فى شهادته – يجعل البلاغة علماً مستقلاً على يد أبى عثمان ، وأن له كيانه المميز بين العلوم الأخرى ، كما كان الفقه وعلم الكلام – فى ذلك الوقت علمين مستقلين ، لهما تميز وتفرد عن سائر العلوم الأخرى .

وأكاد أجزم – بعد أن رأينا أثر الجاحظ فى ميدان التأليف البلاغى فى الفصل السابق – أن ابن العميد كما يثبت لأبى حنيفة إمامته لعلم الفقه ؛ حيث أشار إليه وأخذ عنه كل من جاء بعده من الفقهاء ، فإنه يعنى – أيضاً – أن إمامة الجاحظ للبلاغة ثابتة له ، فقد اهتدى به ، واستضاء بضوئه ، واقتبس من بيانه كل من جاء بعده من الكاتبين والباحثين فى الميدان البلاغى .

ويؤكد هذا القول أن كتب التراجم التى ترجمت له تكاد تجمع على بلاغته وفضله وطول باعه فى وضع أصول هذا العلم ، وتشيد بكتابه «البيان والتبيين» ، وماله من أثر فى هذا الباب ، بل إن بعض هذه الكتب تنقل نصوصاً كاملة من كتابه كالتدليل على مكانته ، وعبقريته فى الاهتداء إلى هذه الأصول والضوابط .

---

(١٤) معجم الأدباء ١٦/١٠٢ ، ١٠٣ .

فنجد صاحب معجم الأدباء يذكر – أولاً – أنه «تلقف الفصاحة مشافهة بالمربد» (١٥) ليثبت أن البلاغة – التى أودعها كتابه – تعتمد على ذوق أصيل ومران طويل ، فلاعجب إذا جاءت واضحة ناضجة ثم يعرض – ثانياً – نصاً من كتابه «البيان والتبيين» كالتدليل على محاولاته الفذة فى وضع ضوابط هذا العلم ، فيقول : «ومن كلام الجاحظ يصف البلاغة» : ومتى شاكل – أبقاك الله – اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمنا بحسن الموقع ... إلى آخره» ، ثم يعقب على ذلك بقوله : «وقرأت بخط أبى حيان التوحيدى من كتابه الذى ألفه فى تقريظ الجاحظ» (١٦) .

وقد مرّ بنا هذا النص الذى نقله ياقوت ، وعرفنا أن الجاحظ كان يحاول الاهتداء إلى وضع الضابط الذى ترجع إليه بلاغة الكلام ، وقد أكد – فى هذا النص – أن البلاغة ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً ، كما عرض فى هذا النص بعض العيوب التى تلحق اللفظ ، وتخرجه من دائرة الفصيح المقبول .

ونجد – أيضاً – صاحب كتاب «أمراء البيان» يعده واحداً من المؤسسين الذين أقاموا للبيان دولة ، وكانوا العمد الذين اعتمد عليهم هذا الفن فى نشأته الأولى ، إلا أن الجاحظ فاقهم بسعة إملائه فى دروس البلاغة ، وميزانه الدقيق لها ، فيقول عن بلاغته : «ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه ، حتى كان يقال : من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به . ومن الخير لطلاب البلاغة إذن أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ليتبينوا – بأنفسهم – طريقه ، ويتواصفوا – فى الجملة – طراز بلاغته وإملائه دروس البلاغة ، ويتعرفوا ميزانه الدقيق فى فقه اللغة (أى النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملها العرب ، وتحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والإبتذال ، واجتناب كل صبغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه) ، وقالوا : إن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة وحظ الجاحظ من هذا كان جزيلاً . ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لايكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً ، ولاوحشياً غريباً ، وقال : الاستعانة بالغريب عجز إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً» (١٧) .

فالجاحظ من أمراء البيان – فى نظر الكاتب – ليس لما قدمه من أدب ورسائل أو لما تمتع به من أسلوب جزل ولفظ رصين فقط ، ولكنه أمير للبيان بما قدمه من دروس البلاغة وبما أوصى به طلابها .

(١٥) المرجع السابق ٧٥/١٦ . والمربد : من الأسواق الأدبية المشهورة فى البصرة .
(١٦) المرجع السابق ٩٤/١٦ ، ٩٥ .
(١٧) أمراء البيان ٣٤٠/٢ ، ٣٤١ .

وفي دائرة معارف القرن العشرين يصرح كاتب مادة «جحظ» بإمامته في البلاغة والبيان ، فيصدر ترجمته له بقوله : «هو إمام البلاغة المشهور» ، وعندما يعرض لمحة من كلامه يسوق نصاً طويلاً من «البيان والتبيين» يتصل بالفصاحة ، وهو ماسبق أن عرضنا له من حديثه عن فصاحة النبي – ﷺ – دفاعاً عن قوله – صلوات الله عليه – «إنا معشر الأنبياء بكاء» وينقل كل ماكتبه الجاحظ في هذا الفصل على الرغم من طوله (١٨) .

وقد أدرك الأقدمون ممن كتبوا في البلاغة العربية – بعده – فضلاً عن تأثرهم به ، أدركوا أثره وفضله في تأسيس هذا العلم وإرساء قواعده . وقد مر بنا – في الفصل السابق – ما أشاد به أبوهلال العسكري بأستاذه الجاحظ وفضله على هذا العلم (١٩) .

ونجد ابن رشيق – وهو يتحدث في باب البيان – لاينسى فضل الجاحظ وإمامته في هذا الباب فيقول : «وقد استفرغ أبوعثمان الجاحظ – وهو علامة وقته – الجهد ، وصنع كتاباً – يعني «البيان والتبيين» – لايبلغ جودة وفضلاً» (٢٠) .

والمؤرخون للبلاغة العربية لم يغفلوا الدور البارز الذي أداه الجاحظ لهذا العلم ، وكان به إماماً ومؤسساً ، وإن كانوا لم يعطوه حقه ومكانه اللائق به ، ولم يبرزوا جهده البلاغي كما أراد له الجاحظ ، وإنما اكتفوا بالإشارة إلى جهوده البلاغية في إجمال ، ومن ثم فإن حكمهم عليه جاء مجملاً .

فصاحب البيان العربي يقرر : «أنه على الرغم من أنه عني بوضع حدود البلاغة كما تصورها ، وكما نقل عن العلماء العرب والأعاجم ، حتى تستبين أمام الدارس معالمها ، فإنه لم يعرض هذه المصطلحات عرضاً علمياً منظماً يلمح فيه الحد والحصر ، واستيفاء الأقسام ، ولكنه عرضها عرضاً أدبياً ، ومثل لها بأمثلة من الروائع الأدبية التي تهيأت له نظماً ونثراً» ، ثم يعود – محاولاً إنصاف الجاحظ – فيقول : «ومن الإنصاف أن نقرر أنه لم يكن من المتوقع أن يفعل الجاحظ أكثر من هذا الذي عمل ، إذا قدرنا أن هذا الموضوع يكتب فيه الجاحظ – للمرة الأولى – بحثاً مستحدثاً» (٢١) .

فعرض المصطلحات العلمية – من وجهة نظر صاحب «البيان العربي» –

---

(١٨) دائرة معارف القرن العشرين – المجلد الثالث – مادة «جاحظ» ص٣٩ ، ٤٠ .
(١٩) الصناعتين ص١١ .
(٢٠) العمدة ١/١٧١ .
(٢١) البيان العربي ص : ١٠٢ ، ١٠٣ .

بصورة أدبية أمر جاء لأول مرة على يد أبى عثمان الجاحظ ، ولم يكن مطلوباً منه أكثر من هذا . وكفى أبوعثمان بهذا فضلاً وشرفاً .

وصاحب كتاب «البلاغة تطور وتاريخ» عندما يعرض للمراحل التى مر بها علم البلاغة يقف عند الجاحظ على أنه مرحلة مستقلة ، هى بداية التأليف البلاغى ، فيقول : «لانكاد نتقدم بعد الربع الأول من القرن الثالث الهجرى حتى يتجرد معتزلى كبير هو الجاحظ لدرس شئون البيان والبلاغة ، فيؤلف كتابه «البيان والتبيين» فى أربعة مجلدات كبار ، جامعاً فيه ملاحظات العرب البيانية ، وبعض ملاحظات الأجانب ، وسجل كثيراً من ملاحظات معاصريه ، وبخاصة المعتزلة» [٢٢] .

وبعد أن يعرض – فى سرعة وإجمال – بعض جهوده البلاغية والبيانية يصرح بقوله : «لعلنا لانبالغ إذا قلنا إن الجاحظ يعد مؤسس البلاغة العربية ، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه «البيان والتبيين» ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه ، وتعمق وراء عصره ، فحكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب أو قل سجلها» [٢٣] .

كما يقرر الدكتور طه حسين فى مقدمته فى البيان العربى : «أن العرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربى» [٢٤] .

وبعد : فإن أصحاب هذه الآراء شهدوا للجاحظ بالإمامة والزعامة ، بل وأنه مؤسس البيان العربى بعد أن تصفحوا – فى إجمال – جهده البلاغى فى عرضه للكثير من مصطلحات هذا العلم ، ومحاولته وضع ضوابط لها . ونعتقد أنه بعد عرضنا المفصل لهذه الجهود والمحاولات التى رأيناها فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، لانستطيع إلا أن نشارك هؤلاء رأيهم ونقول – ونحن على يقين لايخالجه شك – : إن أبا عثمان بما قدمه من جهد رائد يلقانا لأول مرة فى تاريخ هذا العلم ، والجهد الذى بذله فى جمع شتاته المبعثرة فى بطون الكتب والمؤلفات التى صنفت فى فروع الثقافة المختلفة ، ومارواه على ألسنة الرواة والأدباء والكتاب والمتكلمين وغيرهم ممن عاصروه ، ولم يكتف بهذا ، بل قدم لنا تصورات الأمم المختلفة عن البلاغة والبيان ، كل هذا يجمعه فى كتاب مستقل هو فى الواقع استقلال لعلم البلاغة ، وتمييز لها عن سائر العلوم التى كانت فى عصره ، فهو – بحق – واضع هذا العلم ، وأول من أرسى قواعده ، وثبت أصوله ، وأقام بنيانه .

---

(٢٢) البلاغة تطور وتاريخ ص : ٤٦ .

(٢٣) المرجع السابق ص : ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٤) مقدمة فى البيان العربى ص : ٧ .

المصادر والمراجع



المصادر والمراجع

(١) الإتقان فى علوم القرآن – جلال الدين السيوطى – ط : المكتبة الثقافية ، بيروت، لبنان .

(٢) أخبار النحويين البصريين – السيرافى – ط : الحلبى ١٩٤٨م .

(٣) أدب الجاحظ ورسائله – الجاحظ – ط : الرحمانية ١٩٣١ .

(٤) أسرار البلاغة – عبدالقاهر الجرجانى – شرح د/محمد عبدالمنعم خفاجى – ط: مكتبة القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(٥) أسس النقد الأدبى عند العرب – د/أحمد أحمد بدوى – ط : دار نهضة مصر للطبع والنشر .

(٦) الإصابة فى تمييز الصحابة – الحافظ ابن حجر – ط : دار صادر ، بيروت – لبنان .

(٧) إعجاز القرآن – الباقلانى – ط : المكتبة الثقافية ، بيروت – لبنان .

(٨) الإعلام – الزركلى – ط : دار العلم للملايين ، بيروت .

(٩) الأغانى – الأصفهانى – ط : دار الكتب المصرية .

(١٠) أمراء البيان – محمد كرد على – ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥هـ – ١٩٣٧م .

(١١) أنباه الرواة على أنباء النحاة – القفطى – ط : القاهرة ١٣٦٩هـ .

(١٢) الانتصار – أبوالحسين الخياط – ط : دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ–١٩٢٥م .

(١٣) الأنساب – السمعانى – ط : ليدن ١٩١٢م .

(١٤) الإيضاح فى علل النحو – الزجاجى – ط : القاهرة .

(١٥) الإيضاح لتلخيص المفتاح – شرح / عبدالمتعال الصعيدى – ط : المطبعة النموذجية بمصر .

(١٦) البخلاء – الجاحظ – ط : دار صادر بيروت .

(١٧) البديع – ابن المعتز – نشر كراتشقوفسكى .

(١٨) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة – السيوطى – بتحقيق :
محمد أبوالفضل إبراهيم – ط : عيسى البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الأولى .

(١٩) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – د/إبراهيم سلامة – : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م . الثانية .

(٢٠) البلاغة تطور وتاريخ – د/شوقى ضيف – ط : دار المعارف – الطبعة الثانية .

(٢١) البلاغة العربية – تاريخها ومصادرها ومناهجها – د/على عشرى زايد – ط : مطبعة الشباب ١٩٨٢م .

(٢٢) البيان (نقد النثر) – قدامة بن جعفر – بتقديم د/طه حسين ، عبدالحميد العبادى – ط : دار الكتب المصرية .

(٢٣) البيان العربى – د/بدوى طبانة – ط : مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م الطبعة الرابعة .

(٢٤) البيان والتبيين – الجاحظ – بتحقيق عبدالسلام هارون – ط : مطبعة الخانجى بمصر ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

(٢٥) تأويل مشكل القرآن– ابن قتيبة – ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤م القاهرة.

(٢٦) تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات – ط : دار الثقافة ، بيروت – لبنان.

(٢٧) تاريخ الإسلام – حسن إبراهيم حسن – ط : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م .

(٢٨) تاريخ بغداد – الخطيب البغدادى – ط : دار الكتاب العربى ، بيروت – لبنان .

(٢٩) تاريخ النقد الأدبى – طه أحمد إبراهيم – ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م بالقاهرة .

(٣٠) تفسير مجاهد بن جبير – بتحقيق : عبدالرحمن السورتى – ط : مطابع الدوحة الحديثة ، قطر .

(٣١) التفسير والمفسرون – د/محمد حسين الذهبى – ط : دار الكتب الحديثة .

(٣٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس – الفيروزأبادى – ط : مصطفى البابى الحلبى – الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ – ١٩٥١م بمصر .

(٣٣) الجاحظ ، حياته وآثاره – د/طه الحاجرى – ط : دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

(٣٤) جامع البيان فى تفسير القرآن – ابن جرير الطبرى – ط. المطبعة الأميرية ١٣٢٣هـ .

(٣٥) جمع الجواهر – الحصرى – ط : الرحمانية ١٣٥٣هـ بمصر .

(٣٦) الحيوان – الجاحظ – تحقيق الأستاذ/محمد عبدالسلام هارون – ط : دار الكتب المصرية ١٣٥١هـ – ١٩٣٣م بمصر .

(٣٧) الخطابة – أرسطو – تقديم د/إبراهيم سلامة – ط : المطبعة النموذجية بمصر.

(٣٨) الخطط المقريزية – تقى الدين المقريزى – ط : مطبعة النيلى ١٣٣٤هـ بالقاهرة .

(٣٩) دائرة المعارف الإسلامية – ط :١٣٥٢هـ – ١٩٣٣م .

(٤٠) دائرة معارف القرن العشرين – ط : دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان .

(٤١) دراسات فى نقد الأدب العربى – د/بدوى طبانة – ط : الأنجلو المصرية ، الخامسة ١٣٨٨هـ–١٩٦٩م .

(٤٢) دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجانى – ط : المكتبة المحمودية التجارية بمصر ، الطبعة الثانية .

(٤٣) رسالة فى البلاغة – المبرد – تحقيق د/رمضان عبدالتواب – ط : مطبعة جامعة عين شمس ١٩٦٥م بالقاهرة .

(٤٤) سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجى – تحقيق الأستاذ/عبدالمتعال الصعيدى – ط : محمد على صبيح وأولاده ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م بمصر .

(٤٥) السيرة النبوية – ابن هشام – ط : مصطفى البابى الحلبى ، الثانية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م بمصر .

(٤٦) شذراب الذهب – ابن العماد – ط : مطبعة القدسى –١٣٥٠هـ .

(٤٧) شرح المواقف – السيد الشريف – ط : مطبعة السعادة ١٩٠٧م .

(٤٨) الشعر والشعراء – ابن قتيبة – تحقيق الأستاذ/أحمد شاكر – ط : دار المعارف بمصر .

(٤٩) الصناعتين – أبوهلال العسكرى – ط : الآستانة .

(٥٠) ضحى الإسلام – أحمد أمين – ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣م .

(٥١) طبقات الشعراء – ابن سلام – ط : مطبعة السعادة بالقاهرة .

(٥٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوى – ط : المقتطف ١٣٣٢هـ بمصر .

(٥٣) عبدالقاهر الجرجانى وجهوده البلاغية – د/أحمد أحمد بدوى – ط : المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (أعلام العرب) .

(٥٤) العثمانية – الجاحظ – تحقيق الأستاذ/محمد عبدالسلام هارون – ط : مطبعة الكتاب العربى ١٩٥٥م بالقاهرة .

(٥٥) العمد فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق – ط : دار الجيل ، لبنان .

(٥٦) عيون الأخبار – ابن قتيبة – ط : دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ – ١٩٢٥م القاهرة .

(٥٧) الفرق بين الفرق – أبومنصور البغدادى – ط : دار المعارف ١٣٢٨هـ .

(٥٨) الفهرست – ابن النديم – ط : الرحمانية ١٣٤٨ هـ بالقاهرة .

(٥٩) قواعد الشعر – ثعلب – بشرح الأستاذ/محمد عبدالمنعم خفاجي – ط : مطبعة الحلبى ١٩٤٨م بالقاهرة .

(٦٠) الكامل فى اللغة والأدب – المبرد – ط : مطبعة الاستقامة ١٩٥١م .

(٦١) الكتاب – سيبويه – ط : المطبعة الأميرية .

(٦٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – الزمخشرى – ط : دار الكتاب العربى ، بيروت لبنان .

(٦٣) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون – حاجى خليفة – ط : وكالة المعارف ١٣٦٠هـ – ١٩٤١م .

(٦٤) الكناية والبديع – د/حسن الظواهرى – ط : دار الطباعة المحمدية ، الأولى .

(٦٥) لسان الميزان – الحافظ بن حجر – ط : مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٣٩٠هـ – ١٩٧١م ، الثانية .

(٦٦) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير – ط : مطبعة نهضة مصر ١٩٥٩م بالقاهرة .

(٦٧) مجاز القرآن – معمر بن المثنى – تحقيق : محمد فؤاد سزكين ط : الخانجى بمصر .

(٦٨) مجمع الأمثال – الميدانى النيسابورى – تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد – ط : مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٥م بمصر .

(٦٩) مختصر سنن أبى داوود – الحافظ المنذرى – تحقيق : أحمد شاكر ، محمد حامد الفقى – ط : المكتبة الأثرية ، باكستان .

(٧٠) المدارس النحوية – د/شوقى ضيف – ط ، دار المعارف ، الرابعة .

(٧١) مرآة الزمان وعبر اليقظان – اليافعى – مصورة بدار الكتب المصرية .

(٧٢) مراتب النحويين – أبوالطيب اللغوى – ط : مكتبة نهضة مصر .

(٧٣) مروج الذهب – المسعودى – ط : المطبعة البهية ١٣٤٦هـ .

(٧٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل – ط : دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م ، الثانية .

(٧٥) مصطلحات بلاغية – د/أحمد مطلوب – ط : مطبعة العانى ١٩٧٢م بغداد .

(٧٦) معانى القرآن – الفراء – ط : دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م بالقاهرة .

(٧٧) معجم الأدباء – ياقوت الحموى – ط : دار المستشرق ، بيروت لبنان .

(٧٨) معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – ط : دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

(٧٩) مقالات الإسلاميين – أبو الحسن الأشعرى – ط : القاهرة ١٣٥٩هـ .

(٨٠) مقدمة ابن خلدون – ط : لجنة البيان العربى ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

(٨١) الملل والنحل – الشهر ستانى – تحقيق : محمد سيد كيلايى – ط : مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٨٢) منار السالك إلى أوضح المسالك – محمد عبدالعزيز النجار – ط : مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة .

(٨٣) مناهل العرفان فى علوم القرآن – عبدالعظيم الزرقانى – ط : عيسى البابى الحلبى .

(٨٤) الموافقات – الشاطبى – ط : المكتبة التجارية بالقاهرة .

(٨٥) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء – المرزبانى – ط : المطبعة السلفية ، الثانية ١٣٨٥ هـ بالقاهرة .

(٨٦) ميزان الاعتدال – الحافظ الذهبى – ط : مطبعة السعادة ١٣٢٥هـ بمصر .

(٨٧) نحو بلاغة جديدة – د/محمد عبدالمنعم خفاجى ، د/عبدالعزيز شرف – ط : مكتبة غريب بالقاهرة .

(٨٨) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء – ابن الأنبارى – ط : القاهرة ١٢٩٤هـ .

(٨٩) النقد الأدبى الحديث – د/محمد غنيمى هلال – ط : نهضة مصر للطبع والنشر .

(٩٠) نقد الشعر – قدامة بن جعفر – ط : مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٢هـ .

(٩١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – أحمد بن خلكان – ط : مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

* * *

الفهرس



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة
مقدمة الكتاب .... ٣ – ٧

الباب الأول

أبوعثمان الجاحظ

الفصل الأول : عصر الجاحظ وحياته .... ٨ – ٤٠
المبحث الأول : عصره .... ١٢ – ١٧
المبحث الثانى : حياته .... ١٨ – ٣٢
اسمه ونسبه ١٨
كنيته ولقبه ١٩
مولده ، ونشأته ٢٠
شيوخه ٢٢
علمه وأدبه وفضله ٢٦
صفاته وأخلاقه ٢٨
مذهبه الاعتقادى ٢٩
تلاميذه ٣٠
وفاته ٣١
الفصل الثانى : مؤلفات الجاحظ .... ٣٣ – ٤٠
البيان والتبيين أشهر مؤلفات الجاحظ ٣٩

* * *

الصفحة

الباب الثانى

البلاغة العربية قبل الجاحظ ٤٣ – ١١٢

الفصل الأول : البذور البلاغية فى العصر الجاهلى ٤٥
الفصل الثانى : الجذور البلاغية فى صدر الإسلام ٥٧
الفصل الثالث : الملاحظات البلاغية فى العصر الأموى ٦٩
الفصل الرابع : المقاييس البلاغية فى أوائل العصر العباسى ٨٧

الباب الثالث

المقاييس البلاغية فى البيان والتبيين ١١٣ – ١٥٨

تصدير ١١٥
الفصل الأول : البيان عند الجاحظ .... ١٢١ – ١٤٤
معنى البيان ١٢٢
أهمية البيان وفضله ١٢٧
البيان مقصور على العرب ١٣٥
البيان صناعة تقوم على أصول وضوابط ١٤٢
الفصل الثانى : الفصاحة والبلاغة ١٤٥–١٩٨
فصاحة المفرد ١٤٨
غرابة الكلمة ١٤٨
مقياس الطبع والتكلف ١٥١
تنافر الحروف ١٥٦
مخالفة القياس اللغوى ١٥٧

الصفحة

فصاحة الكلام ١٥٩
تنافر الكلمات ١٦٠
ضعف التأليف ١٦٣
التعقيد ١٦٤
فصاحة المتكلم ١٦٦
معنى البلاغة ١٦٩
مطابقة الكلام لمقتضى الحال ١٧٦
النظم ١٨٤
اللفظ والمعنى ١٩٠
الفصل الثالث : مسائل فى علم المعانى.. ١٩٩–٢٢٢
الحذف ٢٠١
من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر... ٢٠٥
الكلام الذى يذهب به السامع إلى قصد صاحبه......... ٢٠٥
اللغز فى الجواب ٢٠٧
القلب ٢٠٩
الفصل والوصل ٢١٠
الإيجاز والإطناب ٢١٣
الفصل الرابع : مسائل علم البيان.. ٢٢٣–٢٤٢
التشبيه ٢٢٦
الاستعارة ٢٣٢
الكناية ٢٣٨
الفصل الخامس : من ألوان البديع.. ٢٤٣
تمهيد ٢٤٣

الصفحة

البديع عند الجاحظ ٢٤٥
التقسيم ٢٤٧
الهزل يراد به الجد ٢٤٩
السجع ٢٥١
الازدواج ٢٥٦
السرقات الشعرية ٢٥٧
الاقتباس ٢٦٠
التلميح ٢٦١
براعة الاستهلال ٢٦٣

الباب الرابع

البيان والتبيين فى ميدان البحث البلاغى ٢٦٥

الفصل الأول : أثر البيان والتبيين فى ميدان البحث البلاغى .... ٢٦٩ – ٣٠٣
عبدالله بن قتيبة ٢٧١
محمد بن يزيد المبرد ٢٧٥
ثعلب ٢٧٧
عبدالله بن المعتز ٢٧٩
قدامة بن جعفر ٢٨٣
أبوهلال العسكرى ٢٨٨
ابن سنان الخفاجى ٢٩٢
عبدالقاهر الجرجانى ٢٩٦

* * *

الصفحة

الفصل الثاني : الجاحظ أول مؤسس لعلم البلاغة...................... ٣٠٥ – ٣١٤
المصادر والمراجع ٣١٥
فهرس الموضوعات ٣٢٣

* * *

